لغز أزهار النرجس

إدجار والاس

لغز أزهار النرجس

تأليف
إدجار والاس

ترجمة
هبة عبد العزيز غانم

هنـــداوي

لغز أزهار النرجس

إدجار والاس

The Daffodil Mystery

Edgar Wallace

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٨ ٢٣٢٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٠.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- عرضٌ يُرفَض	٧
٢- الصيَّاد يرفض طريدته	١٥
٣- الرجل الذي أحبَّ لاين	٢١
٤- جريمة قتل	٢٧
٥- ما عُثِرَ عليه في جيب لاين	٣٥
٦- والدة أوديت رايدر	٤١
٧- المرأة في القضية	٤٩
٨- إخراس سام ستاي	٥٥
٩- من أين أتت الأزهار	٥٩
١٠- المرأة في آشفورد	٦٥
١١- السيدة رايدر تعلم بمقتل ثورنتون لاين	٦٩
١٢- سجل المستشفى	٧٥
١٣- طلقتان في جوف الليل	٨٣
١٤- البحث عن منزل ميلبرج	٨٩
١٥- صاحبُ المسدس	٩٧
١٦- الوريث	١٠١
١٧- المسدس المفقود	١٠٧
١٨- البصمات	١١٥
١٩- لينج تشو يقول الحقيقة	١٢١
٢٠- السيد ميلبرج يُنهي المسألة	١٢٩

٢١- تغطية الأثر ١٣٥
٢٢- المحفظة الثقيلة ١٣٩
٢٣- زائر الليل ١٤٥
٢٤- اعترافُ أوديت رايدر ١٤٩
٢٥- خدعة ميلبرج الأخيرة ١٥٥
٢٦- في غرفة السيدة رايدر ١٦١
٢٧- ضحكة في سكون الليل ١٦٥
٢٨- بصمة الإبهام ١٧١
٢٩- نظرية لينج تشو ١٧٥
٣٠- مَنْ قتل السيدة رايدر؟ ١٨٣
٣١- سام ستاي يظهر ١٨٧
٣٢- مذكرات ثورنتون لاين ١٩٣
٣٣- لينج تشو «رجل التعذيب» ٢٠١
٣٤- اعتقال ٢٠٧
٣٥- رواية ميلبرج ٢١١
٣٦- في مقبرة هايجيت ٢٢١
٣٧- عودة لينج تشو ٢٢٥
٣٨- أقوالُ سام ستاي ٢٣١

الفصل الأول

عرضٌ يُرفَض

«أخشى أنني لا أفهمُك يا سيد لاين.»

نظرَت أوديت رايدر بجدِّية إلى الشاب الذي كان منحنيًا على مكتبه. كانت بَشَرتُها الصافية مخضَّبةً بلون وردي هادئ، وكان ثَمة وميضٌ في الأعماق الرصينة لهاتين العينَين الرماديتين كفيلٌ بأن يُحذر أيَّ رجل أقلَّ إيمانًا بعبقريته وقدرته على الإقناع من ثورنتون لاين.

لم يكن ينظر إلى وجهها. كانت عيناه تتفحَّصان باستحسان قَوامَها المثالي، ملاحظًا استقامةَ قدِّها، واتزانَ رأسها الرائع، ورشاقة يدَيها النحيلتين.

أزاحَ شعره الأسود الطويل عن جبهته إلى الوراء وابتسم. كان يُسعده اعتقادُ أن وجهه كان مصبوبًا في قالَبٍ مثقَّف، وأنه يُمكن وصف شحوب بشرته الباهتة غير الصحية إلى حدٍّ ما بأنه «شحوب الفِكْر».

أشاحَ بوجهه عنها على حين غِرَّة ونظر عبر النافذة البارزة الكبيرة التي تُطل على الطابق السفلي المزدحم لمركز لاين التجاري.

بُني هذا المكتبُ في الطابَق الأوسط المنخفض، ووُضِعت النافذة بحيث يستطيع في أيِّ لحظة الإشرافَ على القسم الأهم الذي كان من حُسن حظه أنه كان مسئولًا عن إدارته.

بين الحين والآخر، كما رأى، كان ثَمة رأسٌ يلتفت ناحيتَه، وكان يعلم أن انتباه جميع الفتيات مُنصبٌّ على هذا المشهد الصغير، الذي كان مرئيًّا بوضوحٍ من الطابق السفلي، والذي تُشارك فيه إحدى الموظَّفات على غير رغبتها.

كانت هي أيضًا مُدركةً لهذه الحقيقة، مما زاد انزعاجها وارتباكها. تحركَت حركة بسيطة، كما لو كانت ستذهب، لكنه أوقفها.

قال: «أنتِ لا تفهمين يا أوديت.» كان صوته رقيقًا ورخيمًا، كما لو كان يربِّت عليها. ثم سألها فجأة: «هل قرأتِ كتابي الصغير؟»

أومأت برأسها إيجابًا.

وقالت بينما تزداد خدودها حُمرة: «نعم، قرأتُ بعضًا منه.»

ضحك ضحكة خافتة.

سألها: «أعتقدُ أنكِ ارتأيتِ أنه من الغريب أنَّ رجلًا في مثل مكانتي يزعج رأسه ويكتب شعرًا، أليس كذلك؟ كتبتُ معظمه قبل أن آتيَ إلى هذا المتجر اللعين يا عزيزتي ... قبل أن أتحول إلى تاجر!»

لم تُحِر جوابًا، فنظر إليها بفضول.

سأل: «ما رأيكِ فيه؟»

كانت شفتاها ترتجفان، ومرةً أخرى أخطأ في تفسير الدلالات.

قالت بصوت منخفض: «أرى أنه كان فظيعًا للغاية.»

رفعَ حاجبيه. وقال:

«فظيع!»

ثم استأنف ساخرًا: «يا لكِ من تجسيد للطبقة المتوسطة التي تنتمين إليها يا آنسة رايدر!» ثم تابعَ قائلًا: «تلك الأبيات قد أشادَ بها عددٌ من أفضل النقاد في البلاد باعتبارها تُجسد كلَّ مَواطن جمال الشعر اليوناني القديم.»

شرعَت في الحديث، لكنها منعت نفسها ووقفت دون أن تنبس ببنتِ شَفة.

هزَّ ثورنتون لاين كتفَيه وسار إلى الطرف الآخر من مكتبه المُجهَّز بأثاث فاخر.

قال بعد فترة: «الشِّعرُ مثل الخِيار، لا بد أن تتعلَّمي تذوُّقَه.» ثم تابعَ: «يجب أن يصل مستوى تعليمِكِ إلى تذوقِ نوعٍ معين من الأدب. أكاد أجزم أنه سيأتي وقتٌ تكونين فيه ممتنةً لأنني منحتُك فرصةَ الاطلاع على خواطرَ جميلة متأنقة في حُلَّة من اللغة الجميلة.»

عندئذٍ تطلعَت إليه.

سألت: «هل لي أن أذهب الآن يا سيد لاين؟»

أجاب بهدوء: «ليس بعد.» ثم استطرد قائلًا: «قلتِ الآن إنكِ لم تفهَمي ما كنتُ أتحدث عنه. سأعرض الأمرَ بوضوحٍ أكثرَ هذه المرة. أنت فتاة جميلة جدًّا، كما تعلمين غالبًا، ومن المرجح جدًّا أن يكون قدَرُك أن تتزوَّجي شخصًا عاديًّا جدًّا ذا عقلية متواضعة كأبناء الضواحي، وتعيشي معه حياةً تنحدر إلى مستوى العبودية. هذه هي حياة نساء الطبقة

المتوسطة، كما تعلمين على الأرجح. ولماذا ترضخين لهذه العبودية؟ ببساطةٍ لأن شخصًا يرتدي معطفًا أسودَ وياقة بيضاء تلا عليك بعض الكلمات — كلمات ليس لها معنًى، كما أنها ليس لها أهمية بالنسبة إلى أيِّ شخص ذكي. لن أُكلف نفسي عناءَ المرور بمثل هذه المراسم الحمقاء، ولكنني سأتكبَّد عناء أن أجعَلَكِ سعيدة.»

مشى نحوها ببطءٍ ووضع يده على كتفها.

تراجعَت بدافع غريزي، فضحك.

«ما رأيُكِ؟»

دارت حوله وعيناها تستعران، لكن صوتها تحت السيطرة.

قالت: «تصادفَ أنني واحدةٌ من هؤلاء الحمقى ذَوي التفكير المتواضع كأبناء الضواحي، الذين يُعطون أهميةً لتلك الكلمات الغامضة التي كنتَ تتحدث عنها. ومع ذلك فأنا واسعةُ الأفق بما يكفي للاعتقاد بأنَّ مراسم الزواج لن تجعلك أكثرَ سعادةً أو تعاسةً سواءٌ جرى أداؤها أو جرى التغاضي عنها. لكن، سواءٌ كان زواجًا أو أيَّ نوع آخر من الارتباط، فأنا على الأقل أحتاج إلى رجل.»

عبَسَ وجهه.

وسألها، وقد تغيرَت نبرة صوته الناعمة: «ماذا تعنين؟»

كان صوتها مخنوقًا بدموع غاضبة عندما ردَّت عليه:

«لن أرغبَ في مخلوقٍ غريبِ الأطوار يصوغ مشاعرَ مروعةً في أبيات باردة. أُكرر، أريد رجلًا.»

ظهرَ الغضب على وجهه.

وقال رافعًا صوته: «هل تعرفين إلى مَنْ تتحدَّثين؟»

قالت بأنفاس متلاحقة: «أنا أتحدث إلى ثورنتون لاين، صاحب متاجر لاين، ربِّ عمل أوديت رايدر الذي تتقاضى منه ثلاثةَ جنيهات في الأسبوع.»

كان ينفث غضبًا.

قال لاهثًا: «كوني حذرة!» ثم كرَّرها: «كوني حذرة!»

واصلَت حديثها بسرعة: «إنني أتحدث إلى رجلٍ حياته كلُّها عارٌ على مُسَمَّى «رجل» ذاته!» وأضافت: «رجل لا يُخلص في شيء، ويعيش على عقل أبيه وسُمعته، وعلى المال الذي اكتُسب من خلال العمل الشاق الذي أدَّته سواعدُ رجالٍ أفضل.»

وصاحت بازدراءٍ بينما كان يخطو نحوَها: «لا يُمكنك تخويفي.» ثم قالت: «أوه، نعم، أعلم أنني سأتركُ عملك، وسأغادر الليلة!»

جُرِح الرجل وشعَر بالمهانة وكاد يسحقُه ازدراؤها. وأدركَت هي ذلك فجأةً وأوقفَ تعاطفُها النسائيُّ السريع أيَّ إحساس زائد بالمرارة.

قالت بنبرةٍ أكثرَ رقة: «أنا آسفةٌ لأنني كنت قاسيةً للغاية.» ثم أضافت: «لكنك قد استفزَزْتَني يا سيد لاين.»

كان عاجزًا عن الكلام ولم يستطِع إلا أن يهزَّ رأسه ويُشير إلى الباب بإصبَعٍ مرتعشة.

قال هامسًا: «اخرجي.»

خرجَت أوديت رايدر من الغرفة، لكن الرجل لم يتحرَّك. ثم فجأة تحرَّك إلى النافذة ونظر إلى الطابق السُّفلي، ورأى جسدَها الرشيقَ يتحرك ببُطء عبر زحام الزبائن والموظفين ويعتلي الدرجاتِ الثلاثَ المؤديةَ إلى مكتب مدير الحسابات.

همهم قائلًا: «ستدفعين ثمنَ هذا يا فتاتي!»

لقد جُرِح جُرحًا لا يُغتفَر. كان ابنَ رجلٍ ثريٍّ وعاش بطريقةٍ ما حياةً مَصونة بعيدةً عن أي إحباطات. لقد حُرِم المَيْزة التي كان يُمكن أن تمنحَها له المدرسة العامة، وذهب إلى مدرسة خاصة محاطًا بالمتملِّقين والمتكلِّفين أمثالِه، ولم يشعر قطُّ ببرودة رياح النقد موجَّهةً إليه، إلا فيما اعتاد على وصفه بـ «صِحافة الزَّواحف».

لعقَ شفتَيه الجافتَين، وسار إلى مكتبه، وضغط جرسًا. وبعد انتظار قصير، ذلك أنه كان قد أرسل سكرتيرته بعيدًا عن قصد، دخلَت فتاة.

سأل: «هل جاءَ السيد تارلينج؟»

«نعم يا سيدي، إنه في غرفة الاجتماعات. إنه ينتظر منذ ربع الساعة.»

أومأ برأسه.

قال: «شكرًا لكِ.»

«هل أُخبره ...»

قال لاين: «سأذهبُ إليه بنفسي.»

أخرجَ سيجارة من عُلبته الذهبية، وأشعل عودَ ثقاب وأشعلها. كانت أعصابه مهتزة، ويداه ترتجفان، لكن العاصفة في قلبه كانت في سبيلها إلى الهدوء تحتَ تأثير هذه الفكرة العظيمة. تارلينج! يا له من إلهام! تارلينج، بسُمعته المعروفة عن بَراعته وذكائه الذي يكاد يكون خارقًا. ماذا يمكن أن يكون أكثرَ روعةً من هذه المصادفة؟

مرَّ بخطواتٍ سريعة عبْر الممر الذي يربط بين عرينِه الخاصِّ وبين غرفة الاجتماعات، ودخل إلى هذه الغرفة الفسيحة مادًّا يدَيه.

قد يكون الرجل الذي استدار ليُحيِّيَه في السابعة والعشرين أو السابعة والثلاثين من عمره. كان طويلًا، لكنه رشيقٌ وليس عريضًا. كان وجهه بلون الماهوجني، وتطلَّع إلى لاين بعينَين زرقاوين غامضتَين ولا يحملان تعبيرًا. كان هذا هو الانطباعَ الأول الذي تلقَّاه لاين.

أخذَ يد لاين في يده — كانت ناعمةً مثل يدِ امرأة. وبينما هما يتصافحان لاحظ لاين شخصًا ثالثًا في الغرفة. كان تحت الطول المتوسط، وجلسَ في الظِّل الذي ألقاه أحدُ أعمدة الحائط. وقفَ هو أيضًا، لكنه أحنى رأسه.

قال لاين ناظرًا إلى هذا الشبح غير المتوقَّع بفضول: «صيني، ها؟» ثم انتبه قائلًا: «آه بالطبع يا سيد تارلينج، كِدتُ أنسى أنك أتيتَ من الصين لتوِّك. هَلَّا جلست؟»

فعل كما فعل الآخَر، وألقى بنفسه على كرسيٍّ وعرض عُلبة سجائره عليه.

قال: «سأناقش العمل الذي سأطلبه منك لاحقًا.» ثم استدرك قائلًا: «ولكن يجب أن أوضح أنني كنتُ منجذبًا إليك جزئيًّا بواسطة الوصف الذي قرأته في إحدى الصحف بخصوص الطريقة التي استعدتَ بها جواهرَ دوقة هينلي، وجزئيًّا من خلال القصص التي سمعتُها عنك عندما كنتَ في الصين. أنت لا تعمل لصالح سكوتلاند يارد، أليس كذلك؟»

هزَّ تارلينج رأسه.

أجابَ بهدوء: «بلى.» ثم تابعَ: «كنت أعمل بانتظام مع الشرطة في شنغهاي. وكنت قد انتويتُ الانضمام إلى سكوتلاند يارد؛ في الواقع، لقد جئتُ لهذا الغرض. ولكن حدثَت عدة أمور جعلَتني أفتح مكتبَ تحقيقاتٍ خاصًّا، وكان أهم هذه الأمور هو أن سكوتلاند يارد رفضت أن تُطلِقَ يدي في التصرف كما طلبت!»

أومأ الآخر برأسه بسرعة.

لقد ذاعَ صيت إنجازات جاك أوليفر تارلينج في الصين، أو كما أُطلق عليه في عالَم الجريمة الصيني «صياد الرجال».

كان لاين يحكم على الناس كافةً بمعاييره الخاصة، ورأى في هذا الرجل غيرِ العاطفي أداةً محتملة، وعلى الأرجح شريكًا محتملًا.

قامت قوة المباحث في شنغهاي بأشياءَ غريبةٍ بكلِّ المقاييس، ولم تكن دقيقةً للغاية فيما يتعلَّق بالالتزام بالنصِّ الحرفي للقانون. حتى إنه كانت هناك شائعاتٌ بأن «صياد الرجال» لم يتورَّع عن تعذيب سجنائه، إذ كان بذلك يستطيع انتزاع الاعترافات التي يُمكن

أن تُورِّط واحدًا من أعتى المجرمين. لم يعرف لاين، ولم يستطِع أن يعرفَ كلَّ الأساطير التي انتشرت حول اسم «الصياد» ولم يكن من المتوقَّع من حيث المنطقُ أن يُفرِّق بين الحقيقة والزيف.

وتابع تارلينج ببطء وبنبرة حاسمة: «أعرف جيدًا سبب إرسالك من أجلي.» ثم أردف: «لقد أعطيتَني ملخَّصًا تقريبيًّا في رسالتك. كنتَ تشكُّ في أن أحد موظفيك لا يزال يسرق الشركة لسنواتٍ عديدة. كان اسمه السيد ميلبرج، وهو رئيس القسم.»

أوقفه لاين بإشارة وخفض صوته.

قال: «أريدك أن تنسى ذلك لبرهة يا سيد تارلينج.» ثم تابعَ: «في الواقع، سوف أُقدم إليك ميلبرج، وربما يستطيع ميلبرج مساعدتَنا في مُخطَّطي. أنا لا أقول إن ميلبرج صادق، أو إن شكوكي كانت بلا أساس. لكن في الوقت الحاليِّ لديَّ مهمةٌ أكبرُ من ذلك بكثير، وسأكون مَدينًا لك إذا نسيتَ كل الأشياء التي قلتُها عن ميلبرج. سوف أتصل به الآن.»

مشى إلى طاولة طويلة امتدَّت نحو نصف طول الغرفة، ورفعَ سماعة هاتفٍ كان موضوعًا عند أحد طرَفَيها، وتحدَّث إلى عامل الهاتف.

قال: «قل للسيد ميلبرج أن يأتيَ إليَّ في غرفة الاجتماعات، من فضلك.»

ثم عاد مرة أخرى إلى ضيفه.

قال: «مسألة ميلبرج يمكن أن تنتظر.» ثم أضافَ: «لا أظن أنني سوف أمضي قُدُمًا فيها. هل أجريتَ تحرياتٍ بشأنها؟ إذا كنت قد فعلت، فالأحرى بك أن تُخبرني بإيجازٍ بما وجدتَه قبل أن يأتيَ ميلبرج.»

أخذ تارلينج بطاقةً بيضاءَ صغيرة من جيبه ونظر إليها.

«ما الراتبُ الذي تدفعه إلى ميلبرج؟»

أجاب لاين: «تِسعَمائة جنيه في العام.»

قال تارلينج: «إنه يعيش براتبِ خمسةِ آلاف.» ثم استدرك: «بل ربما حتى أكتشفُ أنه يعيش براتبٍ أكبرَ بكثير. لديه منزلٌ يُطِل على النهر، ويعيش ببذخ شديد ...»

لكنَّ الآخرَ تجاهل التقريرَ بنفادِ صبر.

وهتفَ به: «لا، دَعْ هذا ينتظر.» ثم أوضحَ: «أقول لك إن لديَّ عملًا أهمَّ بكثير. ميلبرج قد يكون لصًّا ...»

«هل أرسلتَ في طلبي يا سيدي؟»

استدار بسرعة. كان الباب قد انفتح بدون ضجيج ووقف رجلٌ على عتبة الغرفة، تعلو وجهَه ابتسامةٌ عريضة، ويداه لا تنفكَّان تتشابكان وتتلويان بلا انقطاع وكأنه يغسلهما بصابونٍ خفي.

الفصل الثاني

الصيَّاد يرفض طريدته

قال لاين بحرَج: «هذا هو السيد ميلبرج.»

إذا كان السيد ميلبرج قد سمع الكلماتِ الأخيرةَ التي نطقها صاحبُ العمل، فإن وجهه لم يَشِ بهذه الحقيقة. كانت ابتسامته ثابتة، ولم تنفرج بها شفَتاه فحَسْب، ولكنها ملأت عينَيه الكبيرتين غيرَ اللامعتين. رمَقه تارلينج سريعًا بعينيه ووضعَ استنتاجاته الخاصة. كان الرجل خادمًا بالغريزة، ممتلئَ الوجه، أصلع الرأس، ذا كتفَين منحنيَين، وكأنه يعيش في إيماءة دائمة بالخنوع.

«أغلِق الباب يا ميلبرج، واجلس. هذا هو السيد تارلينج. السيد تارلينج محقِّق.»

«حقًّا سيدي؟»

أحنى ميلبرج رأسَه باحترامٍ في اتجاه تارلينج، بينما راحَ المحقق يُراقب عبثًا أيَّ تغيير في اللون أو ملامح الوجه أو أيًّا من تلك العلامات التي كثيرًا ما تشي بالمذنبين المُدانين.

قال في نفسه: «رجل خطير.»

نظر بزاويةِ عينه ليرى ما هو الانطباعُ الذي خلَّفَه الرجلُ على لينج تشو. بالنسبة إلى العين العادية، ظل لينج تشو مراقبًا محايدًا للمشهد، لكن تارلينج رأى هذه الانحناءةَ البسيطة للشِّفاه، والانتفاخَ غير الملحوظ تقريبًا للأنف، الذي يَظهر دائمًا على وجه مرافقه عندما «يشم» مجرمًا.

كرَّر لاين: «السيد تارلينج محقق.» ثم أضافَ: «إنه رجل نبيل سمعتُ عنه عندما كنتُ في الصين.» ثم سألَ تارلينج: «أنت تعلم أنني كنت في الصين لمدة ثلاثة أشهر عندما قمتُ بجولتي حول العالم؟»

أومأ تارلينج.

وقال: «أوه نعم، أعلم.» ثم واصلَ حديثه: «لقد نزلتَ في فندق «بند». لقد قضيتُ وقتًا طويلًا في الحي الأصلي، وكان لديكَ بالأحرى تجرِبةٌ غيرُ سارة نتيجةَ تجرِبة تدخين الأفيون.»

احمرَّ وجه لاين، ثم ضحك.

قال بنبرةٍ غاضبة: «أنت تعرف عني أكثرَ مما أعرفه عنك يا تارلينج.» ثم التفتَ مرة أخرى إلى مرءوسه.

قال: «لديَّ أسبابٌ للاعتقاد بأنَّ هناك أموالًا تُسرَق في هذه الشركة، من قِبَل أحد المحاسبين.»

قال السيد ميلبرج مصدومًا: «مستحيلٌ يا سيدي!» ثم أوضحَ: «مستحيل تمامًا! مَنْ يمكن أن يرتكب هذه الفَعْلة؟ وما أذكاك في اكتشاف ذلك يا سيدي! أنا دائمًا أقول إنك ترى ما يَغفُل عنه العجائز أمثالُنا على الرغم من أنه أمام أعيننا تمامًا!»

ابتسم السيد لاين برضًا عن النفس.

قال: «سوف يُثير اهتمامَك أن تعرف يا سيد تارلينج أنني أنا نفسي لديَّ بعضُ المعرفة والعلم بفئات المجرمين وأصنافهم. في الحقيقة، يوجد شخصٌ شقي أتعهَّده برعايتي وقد حاولت جاهدًا إصلاحه على مدار السنوات الأربع الماضية، وهو على وشك الخروج من السجن في غضون عدة أيام.» ثم أردفَ بتواضع: «لقد توليتُ هذا العمل لأنني أشعر بأن ذلك واجبنا نحن الذين نتمتَّع بحظٍّ أوفرَ في الحياة، أن نُساعد أولئك الذين لم تسنَحْ لهم الفرصة في المنافسة الشرسة في العالَم.»

لم ينبهِرْ تارلينج.

سأله: «هل تعرف الشخص الذي يسرقك؟»

«لديَّ أسبابٌ للاعتقاد بأنها فتاة فصَلتُها الليلة، وأُريدك أن تُراقبها.»

أومأ المحقِّق برأسه.

قال المحقق وعلى وجهه شبحُ أولِ ابتسامة خافتة تظهر منه: «إنها مهمة بسيطة إلى حدٍّ ما.» ثم سأله: «أليس لديك مُخبرٌ خاص بالمتجر يستطيع أن يتولَّاها؟ فالسرقات الصغيرة ليست من اختصاصي، وكنت أعتقد أن هذه مهمة أكبر ...»

توقَّفَ عن الحديث؛ لأنه كان من الواضح أنه يستحيل شرحُ السبب في اعتقاده بأنها مهمةٌ كبيرة، في حضور الشخص الذي سلوكه، في الأصل، كان محلَّ تحقيقاته.

قال السيد لاين بعُمق: «قد يبدو الأمرُ بالنسبة إليك مسألةً صغيرة. أما بالنسبة إليَّ، فهو مهمٌّ للغاية.» ثم أردفَ قائلًا: «ها هي فتاةٌ تحظى باحترامٍ كبير من قِبَل جميع

زميلاتها، ومِن ثَمَّ فإن لها تأثيرًا كبيرًا على أخلاقهن، ولديَّ أسبابٌ للاعتقاد أنها قد دأبَت على تزوير دفاتري وسرقةِ أموالٍ من الشركة بإصرار، وفي الوقت نفسِه تحظى بسُمعة طيبة وباحترام جميع مَنْ تتعامل معهم. من الواضح أنها أكثرُ خطورة من شخص آخر يستسلم لإغراءٍ مفاجئ. ولذا، قد يكونُ من الضروريِّ جعلُ هذه الفتاة عِبرة، لكني أُريدك أن تفهم بوضوح يا سيد تارلينج، أنني لا أملك أدلةً كافية لإدانتها، وإلا فربما لم أكن لأتصلَ بك.»

قال تارلينج بفضول: «هل تريد مني الحصولَ على الدليل، ها؟»

وفجأة طرح ميلبرج سؤالًا قائلًا:

«مَنْ هي السيدة، هل لي أن أجرؤ على السؤال يا سيدي؟»

أجابَ لاين: «الآنسة رايدر.»

«الآنسة رايدر!»

ظهرَت على وجه ميلبرج نظرةُ مفاجأةٍ فارغة، وهو يلهث بالكلمات.

«الآنسة رايدر ... أوه، لا، مستحيل!»

فسأل السيد لاين بجِدَّة: «لماذا مستحيل؟»

تلعثمَ المدير وهو يقول: «حسنًا يا سيدي، قصدتُ أن أقول إن ... هذا أمر مستبعَد جدًّا ... فهي فتاة لطيفة للغاية ...»

رمَقَه ثورنتون لاين بنظرةِ شك.

ثم سأله ببرود: «ليس لديك سببٌ معيَّن للرغبة في حماية الآنسة رايدر، أليس كذلك؟»

ردَّ السيد ميلبرج المرتبِك برجاء: «لا يا سيدي، على الإطلاق. أرجوك ألا تعتقدَ ذلك. كل ما هنالك أنه يبدو لي أمرًا غريبًا جدًّا.»

قال لاين باقتضاب: «كل الأشياء الخارجةِ عن المألوف تبدو غريبة.» ثم أضافَ: «سيكون الأمر غريبًا إذا اتُّهمتَ أنت بالسرقة يا ميلبرج. فعلى سبيل المثال، سيكون أمرًا غريبًا جدًّا في الواقع إذا اكتشَفْنا أنك تعيش حياةَ رجلٍ يكسب خمسة آلاف جنيه بينما راتبُك تِسعمائة جنيه، ها؟»

فقدَ ميلبرج رِباطة جأشه للحظةٍ فقط. وارتجفت اليد التي وضعها على فمه، ورأى تارلينج، الذي لم تنزل عيناه قطُّ عن وجه الرجل، الجهدَ الهائل الذي كان يبذله لاستعادة رِباطة جأشه.

قال ميلبرج بثبات: «نعم يا سيدي، سيكون ذلك غريبًا.»

راودَ لاين غضبُه القديم، وإنْ كان يوجِّه لسانه اللاذعَ نحو ميلبرج، فإن أفكاره كانت تتمحور حول ذلك الوجه المتكبِّر والمحتقر الذي كان ينظر إليه باستعلاءٍ في مكتبه.

زمجر لاين بصوتٍ هادر: «سيكون من الغريب إذا حُكم عليك بالأشغال الشاقة نتيجةً لاكتشافي أنك كنت تسرق الشركة لسنوات. وأفترض أن كلَّ شخص آخر في الشركة سيقول نفسَ ما قلتَه أنت ... يا له من أمر غريب!»

قال السيد ميلبرج، بابتسامته القديمة، وقد استعاد وميض عينيه، ويداه لا تتوقفان عن الفرك معًا وكأنهما في وُضوءٍ لا ينتهي: «أكاد أجزم أنهم سيفعلون يا سيدي.» ثم تابعَ: «سيبدو الأمر غريبًا، وسيكون غريبًا، ولن يُفاجَأ أحدٌ هنا أكثرَ من الضحية البائسة ... ها! ها!»

قال لاين ببرود: «ربما لا.» ثم أردفَ: «أريد فقط أن أقول بضع كلماتٍ في وجودك، وأودُّ منك أن تستوعبَها جيدًا. كنتَ تشكو لي منذ شهر ...» واستأنفَ بتآمُر: «حول ضياع مبالغَ صغيرةٍ من المال من مكتب الحسابات.»

لقد كان شيئًا جريئًا لقوله، وكان شيئًا متهورًا من نواحٍ كثيرة. كان يعتمد في نجاح خُطته التي حاكها على عجَل، ليس فقط على أن ميلبرج مذنِب، ولكن أيضًا على استعداد ميلبرج للاعتراف بذنبه. فإذا وافقَ المديرُ على مسانَدة هذه الكَذْبة، لاعترفَ بنفسه على اختلاساته، وبدأ تارلينج، الذي كان في البداية لا يفهم ما ستئول إليه المحادثة، يرى على نحوٍ غير واضح المنعطَفَ الذي تتَّخذُه المحادثة.

ردَّد ميلبرج بغباء: «أنا اشتكيتُ من ضياعِ مبالغَ مالية في الشهر الماضي؟»

تلاشت الابتسامةُ عن شفتَيه وعينيه. كان وجهه منهكًا — كان كأنَّه وقع في حفرة.

قال لاين وهو يُراقبه: «هذا ما قلتَه. أليست هذه الحقيقة؟»

ساد صمتٌ طويل، ثم فجأة أومأ ميلبرج برأسه.

وقال بصوت منخفض: «هذه هي الحقيقة يا سيدي.»

«وقد أخبرتَني أنك تشتبهُ في أن الآنسة رايدر هي المختلسة؟»

مرةً أخرى ساد الصمت، ومرة أخرى أومأ الرجل برأسه.

سأل لاين منتصرًا: «هل تسمع؟»

قال تارلينج بهدوء: «أسمع.» ثم تابعَ: «والآن ماذا تريد مني أن أفعل؟ أليس هذا أمرًا يخصُّ الشرطة؟ أعني الشرطةَ النِّظامية.»

تجهَّم وجهُ لاين.

وقال: «يجب تجهيز القضية أولًا.» ثم أضاف: «سأُقدِّم إليك كامل التفاصيل فيما يخصُّ عُنوان الفتاة وعاداتِها، وستكون مُهمتك أن تجمع مثل هذه المعلومات التي تُمكِّننا من وضع القضية في يد سكوتلاند يارد.»

قال تارلينج: «فهمت.» وابتسم مرة أخرى ثم هزَّ رأسه وقال: «أخشى أنني لا أستطيعُ أن أتدخَّل في هذه القضية يا سيد لاين.»

ردَّ لاين بدهشة: «لا تستطيع أن تتدخَّل؟» ثم سأله: «ولِمَ لا؟»

قال تارلينج: «لأن هذا ليس من نوع الأعمال التي أضطَلِع بها.» وواصل حديثه قائلًا: «في المرة الأولى التي التقيتُ فيها بك راودَني شعورٌ أنك ستقودني إلى واحدة من كبرى القضايا التي سأتعهد بها. وهذا يوضح لك كيف يُمكن أن يُضِلَّك حَدْسُك عن الطريق.» ثم ابتسم مرة أخرى، والتقط قبعته.

«ماذا تقصد؟ هل ستتخلَّى عن عميل قيِّم؟»

قال تارلينج: «لا أعرفُ كم من المحتمل أن تكون قيِّمًا، لكن في اللحظة الحاليَّة، فإن العلامات ليست مشجعةً للغاية. أقول لك إنني لا أرغب في الاشتراك في هذه القضية يا سيد لاين، وأعتقد أن الأمر يمكن أن ينتهيَ هنا.»

قال لاين ساخرًا: «أنت لا تعتقد أن الأمر يستحق الوقت، ها؟» ثم استدركَ: «ومع ذلك عندما أُخبرك أنني على استعداد لأن أعطيَك خَمسَمائة جنيه ...»

قال تارلينج: «إذا أعطيتَني خمسةَ آلاف جنيه أو خمسين ألفًا، فسأظلُّ أرفض الاشتراك في هذا الأمر.» وكانت كلماته تحمل نبرةً باردة تُنهي النقاش.

سأل لاين بصوتٍ عالٍ: «على أي حال، يحقُّ لي أن أعرف لماذا لن تتولَّى هذه القضية. هل تعرف الفتاة؟»

قال تارلينج: «لم أُقابل السيدة من قبل، وربما لن أُقابلها أبدًا.» ثم تابعَ: «كل ما أعرفه أنني لن أُشارك فيما يُسمَّى «تلفيق التُّهَم».»

ردَّد الآخر: «تلفيق التهم؟»

«تلفيق. أعتقد أنك تعرفُ ما يعنيه ... سأُوضح لك الأمر بصراحةٍ أكبرَ وفي حدود فَهمك. لسببٍ أو لآخرَ لديك ضغينةٌ مفاجئة ضد إحدى الموظفات لديك. لقد قرأتُ وجهك يا سيد لاين، وملامحُك توحي لي أنك لا تتعامل مع النساء الذين يعملون لديك بمنتهى النَّزاهة والأخلاق. وأنا أُخمن، ولست متيقنًا، أنك قد رُفِضتَ بحسمٍ وبصوت هادر من قِبَل فتاةٍ نبيلة، وبسبب إحساسك بالمهانة، تحاول أن تخترعَ تهمةً لا أساس لها من الصحة.»

ثم التفتَ إلى الآخر، ومرة أخرى توقَّف السيد ميلبرج عن الابتسام، وأردف: «السيد ميلبرج لديه أسبابُه الخاصة للامتثال لرغباتك؛ فهو مرءوس لك، علاوةً على ذلك، فإن تهديدك له بالأشغال الشاقة إذا رفض أمرٌ له وزنُه.»

استشاطَ ثورنتون لاين غضبًا.

وقال: «سأحرصُ على أن يجريَ الإعلانُ عن سلوكك على نطاق واسع.» ثم تابعَ: «لقد وجهتَ ضدي أبشعَ تهمة، وسأُوجِّه إليك تهمةَ القذف. الحقيقة هي أنك لستَ على مستوى المهمة التي انتويتُ أن أمنحَك إياها وتُحاول أن تجد عذرًا لعدم تولِّيها.»

أجاب تارلينج وهو يقضمُ نهاية سيجار أخذه من جيبه: «الحقيقة هي أن سُمعتي جيدة جدًّا بحيث لا يُمكنني المخاطرةُ بها بالمشاركة في مثل هذا العمل القذِر. أكرهُ أن أكون وقحًا وأكره بالقدْرِ نفسِه أن أرفض مبلغًا كبيرًا من المال، لكنني لا أستطيع أن أقبلَ مبلغًا كبيرًا مقابلَ عملٍ وضيع يا سيد لاين، وإذا كان لك أن تقبل نصيحتي، فسوف تتراجع عن هذا المخطَّط الغبيِّ للانتقام الذي اقترحَه كبرياؤك المجروح — فهذه من أسوأ عمليات التلفيق التي نُفِّذَت حتى الآن وأكثرِها حُمقًا — وسوف تذهب أيضًا وتعتذر من السيدة الشابة التي ليس لديَّ شكٌّ في أنك أَهَنتَها إهانةً بالغة.»

أشار إلى رفيقه الصينيِّ ومشى على مهلٍ إلى الباب. راقبه لاين إلى أن كاد يُغلق الباب، وقد أعماه الغضب، وراحت أطرافُه ترتجف شاعرًا بعجزه كرجلٍ ضعيف، ثم فجأةً اندفع إلى الأمام بصرخة مخنوقة، وفتح الباب عنوة وانقضَّ على المحقق.

قبضَت يدا المحقق على ذِراعيه ورفعَته بأكمله إلى داخل الغرفة مرة أخرى، ودفعته إلى أسفل على كرسي. وحدَّق فيه المحقق بوجهٍ غيرِ قاسٍ، وجهٍ تَحرَّر من جدِّيته الشديدة بخطوطِ الضحك الصغيرة حول العينين.

قال تارلينج بصوتٍ ساخر: «إنك تضربُ مثلًا سيئًا للغاية لأصناف المجرمين يا سيد لاين. لحُسن الحظِّ أن صديقك المُدان في السجن.»

وبدون كلمة أخرى غادرَ الغرفة.

الفصل الثالث

الرجل الذي أحبَّ لاين

بعد يومين جلسَ ثورنتون لاين في سيارته الليموزين الكبيرة التي وقفَت على أطراف واندسوورث كومون، في مواجهة بوابات السجن.

كان شاعرًا ومتكلفًا، أغربُ تركيبة يُمكن أن تجدَها في رجلٍ على الإطلاق.

كان ثورنتون لاين صاحبَ متجر، وحاصلًا على ليسانس في الآداب، وفاز بجائزة مانجيت العِلمية، ومؤلفَ كتابٍ صغير الحجم. لم تكن جودةُ الشعر الذي يحويه الكتابُ عظيمةً للغاية، لكنه كان بلا شكٍّ كتابًا صغيرًا مطبوعًا بأحرفٍ مزخرفة غريبة وهوامشَ عريضة. لقد كان صاحبَ متجر لأنَّ امتلاك المتجر أمَدَّه بالكافيار والخوخ، وبسيارة ليموزين صغيرة رائعة بمقعدَين وستِّ أسطوانات للمناسبات الرسمية، وببيتٍ ريفي وشقة في المدينة، ذات ديكورات صُنِعت بمبلغ ضخم كان من الممكن أن يشتريَ العديدَ من المتاجر المتواضعة الأقلِّ حجمًا من مركز لاين التجاري «سيرف فيرست إمبوريم».

بالنسبة إلى لاين الأكبر، جوزيف إيمانويل تلك العائلة، كان ازدهارُ «سيرف فيرست إمبوريم» مستحَقًّا. لقد ابتكرَ نظامَ بيع يضمنُ خدمة كلِّ عميل في اللحظة التي يدخل فيها أحدَ الأقسام العديدة التي تَكوَّن منها هذا المركزُ التِّجاري الرائع. لقد كان نظامًا قائمًا على المبدأ القديم الذي ينصُّ على الاحتفاظ باحتياطيات فعَّالة في المتناوَل.

تولَّى ثورنتون لاين العملَ في الوقت الذي وضعه فيه كتابُه الصغيرُ في فئة الغامضين الفَذَّة. فلأن هؤلاء النقَّاد الذين علَّقوا على كتابه كتبوا عن «شعره» مُستخدِمين علامتَي التنصيص للإعلان عن ازدِرائهم، ولأنه لا أحدَ اشترى الكتاب على الرغم من حجمه الصغير، أصبح لاين معبودَ الرجال والنساء الذين يكتبون أيضًا ما لا يقرؤه أحد.

لأنه لا شيء في العالم الواسع كان أكثرَ يقينًا بالنسبة إلى الغامضين الأفذاذ من هذا: اختبار التميُّز هو الازدراء. ربما كان ثورنتون لاين في ظروفٍ مختلفة سينجرفُ إلى الأعلى نحو مجموعات ربما أكثر غموضًا — نعم، ربما إلى مجموعةٍ تفوق الزواجَ والصابون والقمصان النظيفة والهواء النقيَّ — إلا أن والده مات بالتُّخمة، وأصبح ثورنتون هو صاحبَ متاجر «سيرف فيرست».

كانت رغبته في البداية هي بيعَ الممتلكات، والانسحاب إلى فيلا في فلورنسا أو كابري. ثم راودته فكرةٌ عبثية، ودعابة ثريَّة. راقَ له أن يجلس، وهو المثقَّف، النبيل، الشاعر الغامض، في مكتبٍ بمتجر. علَّق أحدُهم على مَسْمعٍ منه بأن الفكرة كانت «ثرية». رأى نفسه في «شخصية» وراقَ له الدَّور. ولدهشةِ الجميع، تولَّى عمل والده، مما يعني أنه وقَّع الشيكات وجمَع الأرباح وترك الإدارةَ لقُدامى الموظفين المخضرمين الذين اعتمَد عليهم والده في تأسيس إمبراطوريته.

كتب ثورنتون خطابًا إلى موظفيه البالغِ عددهم ٣٠٠٠ موظف — وكان الخطاب مطبوعًا على ورقٍ عتيقٍ مميَّزٍ بأحرفٍ مزخرَفة غريبة، وهوامشَ عريضة. واقتبس فيه من سينيكا وأرسطو وماركوس أوريليوس والإلياذة. حصل «الخطاب» على تقييماتٍ أفضلَ في الصحف وأكثرَ إسهابًا من كتابه.

لقد وجَدَ الحياةَ تَجرِبةً ممتعة — وربما أيضًا حرِّيفة بسببِ دهشةِ عددٍ لا يُحصى من أصدقائه المنتشين الذين ضرَبوا كفًّا على كف وهم يتساءلون: «كيف يُمكن لرجل بمِزاجك ...!»

كان من الممكن أن تستمرَّ الحياة في كونها ممتعةً إذا سمح له كلُّ رجلٍ وامرأةٍ قابلهم بأن يفعل ما يحلو له. إلا أن هناك على الأقل شخصَيْن لم تكن ملايينُ ثورنتون لاين تعني لهما شيئًا.

كان الجوُّ دافئًا في سيارته الليموزين المكيَّفة. ولكن في الخارج، في صباحِ ذلك اليوم النموذجيِّ من أبريل، كان الجو شديدَ البرودة وكانت ثَمة جماعةٌ من النساء اللواتي وقَفْن على مسافةٍ محترمة من بوابات السجن يرتجفن، بينما يَشْدُدن شالاتهن بإحكام على أجسادهن، فيما كانت تتناثرُ في الهواء رقائقُ الجليد. كانت المنطقة مغطَّاة بالمسحوق الأبيض، وبدَت الأزهار المبكرة بائسةً للغاية في أجواء الشتاء.

دقَّت ساعةُ السجن الثامنةَ، وفُتِحَت بوابةٌ صغيرة. خرج رجلٌ من البوابة، وقد أغلَق سُترتَه حتى رقبتِه، وسحَب قبعته فوق عينَيه. بمجرد رؤيته، أسقط لاين الجريدة التي كان يقرؤها، وفتح باب السيارة وخرج منها مسرعًا، ماشيًا نحو السجين المُفرَج عنه.

قال بحنانٍ: «حسنًا يا سام، لم تتوقَّعْني؟»

توقَّفَ الرجل وكأنه قد أُصيبَ برصاصة، ووقف يُحدق في الشخص الذي يرتدي معطفًا من الفرو. ثم قال بانكسار:

«أوه، السيد لاين.» وأردفَ قائلًا: «أوه أيها القائد!» اختنق صوته وانهمرت الدموع على وجهه، وأمسك باليد المدودة بكِلتا يدَيه، عاجزًا عن الكلام.

قال السيد لاين وقد استنار وجهُه بإحساسه بأفضليته: «لم تظنَّ أنني سأتخلى عنك يا سام، ها؟»

قال سام ستاي بصوتٍ أجش: «اعتقدتُ أنك ستتخلى عني يا سيدي.» ثم تابعَ: «أنت رجل نبيل حقًّا يا سيدي، ويجب أن أخجل من نفسي!»

«هُراء، هراء يا سام! اقفز إلى السيارة يا صديقي. هيا. سيظن الناس أنك مليونير.»

ابتسمَ الرجل بخجل، وفتح البابَ ودخل، وغاص متنهدًا تنهيدةَ راحةٍ في الأعماق الوثيرة للوسائد البُنية الكبيرة.

«يا إلهي! هل يوجد في العالم رجالٌ مثلك يا سيدي! حقًّا أنا أُومن بالملائكة!»

«هُراء يا سام. الآن تعالَ إلى شقتي، وسأعطيك إفطارًا جيدًا وبدايةً جديدة عادلة.»

«سأحاول أن ألزمَ الطريق المستقيم يا سيدي، فهَلَّا ساعدتَني!»

ربما يُمكننا القول في الحقيقة إنَّ السيد لاين لم يهتمَّ كثيرًا بما إذا كان سام سيَلْزم الطريق المستقيم أم لا، بل ربما كان سيشعر بخيبةِ أملٍ كبيرةٍ إذا حافظ سام على الطريق المستقيم والضَّيِّق. لقد «احتفظ» بسام كما يحتفظ الرجالُ بالدجاج والأبقار الفائزة، و«جمع» سام كما يجمع رجالٌ آخرون الطوابعَ والخزَف. كان سام هو رفاهيته ووضعيَّته. في ناديه كان يتباهى بمعرفته بممثِّل الطبقات الإجرامية هذا — إذ كان سام لصًّا خبيرًا ولم يكن يعرف أيَّ عمل آخر — وعِشقُ سام له كان واحدًا من أكثرِ تجارِبه إثارة.

وكان هذا العشق حقيقيًّا. كان سام من الممكن أن يُضحِّي بحياته من أجل هذا الرجلِ الشاحبِ الوجه. كان من الممكن أن يتكبَّد عناءَ أن تتمزق أطرافه إذا كان عذابه سيجلب الراحةَ أو التقدُّم إلى الرجل الذي كان بالنسبة إليه في مصافِّ الآلهة.

في الأصل، عثر ثورنتون لاين على سام بينما كان ذلك الفنان منشغلًا بالسَّطو على منزل المُحسِن المستقبَلي إليه. لقد كانت نزوةً من لاين إعطاءُ المجرمِ فطورًا جيدًا وإبداءُ الاهتمام بمستقبله. دخل سام السجن مرتَين لمدة قصيرة، ومرة واحدة لفترة طويلة، وفي كل مرة كان ثورنتون لاين يذهب بموكبه لاستقبال المتجوِّل العائد، وإعادته إلى المنزل، وتقديم الإفطار له مع الكثير من النصائح الدُّنيوية وغير الضرورية، وإطلاقه مرةً أخرى في العالم بعشرة جنيهات — مبلغ يكفي بالكاد لشراء سام مجموعةً جديدة من أدوات السرقة.

لم يحدث من قبلُ أن أبدى سام مثلَ هذا الامتنان؛ ولم يحدث من قبلُ أن كان ثورنتون لاين أكثرَ اهتمامًا بمُجاملاته. كان هناك حمَّامٌ ساخن، كان من الممكن أن يستغنيَ عنه سام ستاي، لولا أنه كان مضطرًّا إلى قَبوله تأدبًا، ووجبة فطور دافئة وفاخرة، وبدلة جديدة، في جيبها أربعةُ أوراق من فئة الخمسة جنيهات وليس ورقتَين فقط.

بعد الإفطار، تحدَّث لاين.

قال اللصُّ وهو يهز رأسه: «ما من فائدةٍ يا سيدي.» ثم أوضحَ: «لقد جرَّبتُ كل شيء للحصول على عيشةٍ شريفة، ولكن بطريقةٍ ما لا يُمكنني الاستمرارُ في الحياة المستقيمة. قُدت سيارةَ أجرة لمدة ثلاثة أشهر بعد خروجي حتى ظهر لي أحدُ المحققين النشطاء ليقولَ إنني ليست لديَّ رُخصة، وأدانني بموجب قانون مكافحة الجرائم. لا فائدة من أن أطلب منك أن تُعطيَني وظيفةً في متجرك يا سيدي؛ لأنني لن أستطيع الاحتفاظَ بها، لن أستطيع حقًّا! أنا معتادٌ على الحياة في الهواء الطلق. أنا أحب أن أكون سيدَ نفسي. أنا واحد من هؤلاء الرجال الذين قرأت عنهم ... تبدأ الكلمة بحرف الميم.»

قال لاين بضحكة صغيرة: «المغامرون؟» ثم أردفَ: «نعم أعتقد أنك كذلك يا سام، وسوف أُعطيك مغامرةً قريبة إلى قلبك.»

ثم بدأ يروي قصة جحود — لفتاةٍ ساعدها، وأنقذَها بالفعل من التضوُّر جوعًا، ولكنها خانته مِرارًا وتَكرارًا. كان ثورنتون لاين شاعرًا. ولكنه كان أيضًا كاذبًا ماهرًا. كانت الكذبة تخرج بسهولة مثل الحقيقة، وأسهل، حيث كانت هناك قسوةٌ ما في الحقيقة أثارت روحه الفنية. وبينما كانت حكايةُ خيانة أوديت رايدر تتكشَّف، كانت عينا سام تزدادان ضيقًا. كانت مثلُ هذه المخلوقة تستحقُّ كل ما هو سيِّئ، ولا تستحقُّ أيَّ تعاطف.

وفجأةً توقَّف ثورنتون لاين عن الكلام، وثبَّت عينَيه على سام ليُلاحظ تأثيرَ روايته.

قال سام بصوتٍ مرتجف: «أرِني.» ثم تابعَ قائلًا: «أرِني كيف أنتقمُ لك منها يا سيدي وسأخوض كلَّ الصِّعاب لأفعلَ ذلك!»

قال لاين: «هذا هو ما أحب سماعه.» وراح يصبُّ بعضًا من الزجاجة الطويلة التي كانت موضوعةً على صينية القهوة، والتي كانت عبارة عن مشروب البراندي القويِّ المفضَّل لدى سام. ثم قال: «والآن سأُعطيك فكرتي.»

جلسَ الرجلان لبقية الصباح تقريبًا وجهًا لوجه يتآمران على الفتاة التي كان إثمُها الوحيد هو أنها أهانت كرامةَ ثورنتون لاين، والتي أثارت فضيلتُها كراهيةَ ذلك الرجل الشرير.

الفصل الرابع

جريمة قتل

استلقى جاك تارلينج على سريره الصُّلب، وقد وضع مبسمًا طويلًا بين أسنانه، وأسند كتابًا عن الميتافيزيقا الصِّينية على صدره في توازن، في سلام مع العالَم. كانت الساعة الثامنة وكان هذا هو اليوم الذي أُطلق فيه سراحُ سام ستاي من السجن.

لقد كان يومًا حافلًا بالنسبة إلى تارلينج؛ لأنه كان مشاركًا في قضيةِ احتيالٍ مَصرِفي كانت ستَشغَل كلَّ وقته لو لم تكن لديه مسألةٌ خاصة بسيطة ليهتمَّ بها. كانت هذه المسألة الخاصة غيرَ مربحة على الإطلاق، لكنها أثارت فضوله.

وضع الكتاب مسطحًا على صدره عندما أعلن النقرُ الخفيف لفتح الباب قدومَ مساعِده. دخل لينج تشو الصامتُ بلا ضوضاء، حاملًا صينيةً وضعها على منضدة منخفضة بجانبِ سريرِ سيده. وكان الصينيُّ يرتدي بيجامة من الحرير الأزرق، وهي حقيقةٌ انتبه إليها تارلينج.

«أنت لن تخرج الليلة إذن يا لينج تشو؟»

قال الرجل: «نعم يا صياد الرجال.»

تحدَّث كلاهما بلهجةِ شانتونج الناعمة ذات الصفير.

«هل ذهبتَ إلى الرجل ذي الوجه الماكر؟»

وردًّا على ذلك، أخذ الآخرُ مظروفًا من جيبه الداخلي ووضعه في يد الآخر. نظر تارلينج إلى العنوان.

«إذن هذا هو المكان الذي تعيش فيه السيدة الشابة، أليس كذلك؟ الآنسة أوديت رايدر، ٢٧ مباني كاريمور، طريق إدجوير.»

قال لينج تشو: «إنه منزلُ عشيرة يعيش فيه الكثيرُ من الناس.» ثم أضافَ: «ذهبتُ بنفسي بِناءً على طلبك الكريم، ورأيتُ الناس يدخلون ويخرجون بلا توقُّف، ولم أرَ الأشخاصَ أنفُسَهم مرتين.»

قال تارلينج بابتسامةٍ صغيرة: «إنه ما يُسمونه «عمارة سكنية» يا لينج.» ثم سأله: «ماذا قال الرجل ذو الوجهِ الماكر عن خطابي؟»

«سيدي، لم يقل شيئًا. لقد قرأ فقط وقرأ، ثم رسم وجهًا مثل هذا.» قلَّد لينج ابتسامة السيد ميلبرج. ثم استأنف كلامه قائلًا: «ثم بعد ذلك كتب ما تراه.»

أومأ تارلينج برأسه وحدَّق للحظةٍ في الفراغ، ثم مدَّ كوعه ورفع كوب الشاي الذي أحضره له خادمُه.

سأل بالعاميَّة: «ماذا عن الرجل ذي الوجه الأبيض والضعيف يا لينج.» ثم قال: «ألم ترَه؟»

قال الصيني بجدِّية: «رأيتُه يا سيدي.» ثم أضافَ: «إنه رجل بلا جنَّة.»

مرةً أخرى أومأ تارلينج برأسه. يستخدم الصينيُّون كلمة «الجنَّة» بدلًا من «رب»، وشعر أن لينج قد قيَّم انعدامَ الصفات الروحية لدى السيد ثورنتون لاين بدقة كبيرة.

أنهى الشاي، وأرجحَ ساقَيه على حافة السرير.

قال: «لينج، هذا المكان مملٌّ وكئيبٌ للغاية. لا أعتقد أنني سأعيش هنا.»

سأل الآخر دون إبداء أيِّ انفعال: «هل سيعود سيدي إلى شنغهاي؟»

أومأ تارلينج: «أعتقد ذلك.» ثم تابعَ: «على أي حال، هذا المكان مملٌّ جدًّا. كلُّ ما فيه قضايا بائسة صغيرة للحصول على المال بسهولة، وقضايا الزوجة-الزوج-العشيق، وروحي سقيمة.»

قال لينج متفلسفًا: «هذه أمور صغيرة.» ثم استدركَ متحدثًا هذه المرة عن المُعلِّم الأكبر كونفوشيوس: «لكن المُعلِّم قال إن كلَّ العظمة تأتي من الأشياء الصغيرة، وربما يقطع رجلٌ ضئيلُ البِنْية رأسَ رجل ضخم البِنية، ثم بعد ذلك سوف يتصلون بك لكي تجدَ القاتِلَ.»

ضحكَ تارلينج.

وقال: «أنت متفائل يا لينج.» ثم أوضحَ: «لا، لا أعتقد أنهم سيتصلون بي في جريمة قتل. إنهم لا يستدعون محقِّقين خصوصيين في هذا البلد.»

هزَّ لينج رأسه.

«لكن يجبُ أن يعثر سيدي على قَتَلة، وإلا فلن يُصبحَ صيادَ الرجال.»

قال تارلينج، هذه المرة بالإنجليزية التي لا يفهمها لينج بوضوح، رغم الجهود المتواصلة لمدارسَ تبشيريَّةٍ بارزة: «أنت روحٌ متعطِّشة للدماء يا لينج.» ثم أردف وقد اتخذ قرارًا مفاجئًا: «والآن سأخرج، سوف أذهب لزيارة المرأة الضئيلة الجسم التي يشتهيها ذو الوجه الأبيض.»

سأل لينج: «هل لي أن آتيَ معك؟»

تردَّد تارلينج.

ثم قال: «نعم، يُمكنك أن تأتي، ولكن يجب أن تتبعني.»

كاريمور مانشنز عبارةٌ عن مجمعِ مبانٍ كبيرٍ محصورٍ بين مجمعَين أرستقراطيَّين من الشقق الأكثرِ فخامة في طريق إدجوير. الطابق السفلي مخصَّص للمتاجر التي ربما رخَّصَت المبنى، ولكنه ما زال سكنًا حصريًّا لمستأجرين، كما خمَّن تارلينج، أعلى من إمكانياتِ عامِلةٍ في متجر، إلا إذا كانت تعيش مع أسرتها. وكان التفسير، الذي كان على وشك أن يكتشفَه، يكمن في أن هناك بعضَ الشقق الحقيرة في البدروم كانت تُؤجَّر بأسعار زهيدة.

وجد نفسَه واقفًا خارج أحد هذه الأبواب الماهوجني اللامعة لإحدى تلك الشقق، متسائلًا ما هو بالضبط العذرُ الذي سيُعطيه للفتاة لزيارتها في هذا الوقت المتأخِّر من الليل. وكان واضحًا من الشك الصريح الذي بدا على وجهها عندما فتحَت له الباب أنها كانت تحتاج إلى تفسيرٍ ما.

قالت: «نعم، أنا الآنسة رايدر.»

«هل لي أن أتحدث إليك لبضعِ دقائق؟»

فقالت وهي تهزُّ رأسها: «أنا آسفة، لكنني وحدي في الشقة ولا أستطيع أن أدعوَك للدخول.»

كانت هذه بدايةً سيئة.

فسألها بقلق: «ألا تستطيعين أنتِ الخروجَ؟» ابتسمت رغمًا عنها.

قالت، وقد بدا في عينيها شيءٌ من الاندهاش: «أخشى أنه من المستحيل أن أخرجَ مع شخصٍ لم أُقابله قطُّ من قبل.»

ضحك تارلينج وقال: «أُدرك صعوبة الأمر.» ثم قال: «هذه إحدى بطاقاتي. أخشى أنني لستُ مشهورًا جدًّا في هذا البلد، ولذا فإنك لن تعرفي اسمي.»

أخذَتِ البطاقة وقرأتها.

قالت بصوت منزعج: «محقِّق خاص؟» ثم راحت تسأله: «مَنْ أرسلك؟ ليس السيد ...»

فقال: «ليس السيد لاين.»

تردَّدَت للحظة، ثم فتحت الباب على مِصراعَيه.

«تفضَّل بالدخول. يُمكننا التحدث هنا في الصالة. هل أفهم أن السيد لاين لم يُرسلْك؟»

قال: «كان السيد لاين حريصًا جدًّا على أن آتي.» ثم أردفَ: «أنا أخونُ ثقتَه، لكنني لا أعتقد أنَّ مِن حقه أن يَحظى بوَلائي. لا أعرفُ لِمَ أزعجتُكِ بحضوري، لكن كل ما هنالك أنني شعرتُ أنكِ يجب أن تأخذي حذرَكِ.»

سألت: «مِن ماذا؟»

«من مؤامرات رجلٍ أمعَنتِ في ...» وتردَّد باحثًا عن كلمة.

أكملَت له الجملة: «إهانته.»

ضحكَ قائلًا: «لا أعرف مدى الإهانة التي ألحقتِها به، ولكنني فهمتُ أنكِ أثرتِ حَنَقَ السيد لاين لسببٍ أو لآخَر، وأنه ينوي إزعاجَك. لا أطلبُ ثقتَكِ في هذا الشأن؛ لأنني أتفهَّم أنك قد لا ترغبين في إخباري. ولكن ما أريد أن أقولَه لكِ هو أن السيد لاين على الأحرى يُلفِّق لكِ تهمة ... بمعنى أنه يُدبِّر لكِ اتهامًا بالسرقة.»

صاحت باندهاشٍ بالغ: «سرقة؟» ثم أضافت: «ضدِّي أنا؟ اتهام بالسرقة ضدي أنا؟ مِن المستحيل أن يكون بهذا الشر!»

قال تارلينج بوجهٍ خالٍ من التعبير وعينين ضاحكتين: «ليس من المستحيل أن يكون أيُّ شخص بهذا الشر.» ثم أضافَ: «كل ما أعرفه هو أنه دفع السيد ميلبرج ليقول إنه قدَّم من قبلُ شكاوى بخصوص سرقة أموال من قِسْمكِ.»

صاحت مؤكِّدة: «هذا مستحيل تمامًا.» ثم تابعت: «السيد ميلبرج لن يقولَ مثل هذا الشيء أبدًا. مستحيل تمامًا!»

قال تارلينج ببطء: «السيد ميلبرج لم يرغب في أن يقولَ هذا الشيء.» ثم لخَّص لها النقاشَ الذي دار حاذفًا كلَّ إشارة، مباشرة أو غير مباشرة، إلى الشكوك التي تُحيط بميلبرج.

ثم اختتم كلامه قائلًا: «وهكذا، كما ترَين، يجب أن تأخُذي حذرَكِ. وأنصحكِ بأن تذهبي إلى مُحامٍ وتضَعي القضية بين يدَيه. لستِ بحاجةٍ إلى أن ترفعي قضية ضد السيد لاين، ولكن سيدعم موقفَكِ جدًّا أن تَذكُري تفاصيلَ هذه المؤامرة لشخصٍ في موضعِ سُلطة.»

قالت بصوتٍ دافئ وهي تنظر إلى وجههِ بابتسامةٍ عذبةٍ للغاية، ومشفقة للغاية، وقليلة الحيلة للغاية جعلَت قلب تارلينج يذوب فيها: «شكرًا جزيلًا لك يا سيد تارلينج.»

فقال: «وإذا كنتِ لا تُريدين محاميًا، فيُمكنكِ الاعتمادُ عليَّ. وسوف أُساعدكِ إذا أُثيرَت أيُّ مشاكل.»

«أنت لا تعرف كم أنا ممتنَّة لك يا سيد تارلينج، ولم أستقبِلْك حتى بكرمٍ شديد!»

قال: «اسمحي لي أن أقول إنه كان سيكون حُمقًا منكِ لو استقبلتِني بأي طريقة أخرى.»

مدَّت إليه يدَيها، فأخذهما بين يدَيه، وكانت عيناها مغرورقةً بالدموع. تمالكت نفسَها بسرعة وقادته إلى غرفة الصالون الصغيرة.

ضحكت وهي تقول: «لقد فقدتُ وظيفتي بالطبع، ولكنْ لديَّ عدةُ عروض سأقبلُ أحدَها. وسوف آخذ بقيةَ الأسبوع إجازةً للترفيه عن نفسي.»

أوقفها تارلينج بإشارة؛ إذ كانت أذناه حساستَين حساسية خارقة.

وقال بصوتٍ منخفض: «هل تتوقَّعين زُوارًا؟»

قالت الفتاة باندهاش: «لا.»

«هل تُشاركين هذه الشقة مع أحد؟»

قالت: «هناك امرأةٌ تنام هنا.» ثم أكَّدت: «وهي بالخارج هذا المساء.»

«هل لديها مفتاح؟»

هزَّت الفتاة رأسها.

وقفَ الرجل، وعَجِبَت الفتاة كيف يستطيع رجلٌ بهذا الطول أن يتحرَّك بهذه السرعة ودون أيِّ صوت على الإطلاق، عابرًا الصالةَ غيرَ المفروشة بالسجاد. وصل إلى الباب وأدار المقبضَ وفتحه فجأة. كان ثَمة رجل يقف على السجادة الصغيرة أمام الباب وقفز للخلف عند الظهور المفاجئ لتارلينج. كان الغريبُ رجلًا ذا مظهرٍ شرس يرتدي بِذلةً جديدة من الواضح أنها جاهزة، ولكن وجهه كان لا يزال يحمل الصِّبغة الصفراء الغريبة التي يُميَّز بها مَنْ جرى الإفراجُ عنهم حديثًا.

تلعثمَ الرجل وهو يقول: «أستميحك عذرًا، ولكن هل هذه الشقة رقم ٨٧؟»

مدَّ تارلينج إحدى يدَيه بسرعة، وقبضَ على سُترة الرجل وسحب الرجل البائسَ ناحيته.

«مَرْحى، ماذا تحاول أن تفعل؟ وماذا لديك هنا؟»

انتزعَ شيئًا من يد الرجل. لم يكن مِفتاحًا، وإنما أداة مسنَّنة ذاتُ تركيب غريب.

قال تارلينج، وهو يجرُّ أسيره إلى داخل الصالة: «ادخل.»

قلبَ سُترة أسيرِه بسرعة، فكتَّفَه ومنعَه من الحركة، ثم شرع في تفتيشه بسرعة وهدوء. أخرج من جيبَين نحوَ عشَرةِ خواتمَ بها فصوص، وتحمل جميعُها علامةَ متجر لاين الصغيرة.

قال تارلينج بسخرية: «مَرحى! هل هذه هدايا موجَّهة من السيد لاين للآنسة رايدر تعبيرًا عن حبِّه؟»

لم يستطِع الرجل أن ينبس ببنتِ شفة وقد أخرسَه الغضب. وإذا كان للنظرات أن تقتل، فربما كان تارلينج سيُرْدَى قتيلًا في هذه اللحظة.

قال تارلينج، وهو يهزُّ رأسه في أسًى: «مَكيدة حمقاء.» ثم استطرد قائلًا: «الآن عُدْ إلى رئيسك، السيد ثورنتون لاين، وأخبره أنني أقول إنَّ من العار أن يتبنَّى رجلٌ ذكي هذا الأسلوبَ البُدائي.» وصرَف سام ستاي بركلة ليلفَّه الظلامُ في الخارج.

التفتت الفتاة، التي راعها المشهد، إلى المحقق بالتماس شديد.

وسألت الفتاة: «ماذا يعني هذا؟» ثم أضافت: «أشعر بخوف شديد. ماذا كان يريد ذلك الرجل؟»

قال تارلينج بسرعة: «لستِ مضطرَّةً إلى أن تخافي من ذلك الرجل، أو من غيره.» ثم عقَّبَ قائلًا: «أنا آسفٌ أنكِ خفتِ.»

نجح في تهدئة رَوعها قبل أن تعود خادمتُها، ثم غادر.

قال مؤكدًا: «تذكَّري، لقد أعطيتُكِ رقم هاتفي وسوف تتصلين بي في حالةِ وقوع أيِّ مشكلة.» ثم أضافَ: «ولا سيما غدًا.»

لكن لم تقع مشكلةٌ في اليوم التالي، ومع ذلك فقد اتصلَت به في الثالثة عصرًا.

قالت: «سأسافر للمكوث في الريف.» ثم أوضحت: «لقد شعرتُ بالخوف ليلة أمس.»

قال تارلينج، الذي وجد صعوبةً في أن يصرف الفتاةَ من ذهنه: «تعالي لزيارتي عندما تعودين. سأذهب لرؤية لاين غدًا. بالمناسبة، الشخص الذي زارك الليلة الفائتة هو رجل يتعهَّدُه السيد ثورنتون لاين برعايته، وهو مخلصٌ له جسدًا وروحًا، وهذا هو الشخص الذي يجب أن نبحثَ عنه. يا إلهي! كم يُشعرني هذا الأمر بالإثارة!»

سمع صوتَ ضحكة خافتة من الفتاة.

قالت ساخرةً: «أيجب أن أُذبَح حتى يستمتع المحقِّق بإجازته؟» وابتسم هو بتعاطف.

قال: «على أي حال، سوف أرى لاين غدًا.»

لم يكن من المُقَدَّر لتلك المقابلة التي تَحدَّث عنها جاك تارلينج أن تَحدُث على الإطلاق.

في صباح اليوم التالي، عثر أحد العمَّال المبكرين، الذي كان يسلك طريقًا مختصرًا عبر هايد بارك، على جثة رجل مُلقاة بجوار طريق العرَبات. كان الرجل يرتدي ثيابَه كاملة باستثناء المعطف والصدرة وقد التفَّ حول جسده ثوبُ نومٍ حريميٌّ من الحرير ملطَّخٌ بالدماء. كانت يداه معقودتَين فوق صدره وفوقهما أُلقِيَت بضعُ أزهار النرجس.

في الحادية عشرة في ذلك الصباح، كشفت صحفُ المساء أنه قد جرى التعرُّف على الجسد واتضح أنه لثورنتون لاين، وأنه قد أُصيبَ بطلقٍ ناري في القلب.

الفصل الخامس

ما عُثِرَ عليه في جيب لاين

تُواجه شرطة لندن لغزًا جديدًا، له سِماتٌ لافتةٌ للنظر للغاية، لدرجة أننا لن نُبالغ إذا وصفنا هذه الجريمةَ بأنها لغزُ جريمة قتل القرن. جرى العثورُ على شخصية شهيرة في مجتمع لندن، وهو السيد ثورنتون لاين، رئيس إحدى المؤسَّسات التِّجارية المهمة، وشاعرٌ ذو مكانة مرموقة، ومليونير معروف بأنشطته الخيرية، مقتولًا في هايد بارك في الساعات المبكرة من صباح اليوم، وكانت الملابسات كلُّها تُشير إلى أنه بلا شك قد قُتِلَ بأبشع الطرق الوحشية.

في الساعة الخامسة والنصف، كان توماس سافيدج، عاملُ بناءٍ لدى شركة «كيوبيت تاون للإنشاء»، في طريقه إلى عمله متخذًا طريق هايد بارك. كان قد عَبَر الممرَّ الرئيسيَّ الموازيَ لطريق بايزووتر، في الوقت الذي جذبَ انتباهَه جسدٌ مستلقٍ على العشب بجوار الرصيف. توجَّه إلى هذه البقعة وهناك اكتشف جثةَ رجل، كان من الواضح أنه لقيَ حتفه منذ ساعات. كان الجسدُ لا يرتدي معطفًا أو صدرة، ولكن حول الصدر، الذي كانت اليدان معقودتَين عليه، كان ثمَّة ثوبٌ حريريٌّ ملفوفٌ بإحكام حول الجسد، ومن الواضح أنه كان المقصودُ به إيقافَ نزيف جُرح على الجانب الأيسر فوق القلب.

«الملمَح الخارجُ عن المألوف هو أن القاتل لم يَكتفِ بأن وضعَ الجثة بطريقة معيَّنة، ولكنه وضعَ على صدرها حَفنةً من أزهار النرجس. استُدعيَت الشرطة على الفور ورُفِعَت الجثة. نظرية الشرطة هي أن جريمة القتل لم تُرتكَب في هايد بارك، وإنما قُتِلَ السيد في مكانٍ آخر ونُقِلَت جثته إلى هايد بارك في سيارته الشخصية، التي عُثِرَ عليها على بُعد مائة ياردة من موقع اكتشاف الجثة. وقد فهمنا أن الشرطة تتتبَّع دليلًا مهمًّا جدًّا، وقد أضحى القبضُ على القاتل وشيكًا.»

قرأ السيد جيه أوه تارلينج، المحققُ السابق لدى شرطة شنغهاي الخبرَ القصير في جريدة المساء، وشغل الأمرُ تفكيره على نحوٍ غيرِ معتاد.

لاين قُتِل! كانت مصادفةً غريبة أنه لم يُقابل هذا الشابَّ إلا منذ أيام قليلة.

لم يكن تارلينج يعرف أيَّ شيء عن حياة لاين الخاصة، رغم أنه من معرفته به أثناءَ إقامته القصيرة في شنغهاي، خمَّن أن تلك الحياة لم تكن بريئةً للغاية. كان تارلينج منشغلًا جدًّا في الصين لدرجةٍ منَعَته من أن يَشغَل رأسه بتقلُّباتِ واحد من السيَّاح، ولكنه يتذكر بغير وضوحٍ فضيحةً ما ارتبطَت باسم السائح، وراحَ يعتصر ذهنَه كي يتذكرَ كلَّ التفاصيل والملابسات.

وضع الجريدةَ جانبًا بتجهُّم يُشير إلى أسفه الشديد. لو أنه كان فقط مرتبطًا بسكوتلاند يارد، لكانت هذه القضيةُ ستُمثل الكثير بالنسبة إليه! إنه لغزٌ يَعِد بإثارةٍ غير عادية.

شرَد عقله في الفتاة، أوديت رايدر. ماذا سيكون رأيها فيما حدث؟ فكَّر أنها ستُصدَم. بل ستُرَوَّع. أحزنَه أن يشعر أن اسمها ربما يقترنُ على نحوٍ غيرِ مباشر، أو حتى من بعيدٍ بمِثل هذه الفضيحة المدوية، وأدرك بإحساسٍ مفاجئ بالانزعاج أنه ليس من المستبعَد أن يُذكَر اسمُها بصفتها واحدةً ممن تشاجروا مع القتيل قبل وفاته.

«أُفٍّ!» تمتم مستهجِنًا هذا الاحتمالَ باعتباره فكرةً سخيفة، ثم مشى نحوَ الباب مناديًا على خادمه الصيني.

جاء لينج تشو في صمتٍ ليكونَ في خدمته.

قال: «لينج تشو، لقد مات الرجلُ ذو الوجه الأبيض.»

رفع لينج تشو عينَيه الجامدتين إلى وجه سيده.

قال بهدوء: «كل الرجال يموتون في وقتٍ ما.» ثم عقَّب قائلًا: «هذا الرجل مات بسرعة. ذلك أفضلُ من الموت البطيء.»

نظر إليه تارلينج بجِدَّة.

وسأله: «مَنْ أدراكَ أنه ماتَ بسرعة؟»

قال لينج تشو دون تردُّد: «إنها أمور يتحدثون عنها.»

أجابَ تارلينج: «لكن ليس باللغة الصينية، وأنت يا لينج تشو لا تتحدث الإنجليزية.»

قال لينج تشو: «أتحدث قليلًا، يا سيدي، وقد سمعتُ هذه الأمورَ في الشوارع.»

لم يردَّ تارلينج على الفور، وانتظر الصيني.

قال بعد فترة: «لينج تشو، هذا الرجل جاء إلى شنغهاي بينما نحن هناك، وكانت هناك مشاكل؛ فقد طُرِدَ ذاتَ مرة من مقهى وينج فو، حيث كان يُدخن الأفيون. كان هناك أيضًا مشكلة أخرى — هل تتذكر؟»

نظر إليه الصينيُّ في عينَيه مباشرةً.

وقال: «نسيت.» ثم أضافَ: «كان هذا الرجل ذو الوجهِ الأبيض رجلًا سيئًا. أنا سعيدٌ لأنه مات.»

قال تارلينج: «هممممم!» ثم صرَف خادمه.

كان لينج تشو أذكى رجالِ البوليس السرِّي الذين تعامل معهم، الرجل الذي لا يترك الخيطَ بمجرد الوصول إليه، وكان الأكثرَ ولاءً وإخلاصًا من متقصِّي الأثر المحليِّين. لكن المحقق لم يدَّعِ على الإطلاق أنه يفهم عقل لينج تشو، أو أنه يُمكنه اختراقُ الحجاب الذي أسدلَه الصينيُّ بين أفكاره الخاصة وبين الأجنبي الفضولي. حتى المجرمون المحليِّون كانوا في حيرةٍ من أمرهم من تفسير آراء لينج تشو، وقد حيَّر العديدَ من الرجال الذين أرسلهم إلى المشنقة بسبب الطريقة التي اكتشفَ بها جرائمَهم.

رجع تارلينج إلى المنضدة والتقطَ الجريدة، ولكنه لم يكَدْ يبدأ القراءة حتى رنَّ جرسُ الهاتف. التقط السماعة وسمع. لدهشته كان المتحدثُ هو كريسويل مساعِد مفوَّض الشرطة، الذي كان له دور أساسي في إقناع تارلينج بالمجيء إلى إنجلترا.

قال الصوت: «هل تستطيع أن تأتيَ إلى سكوتلاند يارد على الفور يا تارلينج.» ثم أوضحَ: «أريد أن أتحدث إليك بشأن جريمة القتل.»

قال تارلينج: «بالتأكيد.» ثم أردفَ: «سأكون عندك في غضون بضع دقائق.»

وفي غضون خمس دقائق كان قد وصل إلى سكوتلاند يارد، وسُمح له بالدخول إلى مكتب كريسويل مساعِد المفوَّض. كشف الرجل ذو الشعر الأبيض، الذي تقدَّم نحوه مبتسمًا ابتسامةَ سعادة، الهدفَ من استدعائه.

قال: «سأستعين بك في هذه القضية يا تارلينج.» وأردفَ معلِّلًا: «فبها بعض الجوانب التي تبدو خارجَ التجرِبة الرَّتيبة الخاصة برجالنا.» ثم استأنف حديثه وهو يقود ضيفه إلى أحد المقاعد: «من غير الغريب كما تعلم أن تستعين سكوتلاند يارد بمساعدةٍ خارجية، لا سيَّما عندما تكون لدينا جريمةٌ من هذا النوع نتعامل معها. أنت تعرف الوقائع.» ثم تابعَ، وهو يفتح مِلفًّا لا يحوي الكثيرَ من الأوراق: «هذه هي التقارير التي يمكن أن تقرأها في وقتِ فراغك. كان ثورنتون لاين، على أقل تقدير، غريبَ الأطوار. لم تكن حياتُه

رصينةً للغاية، وكان لديه الكثيرُ من المعارف المبغوضين، ومن بينهم مجرمٌ ومُدان سابق لم يُطلَق سراحه إلا قبل أيام قليلة.»

قال تارلينج وهو يرفع حاجبَيه: «هذا أمر غير عادي حقًّا. ماذا كان يربطه بهذا المجرم؟»

هزَّ المفوَّضُ كريسويل كتفَيه.

«وجهة نظري الخاصة هي أن هذا التعارف كان بالأحرى صورةً من وضعٍ ليِّن؛ فقد أحبَّ أن يُتحدَّث عنه. أعطاه سُمعةً معينة بين أصدقائه.»

سأل تارلينج: «مَنْ هو المجرم؟»

«إنه رجل يُدعى ستاي، لصٌّ تافه، وفي رأيي شخصيةٌ أكثرُ خطورةً بكثير مما أدركته الشرطة.»

قال تارلينج: «هل هو ...» لكن المفوَّض هزَّ رأسه.

وأضافَ: «أعتقد أننا نستطيع استبعادَه من قائمة الأشخاص المشتبَهِ بهم في جريمة القتل.» ثم قال: «سام ستاي لديه صفات قليلة جدًّا من شأنها أن تجعله رجلًا عاديًّا، ولكن لا يُمكن أن يكون هناك شكٌّ على الإطلاق أنه كان مخلِصًا للاين جسدًا وروحًا. عندما انتقل المحقق المسئول عن القضية مؤقتًا إلى لامبث للتحقيق مع ستاي، وجده راقدًا على سريره ممددًا في حزن، وبجواره جريدة تحتوي على تفاصيل جريمة القتل. كان الرجل خارجًا عن طَوره من الحزن وهدَّد بقتل مرتكِب هذه الجريمة. يُمكنك التحقيقُ معه لاحقًا. أشكُّ في أنك ستستطيع الخروجَ منه بالكثير؛ فهو غير متماسكٍ تمامًا. لاين كان شيئًا أكثرَ من مجرد إنسان في عينَيه، ولعلي أتخيَّل أن العاطفة اللائقة الوحيدة التي امتلَكها في حياته هي هذه المحبةُ لرجلٍ كان بالتأكيد جيدًا معه، سواءٌ كان صادقًا في عمله الخيري أو غيرَ ذلك. والآن إليك بعض الحقائق التي لم يُعلَن عنها.» رجع كريسويل بظهره في مقعده وعَدَّ بأصابعه النقاطَ بينما يذكرها.

«هل تعلم أنه عُثِرَ على ثوبِ نومٍ حريريٍّ حول صدر لاين؟»

أومأ تارلينج برأسه.

«تحت ثوب النوم، الذي لُفَّ حوله كضمَّادة، ومن الواضح أن ذلك كان بغرضِ إيقاف النزيف، كان هناك مِنديلان مطويَّان بعناية كما لو كانا قد أُخِذا من درج. لقد كانا منديلَين نسائيَّين؛ لذلك نستطيع أن نبدأ بافتراضِ وجود امرأة في القضية.»

أومأ تارلينج برأسه.

«الآن ثَمة ملمحٌ آخرُ غريبٌ للقضية، ولِحُسن الحظ لم يَلفِت انتباهَ أولئك الذين رأَوا الجثة أولًا وأعطَوا تفاصيلَ إلى الصحف، وهو أنَّ لاين، على الرغم من أنه كان يرتدي كاملَ ملابسه، فقد كان يلبَس شبشبًا سميكًا من اللباد. أُخِذَ من متجره مساءَ أمس، كما تأكَّدنا، بواسطة لاين نفسِه، الذي استدعى أحدَ موظَّفيه إلى مكتبه وطلب منه إحضارَ شبشب ناعم للغاية.

العنصر الثالث هو أنه عُثِرَ على حذاء لاين في السيارة المهجورة التي كانت تقفُ على جانب الطريق على بُعد مائة ياردة من مكان العثور على الجثة.

والملمح الرابع — وهذا يُفسر لماذا أشرَكتُك في هذه القضية — هو أنه عُثِرَ على معطفه وصدرته الملطَّخَيْن بالدماء في السيارة وفي الجيب الأيمن للصدرة.» وتابعَ كريسويل ببطءٍ: «عُثِرَ على هذا.» وأخرجَ من دُرجه قطعةً صغيرة من ورقٍ قرمزي مساحتها بوصتان مربَّعتان، وسلَّمها بدون تعليق إلى المحقق.

أخذ تارلينج الورقة وحدَّق فيها. كان مكتوبًا عليها بحبرٍ أسودَ سميكٍ أربعُ كلمات باللغة الصينية tzu chao fan nao — «جلَب هذه المشكلةَ على نفسِه.»

الفصل السادس

والدة أوديت رايدر

نظرَ الرجلان أحدُهما إلى الآخر في صمت.

قال المفوَّض أخيرًا: «حسنًا؟»

هزَّ تارلينج رأسه.

وقال: «هذا مذهل!» ونظر إلى القُصاصة الصغيرة الموجودة بين إصبَعَي السبابة والإبهام.

قال المفوَّض: «أنت تفهمُ لماذا أستعين بك في هذه القضية.» ثم أردفَ موضحًا: «إذا كان هناك خيطٌ صيني لهذه الجريمة، فلا أحد يعرف أفضلَ منك كيف يتعامل معه. لقد تُرجِمَت لي هذه القصاصة وهي تعني: «لقد جلبَ هذه المشكلةَ على نفسه».»

قال تارلينج: «إنها تعني حرفيًّا «النفسُ تبحث عن المشاكل.» ثم استطرد: «لكن هناك حقيقة واحدة ربما لم تُلاحظها. إذا نظرتَ إلى القصاصة، فسترى أنها ليست مكتوبةً بخط اليد بل مطبوعة.»

مرَّر القصاصةَ المربعة الصغيرة عبر الطاولة، وفحصَها المفوَّض.

قال متفاجئًا: «هذا صحيح.» ثم أضافَ: «لم ألحَظْ ذلك. هل رأيتَ مثلَ هذه القصاصات من قبل؟»

أومأ تارلينج برأسه.

وقال: «منذ سنوات قليلة ...» ثم تابعَ: «تفشَّت الجريمة على نحوٍ بشع في شنغهاي، وأغلبُها تحت قيادة مجرمٍ سيئ السمعة كنت السببَ الرئيسي في إعدامه. كان زعيمَ عصابة يُطلَق عليها «القلوب المبهجة» ... أنت تعلم الأسماءَ الغريبة التي تتخذها هذه العصاباتُ الصينية. وكان من عادتهم أن يتركوا في موقع جرائمهم «الهونج» أو نموذجَ توقيع العصابة. وكان به الكلماتُ نفسُها الموجودة في هذه المقصوصة بالضبط، إلا أنها

كانت مكتوبة، وليست مطبوعة. كانت بطاقاتُ الزيارة الخاصة بعصابة «القلوب المبهجة» تُشترى كتُحَف، ويُطلَب فيها أسعارٌ باهظة إلى أن بدأ رجلٌ صيني مغامر يطبعها، حتى تستطيعَ شراءَها من أيِّ متجرِ أدوات مكتبية تقريبًا في شنغهاي — تمامًا كما تشتري البطاقاتِ البريديةَ ذاتَ الصور.»

أومأ المفوَّض برأسه.

«وهذه واحدة منها؟»

قال: «هذه تُشبهها تمامًا. كيف وصلَت إلى هنا، الله أعلم.» ثم عقَّب قائلًا: «هذا بالتأكيد أهمُّ اكتشاف.»

ذهبَ المفوَّض إلى دولاب، وفتحه وأخرجَ منه حقيبة، وضعها فوق الطاولة وفتحَها.

قال المفوَّض: «الآن، انظر إلى هذا يا تارلينج.»

كان «هذا» ثوبًا ملطَّخًا، لم يجد تارلينج صعوبةً في أن يعرف أنه ثوبُ نوم. أخرجه من الحقيبة وفحصه. باستثناء أنه مطرَّز عند الأكمام بغصنَين من أزهار «لا تنسَني»، كان الثوبُ عاديًّا تمامًا، دون أيِّ شريطِ زينة أو تطريز.

«وُجِد حول جسدِه، وها هما المنديلان.» وأشار إلى مربَّعَين صغيرين من الكتَّان، قد تغيَّر لونهما لدرجةٍ يصعب معها التعرفُ على لونهما الأصلي.

رفعَ تارلينج الثوب الملطَّخ، بدليله على الغرض الفظيع الذي استُخدِم من أجله، وحمله إلى النور.

«هل توجد علاماتُ غسيل؟»

قال المفوَّض: «لا شيءَ على الإطلاق.»

«ولا على المنديلَين؟»

أجابَ السيد كريسويل: «لا شيء.»

قال تارلينج: «هذه الأغراض تخصُّ فتاةً تعيش وحدها.» ثم أردفَ: «إنها فتاة ليست شديدةَ الغِنى، لكنها أنيقةٌ للغاية، ومغرمة بالأشياء الجيدة، ولكن ليس الباهظة، أليس كذلك؟»

سألَ المفوَّض متفاجئًا: «كيف تعرف ذلك؟»

ضحكَ تارلينج.

«يدلُّ عدمُ وجودِ علاماتِ غسيلٍ على أنها تغسلُ ملابسَها الحريرية في المنزل، وربما مناديلها أيضًا، مما يجعلها من بين الفتيات اللواتي لم ينعَمْن بالكثير من نِعَمِ هذا العالم.

حقيقةُ أنه من الحرير، وحرير جيد وأن المناديل مِن الكتان الجيد، تُوحي بأنها امرأةٌ تهتم كثيرًا بمظهرها، ومع ذلك ليس من المتوقع أن تُغاليَ في لباسها. هل لديك أيُّ دليلٍ آخر؟»

قال المفوَّض: «لا شيء.» ثم استطرد: «لقد اكتشفنا أن السيد لاين تشاجر مشاجرة خطيرة إلى حدٍّ ما مع إحدى موظَّفاته، تُدعى الآنسة أوديت رايدر ...»

حبسَ تارلينج أنفاسَه. وقال في نفسه إنَّه من السخيف أن يهتمَّ كلَّ هذا الاهتمام بشخصٍ لم يرَه لأكثرَ من عشر دقائق، وقد كان قبل أسبوع غريبًا تمامًا. لكن بطريقةٍ ما تركَت الفتاةُ لديه انطباعًا أعمقَ مما كان يتصوَّر. هذا الرجل الذي قضى حياتَه في التحقيق في الجريمة وفي دراسة المجرمين، لم يكن لديه الوقتُ للاهتمام بالنساء، وكانت أوديت رايدر مصدرَ إلهامٍ له.

قال: «علمتُ أنه وقَع شِجار. كما أعرف أيضًا السبب.» وتحدَّث بإيجازٍ عن الملابسات التي التقى فيها هو نفسُه بثورنتون لاين. ثم استدركَ حديثه قائلًا: «ماذا لديك ضدَّها؟» تعمَّد أن يقولها بلا اكتراث، لكنه كان في الحقيقة مكترثًا.

قال المفوَّض: «لا شيءَ محدَّد.» ثم أردفَ: «دليل اتِّهامها الوحيد هو ذلك الرجل ستاي. وحتى هو لم يتَّهِمْها اتهامًا مباشرًا، ولكنه ألمح إلى أنها مسئولة، بطريقةٍ ما لم يُحدِّدها، عن موت ثورنتون لاين. اعتقدتُ أنه من الغريب أن يعرف أيَّ شيء عن هذه الفتاة، لكني أميل إلى الاعتقاد بأن ثورنتون لاين جعل هذا الرجلَ محلَّ ثقتِه وقرَّبه منه.»

سألَ تارلينج: «ماذا عن الرجل؟» ثم أضافَ: «هل يُمكنه إثباتُ تحركاته ليلةَ أمس وفي الصباح الباكر؟»

ردَّ المفوَّض: «أقواله هي أنه رأى السيد لاين في شقته في الساعة التاسعة، وأن السيد لاين أعطاه خمسةَ جنيهات في وجودِ كبيرِ خدم لاين. وقال إنه غادر الشقةَ وذهب إلى منزله في لامبث، حيث أوى إلى الفراش في وقتٍ مبكر جدًّا. وكل الأدلة التي تَمكَّنَّا من جمعها تدعم أقواله. فلقد قابَلْنا كبيرَ خدم لاين، وتتفق روايتُه مع رواية ستاي. غادر ستاي في الساعة التاسعة وخمس دقائق، وفي العاشرة إلا خمسةً وعشرين دقيقة — أي بعد نصف الساعة بالضبط — غادر لاين نفسُه المنزل، وكان يقود سيارته ذات المقعدين. كان وحده، وأخبر كبيرَ الخدم أنه ذاهبٌ إلى ناديه.»

سأل تارلينج: «ماذا كان يرتدي؟»

أومأ المفوَّض: «هذا مهمٌّ جدًّا.» ثم أردفَ معلِّلًا: «ذلك لأنه كان يرتدي بِذلةَ سهرة حتى الساعة التاسعة — في الواقع، إلى أن غادر ستاي — وعندها غيَّر ملابسَه إلى البذلة التي عُثِرَ عليه فيها مقتولًا.»

زمَّ تارلينج شفتَيه.

قال: «لم يكن ليُغيِّر بِذلة سهرة إلى بذلة نهاريَّة للذَّهاب إلى ناديه.»

غادر سكوتلاند يارد بعد فترة وجيزة، وكان متحيِّرًا للغاية. كانت زيارته الأولى للشقة الواقعة في طريق إدجوير التي كانت تقطن فيها أوديت رايدر. لم تكن هي في المنزل، وأخبره حارسُ العقار أنها ليست هنا منذ ظُهر أمس. وكان من المقرَّر إرسالُ رسائلها إلى هيرتفورد. كان لديه العنوان لأنَّ مِن صميم عمله أن يُقابل ساعيَ البريد ويُرسل الرسائل.

«هيلينجتون جروف، هيرتفورد.»

كان تارلينج قلقًا. قال لنفسه إنه لم يكن هناك حقًّا سببٌ يستدعي ذلك القلق، لكنه كان قلِقًا بلا شك. وقد أُصيب بخيبةِ أمل أيضًا. شعر بأنه، إذا كان بإمكانه فقط رؤيةُ الفتاة والتحدُّث إليها بضعَ دقائق، لكان من الممكن أن يُبرِّئ ساحتها تمامًا من أي شك قد يلحقُ بها. في الواقع، كونها كانت بعيدةً عن المنزل، وكونها «اختفت» من شقتها عشيةَ القتل، سيكون كفيلًا تمامًا، كما يعلم، لجعل الشرطيِّ المسئول يتتبعُ أثرَها.

سأل الحارسَ: «هل تعرف ما إذا كان لدى الآنسة رايدر أصدقاء في هيرتفورد؟»

قال الرجل وهو يُومئ برأسه: «أوه، نعم يا سيدي.» ثم أردفَ: «والدة الآنسة رايدر تعيش هناك.»

همَّ تارلينج أن يذهب، عندما استوقفه الرجل بملاحظةٍ أرجعَت عقله إلى جريمة القتل وملأَتْه بإحساسٍ مؤقَّت بالحزن اليائس.

«أنا سعيدٌ لأن الآنسة رايدر تصادف عدمُ وجودها الليلة الماضية يا سيدي.» ثم أضافَ موضِّحًا: «فقد تقدَّم بعضُ المستأجرين في الطابق العلوي بشكاوى.»

سألَ تارلينج: «شكاوى حول ماذا؟» فتردَّد الرجل.

«أتصوَّرُ أنكَ صديقٌ للسيدة الشابة، أليس كذلك؟» وأومأ تارلينج برأسه.

قال الحارسُ بصوتٍ منخفض وكأنه يُفضي إليه بسِر: «حسنًا، هذا يظهر لك فقط كيف أن الناس كثيرًا ما يُلامون على أشياءَ لم يرتكبوها. المستأجِر في الشقة المجاورة لها رجلٌ غريب الأطوار قليلًا؛ إنه موسيقي، ولكنه على الأحرى أصم. إذا لم يكن أصمَّ، فلم يكن ليقولَ إن الآنسة رايدر هي السببُ في إيقاظه. أعتقد أنه كان شيئًا ما حدثَ في الخارج.»

سألَ تارلينج بسرعة: «ماذا سمع؟» وضحك الحارس.

«حسنًا، يا سيدي، لقد اعتقد أنه سمع صوتَ رصاصة، وصراخًا مثل صرخةِ امرأة أيقظَه. كنت سأظنُّ أنه حلم بذلك، لكنَّ مستأجرًا آخرَ يعيش أيضًا في البدروم، سمع الصوت نفسَه، والشيء العجيب هو أنَّ كِلَيهما ظنَّا أنه كان في شقة الآنسة رايدر.»

«في أيِّ وقتٍ كان هذا؟»

قال الحارس: «يُقال عند منتصف الليل يا سيدي، ولكن، بالطبع لا يُمكن أن يكون هذا قد حدث؛ لأن الآنسة رايدر لم تكن موجودة، والشقة كانت خالية.»

كان هذا خبرًا مقلقًا لينشغلَ به تارلينج في رحلته بالقطار إلى هيرتفورد. كان مُصرًّا على رؤية الفتاة ووضعِها على أُهْبة الاستعداد، وعلى الرغم من أنه أدرك أنه ليس مِن واجبه بالضبط أن يضعَ مجرمًا مشتبَهًا به على أهبة الاستعداد وأن سلوكه كان، على أقل تقدير، غيرَ طبيعي، فإن ذلك لم يُزعجه كثيرًا.

لقد أخذ تذكرتَه وكان يشق طريقه إلى الرصيف عندما لمح شخصًا مألوفًا وكأنه يُسرع من القطار الذي وصل لتوه، ويبدو أن الرجل رأى تارلينج حتى قبل أن يتعرَّف تارلينج عليه؛ لأنه انحرف فجأةً وكاد يختفي وسط الزحام لولا أنْ لحق به المحقق.

قال: «مرحبًا يا سيد ميلبرج!» ثم سأله متحقِّقًا: «اسمُك ميلبرج، إذا لم تَخُنِّي ذاكرتي؟»

استدارَ مديرُ متجر لاين، يفرك يدَيه، وابتسامته المعتادة على وجهه.

قال بلطفٍ: «آه، بالتأكيد، أنت السيد تارلينج، حضرة المحقق المحترم. يا له من خبرٍ محزن يا سيد تارلينج! كم هو مُفزِع لجميع الأشخاص ذَوي الصِّلة!»

«أتصوَّر أن تلك الحادثة المروعة قد أحدثَت اضطرابًا في المتاجر؟»

ردَّ ميلبرج بصوتٍ مصدوم: «أوه، نعم يا سيدي.» ثم واصلَ حديثه قائلًا: «بالطبع أغلقنا المتجرَ لهذا اليوم. إنه شيء بشع — أبشع شيء رأيتُه في حياتي. هل هناك أيُّ شخص مشتبَه به؟»

هزَّ تارلينج رأسه.

قال: «إنها ملابساتٌ غامضة للغاية يا سيد ميلبرج.» ثم أردفَ: «هل لي أن أسألَ عمَّا إذا كان قد وُضِعَت أيُّ ترتيبات لمواصلة العمل في حالة الموتِ المفاجئ للسيد لاين؟»

ارتبكَ ميلبرج مرة أخرى، وبدا مترددًا في الرد.

وقال: «أنا، بالطبع، مسئول، كما كنتُ عندما ذهب السيد لاين في رحلته حول العالم. لقد تلقيتُ المسئوليةَ أيضًا من محامي السيد لاين لإدارة العمل إلى أن تُعيِّن المحكمة وصيًّا.»

نظر إليه تارلينج بتمعُّن.

سأله بصراحة: «ما أثرُ هذه الجريمة عليك شخصيًّا؟ هل تُعزِّز مكانتك أم تُقوِّضها؟»

ابتسمَ ميلبرج.

قال: «للأسف، تُعزز مكانتي؛ لأنها تُعطيني سُلطةً أكبر ومسئوليةً أضخم. أودُّ لو أن هذا الحادث لم يقع على الإطلاق يا سيد تارلينج.»

قال تارلينج بطريقة جافة متذكرًا اتهاماتِ لاين ضدَّ أمانة الرجل: «أنا متأكد من ذلك.»

بعد بِضع كلمات عادية افترق الرجلان.

ميلبرج! في الرحلة إلى هيرتفورد حلَّل تارلينج هذا الرجلَ اللبِق، ووجد أنه يُعاني عَوَزًا في بعض الصفات الأساسية؛ وقيَّمه ووجدَه يفتقر إلى عناصرَ يجب أن تُشكِّل بالتأكيد جزءًا من مؤهلاتِ أيِّ رجلٍ جديرٍ بالثقة.

في هيرتفورد استقلَّ بسرعة سيارةَ أجرة وأعطى العنوان إلى السائق.

قال سائق السيارة الأجرة: «هيلينجتون جروف يا سيدي؟ هذا يبعد حوالي ميلَين.» ثم أردفَ مستفسرًا: «هل تُريد السيدة رايدر؟»

أومأ تارلينج.

قال السائق: «لم تأتِ معك السيدة الشابة التي كانت تتوقَّعُها السيدة رايدر؟»

أجاب تارلينج متفاجئًا: «نعم، لم تأتِ.»

أوضحَ سائقُ السيارة بغموض: «طُلِبَ مني إبقاءُ عينَيَّ مفتوحتَيْن والانتباهُ عند رؤية سيدةٍ شابة.»

كان ثَمة مفاجأة أخرى في انتظار المحقق. كان يتوقع أن يكتشف أن هيلينجتون جروف عبارةٌ عن منزلٍ صغير في الضواحي يحمل لقبًا فخمًا. اندهشَ عندما انعطف سائقُ السيارة الأجرة عبر بوابتَين رائعتين، وقاد لمسافة طويلةٍ إلى حدٍّ ما، إلى أن وصَل في النهاية إلى مساحة مغطَّاة بالحصى قُبالةَ قصر كبير. كان بالكاد طرازَ المنزل الذي كان يتوقعه لوالدةِ موظَّفةٍ بسيطة في متجر لاين، وزادت دهشته عندما فتح البابَ أحدُ الخدم.

قاده إلى غرفة صالون مفروشة على نحوٍ جميلٍ وفني. فبدأ يعتقد أن ثمةَ خطأً قد وقع، وكان يُفكر في الاعتذار من سيدة المنزل عندما فُتِحَ الباب ودخلَت سيدة.

كان عمرها يُقارب الأربعين لا الثلاثين، ولكنها كانت لا تزال امرأةً جميلة تتصرَّف كسيدة راقية. كانت بمنزلةِ اللطفِ نفسِه بالنسبة إلى الزائر، ولكن تارلينج ظنَّ أنه لمح فيها بعضَ القلق سواءٌ في ملامحها أو في صوتها.

بدأ حديثه: «أخشى أنَّ هناك خطأً ما.» ثم أردفَ: «لقد أخطأتُ غالبًا في العثور السيدة رايدر المقصودة ... أردتُ أن أرى الآنسة أوديت رايدر.»

أومأَت السيدة برأسها.

قالت: «هذه ابنتي.» ثم سألته: «هل لديكَ أيُّ أخبار عنها؟ أنا قلقة جدًّا عليها.»

قال تارلينج بسرعة: «قلِقة عليها؟» ثم تابعَ: «لماذا، ماذا حدث؟ أليست هنا؟»

قالت السيدة رايدر وقد اتسعَت عيناها: «هنا؟» ثم أردفت: «بالطبع ليست هنا.»

سأل تارلينج: «لكن ألم تكن هنا؟» ثم استفسر: «ألم تَصِل إلى هنا منذ ليلتَين؟»

هزَّت السيدة رايدر رأسها.

وأجابت: «لم تأتِ ابنتي.» ثم أضافت: «لكنها وعدَت أن تأتيَ وتقضيَ بِضعة أيام معي، وفي الليلة الماضية تلقيتُ برقيةً — انتظر لحظة، سأُحضرها لك.»

ذهبَت بضع لحظات وعادت بمظروف صغير، وناولَتْه إلى المخبِر. نظر فيه وقرأ:

أُلغيَت زيارتي. لا تكتبي لي على عُنوان الشقة. سأتواصلُ معكِ عندما أصلُ إلى وجهتي.

كُتِبت البرقية في مكتب البريد العام، بلندن، وموعد تحريرها في الساعة التاسعة — أي قبل ارتكاب جريمة القتل، حسَب رأي الخبراء، بثلاث ساعات!

الفصل السابع

المرأة في القضية

سألَ تارلينج: «هل يُمكنني الاحتفاظُ بهذه البرقية؟»

أومأت المرأةُ برأسها. ورأى أنها كانت متوترةً ومنزعجة وقلقة.

قالت: «لا أستطيع أن أفهم أبدًا السببَ في عدم حضور أوديت.» ثم سألته: «هل مِن سبب معيَّن؟»

قال تارلينج: «ليس لديَّ ما يُمكنني قوله.» ثم أردفَ: «ولكن مِن فضلِكِ لا تدَعي هذا يُقلقك يا سيدة رايدر. ربما غيَّرَت رأيها في اللحظة الأخيرة وسوف تبقى مع أصدقائها في المدينة.»

سألت السيدة رايدر بقلق: «إذن أنت لم ترَها؟»

«لم أرَها منذ عدة أيام.»

«هل هناك خَطْبٌ ما؟» اهتزَّ صوتها لثانيةٍ لكنها تمالكَت نفسها. وحاولت أن تبتسمَ. ثم قالت: «كما ترى، لقد كنتُ في المنزل منذ يومَين أو ثلاثة أيام، ولم أرَ لا أوديت ولا ...» ثم أردفت بسرعة: «ولا أيَّ شخص آخر.»

تساءَل تارلينج، مَنْ كانت تتوقع أن ترى، ولماذا كبَحَت نفسَها؟ هل من الممكن أنها لم تسمع بالقتل؟ أصرَّ على أن يختبرَها.

قال لها وهو يُراقبها عن كثب: «ابنتُكِ على الأرجح محتجَزةٌ في المدينة بسبب مصرع السيد لاين.»

جفلَت وتغيَّر لونُها.

تلعثمت وهي تقول: «مصرع السيد لاين؟» ثم سألته: «هل مات؟ ذلك الشاب اليافع؟»

قال تارلينج: «لقد قُتِلَ في هايد بارك صباح أمس.» ترنَّحَت إلى الوراء وانهارت على كرسي.

همست: «قُتِل! قُتِل!» ثم قالت: «يا إلهي! ليس هذا، ليس هذا!»

كان وجهها أبيضَ شاحبًا، وكانت كلُّ أطرافها ترتعد، تلك المرأة المتَّزنة النبيلة التي دخلَت بهدوءٍ وسَكينة إلى غرفة الصالون منذ بضعِ دقائق.

غطَّت وجهها بيدَيها وراحت تبكي بهدوء وانتظر تارلينج.

سألها بعد فترة: «هل كنتِ تعرفين السيد لاين؟»

هزَّت رأسها.

«هل سمعتِ أيَّ قصص عن السيد لاين؟»

رفعَت بصرها.

ثم قالت بفتور: «لا شيء، باستثناء أنه لم يكن رجلًا لطيفًا للغاية.»

تردَّد قبل أن يسألها: «سامحيني عندما أسألك، لكن هل أنت مهتمَّة جدًّا ...» فرفعت رأسها.

لم يكن يعرف كيف يصوغ هذا السؤالَ في كلمات. حيَّره أن تعمل ابنةُ هذه المرأة التي من الواضح أنها كانت ميسورةَ الحال في وظيفة متواضعة إلى حدٍّ ما في متجر لاين. أراد أن يعرف ما إذا كانت تعلم أن الفتاة قد فُصِلت من العمل، وما إذا كان ذلك قد أحدث فرقًا كبيرًا لها. ثم مرةً أخرى، حديثه مع أوديت رايدر لم يَقُدْه إلى استنتاجِ أنها تستطيع تحمُّل تركِ عملِها. تحدَّثت عن العثور على وظيفةٍ أخرى، وهذا لم يدلَّ على أن والدتها كانت ميسورةَ الحال.

سألَ بصراحة: «هل هناك ضرورةٌ لعمل ابنتك لكسب لقمة العيش؟» فخفَضَت عينَيها.

قالت بصوتٍ منخفض: «إنها رغبتُها.» ثم أضافت على عجل: «إنها لا تنسجمُ مع الناس هنا.»

سادَ صمتٌ قصير ثم نهضَ واقفًا ومَدَّ يده.

قال: «آمُل ألا أكون قد أقلقتُكِ بأسئلتي، وأعتقد أنكِ تتساءلين لماذا أتيتُ. سأُخبركِ بصراحة إنني أشارك في التحقيق في جريمة القتل هذه، وكنتُ أتمنى أن تُعطيَني ابنتُكِ، مثلها مثل باقي الأشخاص الآخرين الذين كانوا على اتصالٍ بالسيد لاين، أيَّ خيطٍ لدليل من شأنه أن يُؤدِّيَ إلى أشياءَ أكثر أهمية.»

سألت: «محقق؟» وكاد يُقسم أنه كان هناك رعبٌ في عينيها.

ضحكَ وهو يقول: «نوعًا ما، لكن لست بمحققٍ عملاق، كما آمُل، يا سيدة رايدر.»

أوصلته حتى الباب، وشاهدته حتى اختفى عن ناظريها؛ ثم عادت ببُطءٍ إلى الغرفة ووقفت أمام المدفأة الرخامية، ووضعت رأسها على ذراعَيها، وراحت تبكي بهدوء.

غادر جاك تارلينج هيرتفورد مرتبكًا أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. كان قد أصدر تعليماتِه إلى سائق السيارة الأجرة كي ينتظرَه عند البوابتَيْن، وبما أنه كان سيدفع مبلغًا يستحق، شغَّل السائقُ السيارة.

كانت السيدة رايدر تعيش في هيرتفورد منذ أربع سنوات، وكانت تحظى هناك باحترامٍ هائل. هل كان سائق السيارة يعرف الابنة؟ أوه نعم، لقد رأى الشابةَ مرةً أو مرتين، لكنه أوضحَ «إنها لا تأتي كثيرًا. فهي بكل المقاييس، ليست على وِفاق مع والدها.»

قال تارلينج متفاجئًا: «والدها؟ لم أكن أعرف أنَّ لديها أبًا.»

نعم، كان أبوها موجودًا. كان زائرًا نادرًا، وعادةً ما كان يأتي من لندن بالقطار المتأخر ويحضر إلى المنزل في عرَبته الخفيفة التي تجرُّها الخيول. لم يَرَه — في الواقع، لم يرَه سوى عددٍ قليل جدًّا من الناس — ولكن الجميع يقولون إنه رجلٌ لطيف للغاية، وله اتصالاتٌ جيدة بالمدينة.

كان تارلينج قد أرسَل برقيةً إلى المساعِد الذي عيَّنَته له سكوتلاند يارد، وكان المفتش وايتساييد في انتظاره في المحطة.

سألَ تارلينج: «هل من جديد؟»

قال وايتساييد: «نعم يا سيدي، هناك دليلٌ مهم ظهر إلى النور. معي السيارة هنا، يا سيدي، ويُمكننا أن نُناقش الأمر في طريق العودة إلى سكوتلاند يارد.»

سألَ تارلينج: «ماذا هناك؟»

قال المفتش: «لقد حصلنا عليه من خادم السيد لاين.» ثم أردفَ: «يبدو أن كبير الخدم كان يُفتش في أغراض السيد لاين، بِناءً على تعليماتٍ من الإدارة العامة، واكتشف في ركنٍ من مكتبه برقية. سأُريك إياها عندما أَصِلُ إلى سكوتلاند يارد. سيكون لها تأثيرٌ مهم للغاية في القضية، وأعتقد أنها قد تقودنا إلى القاتِل.»

عند سماع كلمة «برقية» تحسَّس تارلينج تلقائيًّا في جيوبه البرقيةَ التي أعطته إياها السيدة رايدر من ابنتها. الآن أخرجَها وقرأها مرة أخرى. لقد جرى تسليمُها في مكتب البريد العام في تمام الساعة التاسعة.

قال المفتش وايتسايد، الذي كان يجلس بجواره، وشاهد البرقية: «هذا غريبٌ جدًّا يا سيدي.»

سأَلَ تارلينج باندهاش: «ما هو الغريب؟»

قال رجل سكوتلاند يارد: «تصادف أن رأيتُ التوقيعَ على تلك البرقية ... «أوديت»، أليس كذلك؟»

أومأ تارلينج وهو يقول: «بلى.» ثم سأله مستوضحًا: «لماذا؟ وما الغريبُ في ذلك؟»

قال وايتسايد: «حسنًا، سيدي.» ثم واصلَ حديثه قائلًا: «من قبيل المصادفة أن البرقية التي جرى العثورُ عليها في مكتب السيد لاين، لتحديدِ موعدٍ معه في شقة معينة في طريق إدجوير، كانت أيضًا تحت توقيع «أوديت»، كما أنها ...» وانحنى إلى الأمام ممعنًا النظرَ في البرقية التي ما زالت في يد تارلينج المذهول، ثم قال في نبرةِ انتصار: «كما أنها جرى تسليمُها في الوقت نفسِه تمامًا!»

لم يترك فحصُ البرقية في سكوتلاند يارد أيَّ شكٍّ في عقل المحقق أنَّ وايتسايد لم يقل سِوى الحقيقة. أُرسِلَت رسالةٌ عاجلة إلى مكتب البريد العام، وفي غضون ساعتَين كانت البرقيَّتان الأصليتان أمامَه. كلتاهما كُتِبت باليدِ نفسِها. البرقية الأولى لأمِّها، تُخبرها فيها بأنها لن تستطيعَ المجيء؛ والثانية للاين، وتقول فيها:

هَلَّا تُقابلني في شقتي الليلة في الساعة الحادية عشرة؟

أوديت رايدر

هوى قلبُ تارلينج بين ضلوعه. كانت هذه الأخبار المذهلة صادمةً. قال لنفسه مِرارًا وتَكْرارًا إن مِن المستحيل تمامًا أن تكون هذه الفتاةُ هي مَنْ قتلَت لاين. ولنفترض أنها فعلت؟ فأين التقيا؟ هل ركبا السيارةَ معًا، وهل أطلقَت النارَ عليه في المتنزَّه؟ ولكن لماذا كان يلبَس هذا الشبشب؟ لماذا لا يرتدي معطفه، ولماذا يلتفُّ ثوب النوم حول جسده؟

لقد فكَّر في الأمر، ولكن كلما فكَّر في الأمر، ازدادت حيرته. وكان مكتئبًا للغاية حين قابل مسئولًا تلك الليلةَ وحصل منه على مذكرة تفتيش.

مسلحًا بهذه المذكرة وبرفقة وايتسايد، شقَّ طريقه إلى الشقة في طريق إدجوير، وعندما كشَف عن سلطته، حصَل على مِفتاح من حارس العقار. تذكَّر تارلينج آخرَ مرة ذهب فيها إلى الشقة، وأدار المفتاح في القفل وهو يشعر بالشفقة الشديدة على الفتاة، ودخل إلى الصالة الصغيرة، مادًّا يده في الوقتِ نفسِه ليُشغل مفتاح الإضاءة.

لم يكن هناك شيءٌ في الصالة يوحي بأي شيء غير عادي. كانت هناك فقط تلك الرائحةُ البغيضة التي تتَّسمُ بها جميع الشقق المغلقة، حتى ولو لبضعةِ أيام.

لكن كان هناك شيءٌ آخر.

استنشقَ تارلينج واستنشقَ وايتساید. كان ثَمة رائحةُ «احتراق»، رائحةٌ نفَّاذة «محترقة»، وقد تعرَّف عليها بأنها رائحةُ انفجار الكورداید (المادة الدافعة المستخدَمة في الأسلحة النارية). ذهبَ إلى غرفة الطعام الصغيرة. كان كلُّ شيء أنيقًا، لا شيء في غير موضعه.

قال وايتساید مشيرًا إلى البوفيه: «هذا غريب.» ورأى تارلينج مِزهريَّة زجاجية عميقة نِصفها مليءٌ بالنرجس. زهرتان أو ثلاث أزهار إمَّا سقطت أو سُحبَت من المزهرية، ووقعت على السطح المصقول للبوفيه، وقد ذَبُلت وماتت.

قال تارلينج: «امممممم.» ثم أردفَ: «أنا لا أحب هذا كثيرًا.»

استدار وعاد إلى الصالة وفتح بابًا آخرَ كان مواربًا. ومرة أخرى أشعل الضوء. كان في غرفة نوم الفتاة. وقف مصدومًا، وفحص الغرفة ببطء. باستثناءِ المظهرِ غيرِ المرتَّب للخِزانة ذات الأدراج، لم يكن هناك شيءٌ غير عادي في مظهر الغرفة. على أبواب الدولاب المفتوحة كومة صغيرة من الملابس النسائية الملقاة على الأرض. كل هذا كان نتيجةَ التصرف المتسرِّع. كان هناك أيضًا حقيبةُ سفرٍ صغيرة، نصف ممتلئة، على السرير، تُرِكت أيضًا في عجَلة.

دخلَ تارلينج إلى الغرفة، ولو كان نصفَ أعمى لم يكن ليستطيعَ أن يُغفِل الدليل الأخير والأكثرَ إدانة. كانت السجادة باللون البني الفاتح وتُغطي الغرفةَ حتى الجدار. وأمام المدفأة، كان ثَمة بقعةٌ كبيرة غيرُ منتظمة ذات لونٍ أحمرَ قانٍ.

توتَّر وجه تارلينج.

وقال: «هذا هو المكان حيث أُطلِقَ النار على لاين.»

قال وايتساید بحماس، مشيرًا إلى خِزانة الأدراج: «وانظر هناك!»

خطا تارلينج بسرعة عبر الغرفة وسحب الثوبَ الذي كان معلقًا على حافَة الدرج. كان ثوبَ نوم ... ثوبَ نومٍ حريريًّا مطرَّزًا على الأكمام بغصنَين صغيرين من زهور «لا تنسَني». كان رفيقَ الثوب الذي عثَروا عليه حول جسد لاين. وكان هناك شيءٌ آخر. عند نزعِ الثوب من الدرج، كشفَ عن علامة على المينا البيضاء للخِزانة. كانت بصمةَ إبهام دامية!

التفتَ المحقق إلى مساعده وقد وضعَ على وجهه أجمدَ الأقنعة.

قال بهدوءٍ: «وايتساید، استخرِجْ أمرًا بالقبض على أوديت رايدر بتهمة القتل العمد. وأرسِلْ برقياتٍ إلى جميع أقسام الشرطة بالقبض على هذه الفتاة وأخبِرْني بالنتيجة.»

دون كلمة أخرى، غادر الغرفةَ وعاد إلى منزله.

الفصل الثامن

إخراس سام ستاي

كان ثَمة مجرمٌ في لندن يُراقَب ليلًا ونهارًا. لم تكن تَجرِبةً جديدة على سام ستاي أن يُشاهد محققًا يسير خلفه ويتظاهر بعدم الاهتمام؛ ولكن لأول مرة في حياته لم يكن السارقُ منزعجًا ولا محرَجًا من هذه الإجراءات.

كان موت ثورنتون لاين أكبرَ ضربة مأساوية لحقَت به. ولو اعتقلوه لم يكن فعلًا لِيَكترث. فهذا المجرمُ المنبوذ، ذو الوجه الطويل الكئيب المليءِ بالبُقَع والتجاعيد الذي يبدو كرجلٍ عجوز، كان يُحب ثورنتون لاين أكثرَ من أي شيء آخرَ في حياته الجامحة العقيمة. كان لاين بالنسبة إليه مخلوقًا مقدسًا، يمتلك مواهبَ وخِصالًا لم يكتشفها فيه أحدٌ غيرُه. في عيون سام لم يكن من الممكن أن يرتكبَ لاين أيَّ خطأ. ووفقًا لمعايير سام ستاي، كان لاين يرمز لكلِّ ما هو جميلٌ في الطبيعة البشرية.

ماتَ ثورنتون لاين! مات، مات، مات.

كل خطوة يخطوها كانت تُردِّد صدى الكلمة الرهيبة التي لا تُصدَّق. لقد أضحى الرجلُ غيرَ قادر على الشعور؛ فكلُّ الآلام الأخرى وأدَها هذا المُصاب الجللُ الذي مُنِي به.

ومَنْ كان سببَ كلِّ ذلك؟ مَن الذي بغدره اغتصبَ هذه الحياة الرائعة؟ جزَّ على أسنانه عندما راودَته هذه الفكرة. أوديت رايدر! تذكَّر الاسم. تذكَّر كلَّ الجروح التي سبَّبتْها لهذا الرجلِ، وليِّ نعمته. لقد تذكَّر تلك المحادثةَ الطويلة التي دارت بينه وبين لاين في صباحِ يومِ إطلاقِ سَراح سام من السجن، والتخطيط الذي تبعَها.

لم يستطِع أن يعرف أن بطلَه كان يكذب، وأنه بسبب انفعاله وكبريائه المجروح كان يخترعُ ضغائنَ ليس لها أيُّ أساس من الصحة، وجرائمَ لم تُرتكَب قط. كل ما كان يعرفه هو أن الكراهية التي تكمن في قلب ثورنتون لاين، الكراهية المبرَّرة من وجهة نظر سام، تسبَّبَت في مقتل هذا الرجل العظيم.

سار بلا هدفٍ نحو الغرب، غيرَ واعٍ ولا مكترثٍ بالشخص الذي يُراقبه، ووصل إلى نهاية بيكاديلي عندما أمسك شخصٌ ما بذراعه برفق. استدار، ولَمَّا تعرف عليه، زمَّ شفتَيه وأصدر زمجرةً قبيحة.

قال الشرطي الذي يرتدي ملابسَ مَدنية بابتسامة: «لا بأسَ يا سام.» ثم أردفَ: «ليس هناك مشكلةٌ في الطريق إليك. كل ما هنالك أنني أريد أن أسألَك بضعةَ أسئلة.»

تمتَم سام: «ظل زُملاؤك يطرحون الأسئلة ليلًا ونهارًا منذ ... منذ حدَث ذلك.»

ومع ذلك، فقد سمحَ لنفسه أن يهدأ ويذهب معه إلى مقعدٍ في المتنزه.

قال الشرطي: «الآن، سأُكلمك بمنتهى الصراحة يا سام.» ثم تابعَ قائلًا: «ليس لدينا أيُّ شيء ضدَّك في سكوتلاند يارد، لكننا نعتقد أنك قد تستطيع مساعدتَنا. كنتَ تعرف السيد لاين، وقد كان رقيقًا جدًّا معك.»

قال سام بعنف: «كفاك، اصمُت.» ثم أردفَ: «لا أريد التحدث عن ذلك. لا أريد التفكيرَ فيه! هل تسمع؟ كان أعظمَ رفيق في ذلك العالم، كان السيد لاين باركه الله! يا إلهي! يا إلهي!» ولدهشة المحقق دفن هذا المجرمُ الفظُّ وجهَه في يدَيه.

«لا بأسَ يا سام. أعلم أنه كان صديقًا لطيفًا. هل كان له أيُّ أعداء — ربما تحدَّث إلى فتًى مثلِك بما لم يكن ليقولَه لأصدقائه.»

رفعَ سام عينَيه الحمراوَين إليه بارتياب.

قال: «هل سأُواجه أيَّ مشكلة جراءَ الحديث؟»

قال الشرطي بسرعة: «على الإطلاق يا سام.» ثم استطرد حديثه قائلًا: «الآن، كن فتًى جيدًا وافعَل كلَّ ما في وُسعِك لمساعدتنا، وربما إذا واجهَتْك مشكلةٌ في أي وقت، سنُساعدك. أتفهم ما أعني؟ هل كان أحدٌ يكرهه؟»

أومأ سام برأسه.

سألَ المحقق بلا مبالاة مُتعمَّدة: «هل كانت امرأة؟»

أجابَ الآخر لاعنًا إياها: «نعم كانت امرأة.» ثم قال: «اللعنة عليها! كان السيد لاين يُعاملها معاملةً طيبة. كانت مفلسة، تكاد تتضوَّر جوعًا؛ فأنقذها من الحضيض ووضعها في مكانٍ جيد، وشرَعَت في توجيه الاتهاماتِ ضدَّه!»

وطَفِق يَتلفَّظ بأبشع الشتائم التي سمعها رجلُ الشرطة يومًا.

«هذا هو نوعُ الفتاة الذي كانت عليه يا سليد.» وتابعَ حديثه مخاطبًا المحققَ بلقَبِه، كما يفعل المجرمون: «إنها لا تستحقُّ السير على ظهر الأرض ...»

أضحى صوته مشروخًا.

سألَ سليد: «هل لي أن أسأل عن اسمها؟»

مرةً أخرى نظر سام بارتياب حوله.

قال: «انظر هنا، دعني أتعامل معها. سأُسوِّي الأمر معها ولا تقلق!»

قال سليد متأملًا: «لن تجني من ذلك سوى الوقوع في المشاكل يا سام.» ثم أردفَ: «فقط أعطِنا اسمها. هل يبدأ بحرف الراء؟»

زمجر المجرم: «كيف أعرف؟» ثم قال: «لا أستطيع التهجية. كان اسمُها أوديت.»

قال الآخر بلهفة: «رايدر؟»

«هذه هي. كانت تعمل كاشيرًا في متجر لاين.»

«الآن، فقط هدِّئ من روعك وأخبِرْني بكل ما أخبرَك به لاين عنها، هل يُمكنك ذلك يا فتى؟»

حدَّق سام ستاي في وجهه، ثم مرَّت على وجهه نظرةٌ وئيدة ماكرة.

قال: «لو كانت هي!» وأردفَ وهو يتنفَّس: «لو كان بإمكاني فقط أن أسجنها جزاء ما ارتكبت!»

لا شيءَ يوضح عقليةَ هذا الرجل أفضلَ من حقيقة أن فكرة الإبلاغ عن الفتاة لم تخطر ببالِه من قبل. نِعْمَ الفكرة هي، فكرةٌ رائعة! لوى شفتَيه مرة أخرى، ونظر إلى المحقق بابتسامة صغيرة غريبة.

قال: «حسنًا يا سيدي.» ثم أردفَ: «سأخبرُ رئيسك. لن أُخبِرَك.»

قال المحقق بلُطف: «لكَ ما تريد يا سام.» ثم تابعَ: «تستطيعُ إخبار السيد تارلينج أو السيد وايتساييد، وسيجعلون الأمرَ جديرًا بوقتك واهتمامك.»

استوقفَ المحقِّق سيارة أجرة وركبَا معًا، ليس إلى سكوتلاند يارد، ولكن إلى مكتب تارلينج الصغير في شارع بوند. كان هذا هو المكان الذي أسَّس فيه ذلك الرجلُ من شنغهاي وكالةَ التحقيقات الخاصةَ به، وهنا انتظر مع وايتساييد البارِدِ الطبعِ الرابطِ الجأش عودةَ المحقق الذي أرسله لسحب سام ستاي ممَّنْ يُراقبه.

اقتحمَ الرجلُ الغرفة، ونظر باستياءٍ من واحدٍ إلى الآخَر، وأومأ لكليهما، ورفضَ الكرسيَّ الذي دُفِعَ إليه. كان رأسه ينبض بطريقة فظيعة، كما لم ينبض من قبل. كان يسمع أزيزًا وطنينًا غريبًا في أذنيه. كان من الغريب أنه لم يُلاحظ ذلك حتى جاء إلى الغرفة الهادئة ليلتقِيَ بالعينَين الصارمتين لرجل جامد الوجه لم يتذكَّر أنْ رآه من قبل.

قالَ وايتسايد، الذي تعرَّف عليه المجرمُ على الأقل: «الآن يا ستاي. نريد أن نسمعَ ما تعرفه عن جريمة القتل هذه.»

زمَّ ستاي شفتَيه ولم يُجِبْ جوابًا.

قال تارلينج: «اجلس.» وأطاعَ الرجلُ هذه المرة. أردفَ تارلينج الذي كان صوته ناعمًا نعومةَ الحرير عندما يستخدم أسلوبَ الإقناع: «الآن يا فتى، أخبروني أنَّك كنت صديقًا للسيد لاين.»

أومأ سام برأسه.

«لقد كان جيدًا معك، أليس كذلك؟»

«جيدًا؟» تنفسَ الرجل نفَسًا عميقًا. ثم واصل حديثه قائلًا: «ما كنت لأضنَّ عليه بقلبي وروحي حتى أنقذه من ألمِ دقيقة، يا سيدي! سأخبرك الحقيقة، وعسى أن تضربني صاعقةٌ فأموت إذا كنتُ أكذب! كان ملاكًا على الأرض — يا إلهي، إذا أمسكتُ بتلك المرأة، فسوف أخنقها. سوف أُعذِّبها! لن أتركها حتى تتمزق إربًا!»

أرعدَ وأزبدَ وبدا أن وجهه كلَّه قد تبدَّل في نشوة الكراهية.

ثم صاحَ قائلًا: «لقد كانت تسرقُه وتسرقه منذ سنوات.» وأضافَ: «لقد رعاها وحماها، وراحت هي تقولُ عنه الأكاذيب، لقد فعلت. لقد نصبت له شَرَكًا!»

ارتفعَ صوته إلى صُراخ، وتقدَّم نحو المكتب وهو يشدُّ قبضتَيه حتى ابيضَّت بَرَاجِمُه. انتفض تارلينج واقفًا؛ لأنه عرَف العلامات. وقبل أن تُنطَق كلمة أخرى، انهار الرجل متكوِّمًا على الأرض، واستلقى كأنه ميت.

استدارَ تارلينج حول المنضدة في لحظة، وأدارَ الرجلَ الفاقدَ الوعيِ على ظهره، ورفعَ جَفنًا واحدًا، وفحصَ بُؤبؤ العين.

قال: «صَرَعٌ أو ما هو أسوأ.» ثم أردفَ: «هذا الشيء كان يفترس عقلَ هذا الشيطان المسكين، اتصِل بالإسعاف يا وايتسايد، هَلا فعلت؟»

«هل أُعطيه بعضَ الماء؟»

هزَّ تارلينج رأسه.

وقال: «لن يتعافى لساعات، هذا إذا تعافى من الأساس.» ثم أضافَ: «إذا كان سام ستاي يعرف أيَّ شيء قد يضرُّ أوديت رايدر، فمن المرجَّح أنه سيحمله معه إلى القبر.»

وفي صميم قلبه، شعَر جيه أوه تارلينج بشيءٍ من الرضا أن فمَ هذا الرجل سكتَ عن الكلام.

الفصل التاسع

من أين أتت الأزهار

أين كانت أوديت رايدر؟ كانت تلك مشكلةً يجب حلُّها. لقد اختفَت كما لو أن الأرض قد انشقَّت وابتلعَتها. جرى تحذيرُ كلِّ مركز شرطة في البلاد؛ جميع السفن المغادِرة كانت تحت المراقبة؛ أُجريت تحقيقاتٌ دقيقة في كل اتجاه حيث من المحتمل العثورُ عليها؛ وكان المنزل في هيرتفورد تحت المراقبة ليلَ نهار.

تمكَّن تارلينج من تأجيل التحقيق؛ فمهما كانت مشاعره تجاه أوديت رايدر، يبدو أنه كان أكثرَ قلقًا لأداء واجبه تجاه الدولة، وكان من الضروريِّ للغاية ألا يبحث طبيبٌ شرعي فُضولي بعمق في السبب والملابسات التي أدَّت إلى وفاة ثورنتون لاين، خشيةَ أن يُحذِّر المجرمَ المشتبَه به.

وبرفقة المفتش وايتساید، أعاد فحص الشقة التي كانت السجادةُ الملطَّخة بالدماء تُشير على نحوٍ لا التباسَ فيه إلى أنها مسرحُ جريمة القتل. رُفِعَت بصمة الإبهام الدامية على الخِزانة وكانت في انتظار مقارنتها ببصمات الفتاة لحظةَ القبض عليها.

كان كاريمور مانشنز، حيث كانت تعيش أوديت رايدر، كما وصفنا من قبل، عبارةً عن مجمع من الشقق الراقية، وقد خُصِّص الطابق الأرضي للمحلات التِّجارية. وكان المدخل المؤدِّي إلى الشقق بين مَحَلَّين من هذه المحلات، وثَمة دَرج يُؤدي إلى البدروم. وكانت هناك ستُّ شقق لها نوافذُ تُطل على المساحات الضيقة الموازية للشوارع الجانبية في كلا جانبَي المجمع.

يتألف مركز البدروم من مخزن خرساني كبير ينقسم إلى مقصورات صغيرة أو أقبِيَة يخزن فيها المستأجرون ما لا يحتاجون إليه من أمتعة وأثاث ... إلخ، واكتشف أنه من الممكن المرورُ من ممرِّ البدروم، إلى داخل المخزن، ثم الخروجُ من خلال بابٍ في الجزء الخلفي من المبنى يؤدِّي إلى فِناءٍ صغير. كان من الممكن الوصولُ إلى الشارع من خلالِ

بابٍ كبير نوعًا ما، وُضِعَ هناك لراحة المستأجِرين الذين يرغبون في الحصول على الفَحْم والبضائع الثقيلة الخاصَّة بهم. كان يوجد في الشارع خلف مجمع الشقق إسطبل، يتكوَّن من حوالي اثنَي عشَر مكانًا مغلقًا، وجميعها مستأجَرة من قِبَل شركة سيارات أجرة، وتُستخدَم الآن مَرْأبًا.

إذا كانت جريمة القتل قد ارتُكِبت في الشقة، فبهذه الطريقة نُقِلت الجثَّة إلى الإسطبل، وهنا أيضًا، تجذب السيارةُ القليل من الاهتمام. أثمرَت التحقيقاتُ التي أُجريَت مع موظَّفي شركة سيارات الأجرة، الذين يسكن البعضُ منهم غرفًا صغيرة فوق مرائبهم، عن معلومة مهمة وهي أن السيارة شُوهِدَت في الإسطبل في ليلةِ جريمة القتل، وهي حقيقة، على ما يبدو، غُضَّ الطرْفُ عنها في تحقيقات الشرطة الأولية.

كانت السيارة من طِراز دايملر ذات مقعدَين بجسمٍ أصفر وغِطاء متحرك. لقد كان هذا وصفًا دقيقًا لسيارة ثورنتون لاين التي عُثِر عليها بالقرب من مكانِ اكتشاف جثَّتِه. كان غِطاءُ السيارة مرفوعًا عندما شُوهِدَت في الإسطبل وكان الوقتُ على ما يبدو بين العاشرةِ والحاديةَ عشرة ليلةَ وقوع جريمة القتل. ولكن على الرغم من أنه أجرى تحقيقاتٍ في غاية الدقة، فقد فشل تارلينج في اكتشاف أيِّ إنسان تعرَّف على لاين أو شاهد السيارةَ لحظة وصولِها أو مغادرتها.

كان حارس المبنى، عند إجراء التحقيق معه شديدَ التأكيد على أن أحدًا لم يدخل إلى المبنى من المدخل الرئيسي بين الساعة العاشرة والعاشرة والنصف. واعترف أنه مِن الممكن أن يكونوا قد دخلوا ما بين الساعة العاشرة والنصف والحادية عشرة إلا الربع لأنه ذهب إلى «مكتبه»، الذي ثبت أنه مكانٌ صغير خانق تحت السلالم، لتغييرِ زيِّه الرسمي إلى ملابسه الخاصة قبل العودةِ إلى بيته. كان معتادًا على إغلاق الباب الأمامي عند الساعة الحاديةَ عشرة. كان لدى المستأجرين مفاتيحُ للباب الرئيسي ولم يكن يعرف أيَّ شيء عما حدث بعد الحادية عشرة. اعترف أنه ربما غادر قبل الحادية عشرة بقليل في تلك الليلة، لكنه لم يكن على استعداد لأن يُقسِم حتى على هذا.

قال وايتسايد بعد ذلك: «في الواقع، لن تُسفِر شهادتُه عن شيء. ففي الوقت بالضبط الذي ربما يكون شخصٌ قد أتى إلى الشقة — أي بين العاشرة والنصف والحادية عشرة إلا الربع — اعترفَ أنه لم يكن في الخدمة.»

أومأ تارلينج. لقد أجرى فحصًا دقيقًا لأرضيةِ ممرِّ البدروم عبر المخزن إلى الفِناء، لكنه لم يَجِد أيَّ آثارٍ لدماء. ولم يتوقَّع العثور على أيِّ آثار؛ إذ كان من الواضح أنه إذا

كانت جريمةُ القتل قد ارتُكِبَت في الشقة وثوبُ النوم الذي أُغلق به جُرحُ القتيل كان مِلكًا لأوديت رايدر، فلن يكون هناك نزيف.

قال: «أنا مقتنع بشيء واحد. إذا كانت أوديت رايدر هي مَن ارتكب جريمة القتل، فقد كان لها شريك. فمن المستحيل أن تكون قد حملَت هذا الرجلَ إلى العَراء أو جرَّتْه ووضعَته في السيارة، ثم حملته مرة أخرى من السيارة ووضعَته على العشب.»

قال وايتساید: «أزهار النرجس تُحيِّرني.» ثم تساءل: «تُرى ما سر أزهار النرجس التي وجدناها على صدره؟ ولماذا، إذا كان قد قُتِل هنا، تُرهِق نفسَها لتُظهر احترامها؟»

هزَّ تارلينج رأسه. كان أقربَ إلى حلِّ اللغز الأخير مما يعرفه أيٌّ منهما.

انتهى بحثُه في الشقة، وذهبَ إلى هايد بارك، وأرشده وايتساید إلى البقعة التي عُثِرَ فيها على الجثة. كانت على رصيفٍ مرصوف بالحصى، أقربَ إلى العُشب منها إلى الطريق، ووصفَ وايتساید وضْعَ الجسد. نظر تارلينج حوله، وفجأةً تعجَّب.

قال مشيرًا إلى حوض زهور: «عجبًا!»

حدَّق وايتساید، ثم ضحك.

قال: «هذا غريب.» ثم عقَّبَ قائلًا: «يبدو أننا لا نرى شيئًا سوى أزهارِ النرجس في هذه الجريمة!»

كان الحوض الكبير الذي توجَّه نحوه تارلينج مليئًا بأزهار الأجراس الريشية التي كانت ترقصُ وتتمايل في نسيم الربيع العليل.

قال تارلينج: «امممم.» ثم سألَ: «هل تعرف أيَّ شيء عن أزهار النرجس يا وايتساید؟»

هزَّ وايتساید رأسَه ضاحكًا.

«كل أزهار النرجس نرجسٌ بالنسبة إليَّ. هل هناك فرقٌ بينها؟ لا بد أن هناك فرقًا.»

أومأ تارلينج برأسه.

قال: «هذه يُطلَق عليها الرماح الذهبية، وهو نوع شائع جدًّا في إنجلترا. أما أزهار النرجس التي كانت في شقة الآنسة رايدر فهي من نوعٍ آخر يُعرَف باسم أزهار الإمبراطور.»

قال وايتساید: «حسنًا؟»

قال الآخر ببطء: «حسنًا، أزهار النرجس التي رأيتُها هذا الصباحَ والتي عُثِر عليها على صدر لاين كانت من نوع الرِّماح الذهبية.»

وركعَ بجوار حوض الأزهار وبدأ يُزيح السويقات، متفحصًا الأرضَ بحرص.

قال: «ها هو ذا.»

وأشار إلى عدد من السويقات المقطعة.

«من هنا قُطِفَت أزهارُ النرجس، يمكنني أن أُقسِم على ذلك. انظر، لقد قُطِفَت كلُّها بيدٍ واحدة. أحدُهم انحنى وقطف حَفْنة منها.»

بدا وايتساید متشككًا.

«الأولاد الأشقياء يفعلون هذه الأشياءَ أحيانًا.»

قال تارلينج: «فقط في سيقانٍ مفرَدة، ولصوص الأزهار العاديُّون يحرصون على السرقة من أجزاء مختلفة من الحوض حتى لا يَكتشف بستانيُّ المتنزه الأمرَ ويُبلغ عنه.»

«إذن فأنت تقترح ...»

«أقترح أنَّ مَن قتل ثورنتون لاين وجد أنَّ من المناسب، لسببٍ ما لا يعرفه إلا هو أو هي، أن يُزيِّن الجثة كما عُثِرَ عليها، وأنَّ الزهور جُلِبَت من هنا.»

«ليس من شقة الفتاة على الإطلاق؟»

أجابَ تارلينج على نحوٍ قاطع: «أنا متأكد من ذلك.» ثم أردفَ: «في الواقع لقد عرَفتُ ذلك هذا الصباحَ عندما رأيتُ أزهار النرجس التي أخذتَها إلى سكوتلاند يارد.»

حكَّ وايتساید أنفَه في حيرة.

وقال: «كلما تقدمَتْ هذه القضية، شعرتُ بمزيد من الحيرة. فهَا هو رجل، رجلٌ ثري، ليس له أعداءٌ أَلِدَّةٌ على ما يبدو، يُعثَر عليه مقتولًا في هايد بارك، مع ثوب نوم حريري نسائي ملفوف حول صدره، ويلبَس شبشبًا من اللباد في قدمَيه، وفي جيبه نقشٌ صيني، والأدهى من ذلك إمعانًا في تحيير الشرطة، مجموعة من أزهار النرجس على صدره. كانت هذه فِعْلَةَ امرأةٍ يا سيد تارلينج.» قال ذلك فجأة.

فوجئ تارلينج. وسألَ: «ماذا تعني؟»

قال وايتساید بهدوء: «كان وضعُ الأزهار على الرجل فِعلةَ امرأة.» ثم أردفَ موضِّحًا: «هذه الأزهار تَشي بالشفقة والرحمة، وربما بالندم.»

لاحت ابتسامةٌ متثاقلة على وجه تارلينج.

وقال: «عزيزي وايتساید، أنت تُفكر بعاطفية!» ثم أضافَ وهو يرفع عينيه: «وها هو سيدٌ نبيل منجذب إلى هذه البقعة، يبدو أنني لا ألبثُ ألتقي به ... إنه السيد ميلبرج على ما أعتقد.»

توقَّفَ ميلبرج عند رؤية المحقِّق وبدا كما لو كان يتمنَّى أن يتلاشى دون أن يُلاحظه أحد. لكن تارلينج رآه، وتقدَّم ميلبرج نحوهما بمِشيته الغريبة الصغيرة، وعلى وجهه ابتسامةٌ ثابتة، وفي عينيه النظرةُ القلقة نفسُها التي رآها تارلينج مرةً من قبل.

قال رافعًا قبعته: «صباح الخير، أيها السادة.» ثم سألَ مستوضحًا: «أتصوَّر يا سيد تارلينج أنه لم يُكتشَف أيُّ شيءٍ بعد؟»

ابتسم تارلينج وقال: «على أي حال، لم أكن أتوقعُ أن أكتشفَك أنت هنا هذا الصباح!» ثم استطردَ: «كنت أعتقد أنك مشغولٌ في المتاجر.»

تحرَّك ميلبرج باضطراب.

وقال بصوتٍ أجش: «إنني مفتون بهذا المكان. لا أستطيع الابتعادَ عنه.»

نظرَ إلى الأرض هربًا من تحديق تارلينج فيه وكرَّر السؤال.

«هل من أخبارٍ جديدة؟»

قال تارلينج بهدوء: «يجبُ أن أسألك أنا هذا السؤال.»

رفع الآخَرُ عينَيه إليه.

وسألَ: «تقصد الآنسة رايدر؟» ثم أردفَ: «لا يا سيدي، لم يتمَّ العثورُ على شيء يُدينها ولا أستطيع تتبُّعَ عُنوانها الحالي، على الرغم من أنني أجريتُ تحقيقاتٍ مجتهدةً للغاية. إنه أمر مزعج للغاية.»

كانت هناك نبرةٌ جديدة في صوته. تذكَّر تارلينج أن لاين عندما تحدَّث إلى ميلبرج من قبل، وأشار إلى أن الفتاة كانت مذنِبة في ارتكابِ جريمة اختلاسٍ ما، سارع ميلبرج إلى إنكار الاحتمال. أما الآن فأسلوبُه يشي بالعداء تجاهَ الفتاة — ربما بدرجة بسيطة، ولكنها كانت كافيةً ليُلاحظها تارلينج.

سأل المحقِّق: «هل تعتقد أن الآنسة رايدر لديها أيُّ سبب للهروب؟»

هزَّ ميلبرج كتفَيه.

قال بلا حَراك: «في هذا العالم، يُخدَع المرء باستمرار من أناسٍ وضع ثقته فيهم.»

«بعبارة أخرى، هل تشكُّ في أن الآنسة رايدر سرقت الشركة؟»

رفعَ السيد ميلبرج يدَيه المتلئتَين.

وقال: «لم أكن لأقولَ ذلك.» ثم أوضحَ: «لم أكن لأتهمَ امرأةً شابة بمثل هذه الخيانة لأصحاب العمل، وأرفضُ تمامًا أن أوجِّه أيَّ اتهاماتٍ إلى أن يُكمل مراجعو الحسابات عملَهم.» ثم أضافَ بحرص: «ما من شك في أن الآنسة رايدر كانت تتعامل بمبالغَ ماليةٍ

ضخمة، وهي من بينِ جميع الأشخاص في العمل — ولا سيَّما في قسم الحسابات — كان بإمكانها سرقةُ الشركة بدون علمي أو علمِ السيد لاين المسكين. هذا بالطبع سري.» ووضعَ إحدى يدَيه على ذراع تارلينج، وأومأ الأخيرُ برأسه.

«هل لديك أيُّ فكرة أين يمكن أن تكون؟»

مرةً أخرى هزَّ ميلبرج رأسه.

ثم قال مترددًا وهو ينظر في عينَي تارلينج: «كلُّ ما هنالك ...»

سأله المحقق بنفاد صبر: «ماذا؟»

«هناك احتمال، بالطبع، أنها ربما تكون قد سافرَت إلى الخارج. أنا لا أؤيد هذا الاحتمال، ولكنني فقط أعرفُ أنها كانت تتحدث الفرنسية بطلاقة وأنها قد سافرت من قبلُ إلى أوروبا.»

حكَّ تارلينج ذقنه متأملًا.

ثم قال بهدوء: «إلى أوروبا، ها؟» ثم تابعَ: «حسنًا في هذه الحالة سأبحث في أوروبا؛ لأنني مصرٌّ على شيء واحد، وهو أن أعثر على أوديت رايدر.» ثم وجَّه انتباهه إلى رفيقه ونكَص على عقِبَيه وترك السيد ميلبرج المتزلِّف يُحدِّق إليه.

الفصل العاشر

المرأة في آشفورد

عادَ تارلينج إلى مسكنه بعد ظهر ذلك اليوم، وهو مُتحيِّر ومرتبك. لاحظ خادمُه الصيني الجامد الشعور، لينج تشو، تلك الأعراضَ من الحيرة من قبل، ولكنِ الآن هناك شيءٌ جديد في سلوك سيده — نوعٌ من الانزعاج والقلق لم يلحظه في «صياد الرجال» من قبل.

طفق الصينيُّ بصمتٍ يُمارس عملَه بإعداد الشاي لسيده، ولم يُشِر إلى المأساة أو أيٍّ من تفاصيلها. كان قد أعدَّ المائدة بجوار السرير، وكان يتسلَّل من الغرفة بطريقته التي تُشبه القِطَّ عندما أوقفه تارلينج.

قال بالعامية: «لينج تشو، هل تتذكر في شنغهاي عندما كانت عصابة «القلوب المبهجة» ترتكب جريمةً كيف اعتادوا أن يتركوا خلفهم الهونج الخاص بهم؟»

قال لينج تشو بهدوء: «نعم يا سيدي، أتذكَّر ذلك جيدًا.» ثم استرسلَ قائلًا: «كانت كلمات معينة على ورقةٍ حمراء، وبعد فترة كان يُمكنك أن تشتريَها من المتاجر؛ لأن الناس كانت ترغب في الحصول على هذه العلامات ليُروها لأصدقائهم.»

قال تارلينج ببطء: «الكثير من الناس كانوا يحملون هذه الأشياء، وعثر على علامة «القلوب المبهجة» في جيب القتيل.»

التقى لينج تشو بعينَيِ الآخَرِ بهدوء شديد.

ثم قال: «سيدي، أليس من الممكن أن يكون الرجلُ ذو الوجه الأبيض الميتُ الآن قد أحضر مثلَ هذا الشيء من شنغهاي؟ لقد كان سائحًا، والسواح يشترون هذه الهدايا التذكاريةَ الحمقاء.»

أومأ تارلينج مرة أخرى.

وقال: «هذا ممكن.» ثم أردفَ: «لقد فكَّرتُ بالفعل في هذا الاحتمال. ومع ذلك، لماذا تكون في جيبه علامةُ «القلوب المبهجة» ليلةَ مقتله؟»

قال الصيني: «يا سيدي، ولماذا قُتِل؟»

لوى تارلينج شفتَيه في نصف ابتسامة.

قال: «وهو ما أفترضُ أنك تقصد به أنَّه سؤالٌ من الصعب الإجابةُ عنه كالآخَر.» ثم أضافَ: «حسنًا، يا لينج تشو، هذا سيَفي بالغرض.»

لم يكن قلقه الرئيسي في الوقت الحاليِّ هو هذا الأمرَ أو أيَّ دليل آخرَ جرى تقديمُه، ولكن كان ما يُقلقه حقًّا هو اكتشافَ مكان اختباءِ أوديت رايدر الحاليِّ. قلَّب المسألة في ذهنه مِرارًا وتَكرارًا. وكانت الحيرة تستبدُّ به في كل نقطة بسبب اللااحتماليةِ الجامحة للحقائق التي اكتشفَها. لماذا ترضى أوديت رايدر بقَبول وظيفةٍ بسيطة في متاجر لاين في حين أن والدتَها تعيش في رفاهية في هيرتفورد؟ مَنْ كان والدُها — ذلك الأب الغامض الذي ظهر واختفى في هيرتفورد، وما هو الدور الذي لعبه في الجريمة؟ وإذا كانت بريئة، فلماذا اختفَت تمامًا وفي ظروفٍ مريبة كهذه؟ وماذا عرَفَ سام ستاي؟ كراهيةُ الرجل للفتاة كانت غريبة. عند ذِكر اسمها تفجَّر ينبوعٌ حقيقي من السُّم، وكان تارلينج قد استشعر الأعماقَ السحيقة لكُره هذا الرجل، وشيئًا من حبه اللامحدود للقتيل.

استدار على الأريكة بنفادِ صبر ومدَّ يده للحصول على شايه، عندما سمع صوتَ طرقٍ هادئ على الباب وتسلَّل لينج تشو داخلًا إلى الغرفة.

قال: «الرجل المشرِق هنا.» وبهذه الكلمات أعلن قدوم وايتساييد، الذي جلَب إلى الغرفة شيئًا من شخصيته اليَقِظة المنتعشة التي أكسبَته الاسم المستعارَ الذي ألصقه به لينج تشو.

قال المفتش وهو يُخرج دفترَ ملاحظاتٍ صغيرًا: «حسنًا يا سيد تارلينج. أخشى أنني لم أقطَعْ شوطًا كبيرًا في طريق اكتشاف تحركات الآنسة رايدر، ولكن بقدرِ ما أمكنني معرفتُه، من خلال التحقيقات التي أُجرِيَت في مكتب حجزِ تشيرينج كروس، سافَرَت العديد من السيدات الشابات دون مرافِقين إلى أوروبا في الأيام القليلة الماضية.»

سأل تارلينج بنبرة مُحبَطة: «ألا يُمكنك مطابقةُ أيٍّ منهن مع الآنسة رايدر؟»

هزَّ المحقق رأسه. على الرغم من فشله الظاهر، فمن الواضح أنه نجح في اكتشاف شيءٍ ما أسعَده؛ لأنه لم يُبدِ أيَّ انزعاج أو ضيقٍ أثناء اعترافه بالفشل.

تساءل تارلينج بسرعة: «هل اكتشفتَ شيئًا، رغم ذلك؟» فأومأ وايتساييد برأسه.

وقال: «نعم. لحُسن حظي الشديد تمكَّنتُ من الوصول إلى قصةٍ غريبةٍ جدًّا. كنت أتحدَّث مع أحد جامعي التذاكر وأُحاول اكتشاف أيِّ شخص ربما يكون قد رأى الفتاةَ

— لديَّ صورة لها التُقِطَت مع مجموعة من العاملين في المتاجر، وكبَّرتُها، لأنها ربما تكون مفيدةً جدًّا.»

أومأ تارلينج برأسه.

تابعَ وايتساييد: «بينما كنت أتحدث إلى الرجل على البوابة، جاء مفتشُ تذاكر السفر وحكى قصة غير عادية من آشفورد. في ليلة القتل وقع حادث على متن الكونتيننتال إكسبريس.»

قال تارلينج: «أتذكَّر أنني رأيتُ شيئًا ما حول هذا الموضوع، لكن عقلي كان مشغولًا بهذه المسألة الأخرى. ماذا حدث؟»

أوضحَ وايتساييد: «سقطت شاحنةٌ أمتعة كانت واقفةً على الرصيف بين عربتَين وأخرجت إحداهما عن المسار. والراكب الوحيد الذي أُصيب كان آنسة تحمل اسمَ الآنسة ستيفنز. على ما يبدو كانت حالة ارتجاج بسيطة، وعندما توقَّف القطار جرى نقلها إلى مستشفى كوتيدج، حيث هي اليوم. على ما يبدو ابنة مفتش تذاكر السفر ممرضةٌ في المستشفى، وأخبرَت والدها أن هذه الآنسة ستيفنز قبل أن تستعيدَ وعيها، تحدثت كثيرًا عن شخصٍ يُدعى «السيد لاين» وآخرَ يُدعى «السيد ميلبرج»!»

كان تارلينج جالسًا بظهرٍ منتصبٍ الآن، يُراقب الآخرَ وقد ضاقت عيناه.

قال بهدوء: «أكمِل.»

«لم أستطِع الحصولَ إلا على القليل من مفتش تذاكر السفر، باستثناء أن ابنته كوَّنَت انطباعًا بأن السيدة لديها ضغينة ضدَّ السيد لاين، وأنها تحدَّثت على نحوٍ أكثرَ استخفافًا عن السيد ميلبرج.»

نهضَ تارلينج وخلع ثوبَ نومه الحريري قبل أن يتمكَّن الآخَرُ من أن يضع دفتر ملاحظاته. دقَّ الجرس بأصابعه، وعندما ظهر لينج تشو، أعطاه أمرًا باللغة الصينية لم يستطِع وايتساييد أن يفهمه.

قال وايتساييد: «أنت ذاهبٌ إلى آشفورد؟» ثم أردفَ: «اعتقدتُ أنك ستفعل. هل ترغب في أن آتيَ معك؟»

قال الآخر: «لا، شكرًا لك.» ثم تابعَ: «سأذهب بنفسي. لديَّ فكرة أن الآنسة ستيفنز قد تكون الشاهدةَ المفقودة في القضية وقد تُلقي مزيدًا من الضوء على مجريات الليلة قبل الماضية أكثرَ من أي شاهد آخرَ ممَّنْ قابلناهم حتى الآن.»

وجدَ أنه مضطرٌّ إلى الانتظار لمدة ساعة قبل أن يتمكَّن من ركوب قطار إلى آشفورد، وأمضى تلك الساعة بنفادِ صبر يَذْرع الرصيف الواسع جَيئةً وذَهابًا. ها هو تعقيد جديد في القضية. مَنْ هي الآنسة ستيفنز، ولِمَ تُسافر إلى دوفر ليلة القتل؟

وصلَ إلى آشفورد، ووجد بصعوبة سيارة أجرة؛ لأنها كانت تمطرُ بغزارة، وكان قد أتى دون معطف مطرٍ أو مِظلَّة.

طمأنته رئيسة تمريض مستشفى كوتيدج على نقطة واحدة.

قالت: «أوه، نعم، الآنسة ستيفنز ما زالت في المستشفى.» فتنفَّس الصُّعداء. كانت هناك فرصةٌ أن يكون قد سُمِحَ لها بمغادرة المستشفى، ومرة أخرى احتمال أن يكون من الصعب تعقُّبُها.

أرته رئيسةُ التمريض الطريق عبر ممرٍّ طويل ينتهي بجناح كبير. قبل الوصولِ إلى باب الجناح كان هناك بابٌ أصغرُ على اليمين.

قالت رئيسة التمريض وهي تفتح الباب: «وضعناها في هذا الجناح الخاص؛ لأننا اعتقدنا أنه قد تكون هناك ضرورةٌ لإجراء عملية جراحية.»

دخلَ تارلينج. كانت في مواجهته نهاية السرير، وفي ذلك السرير رقدت فتاة التقت عيناها بعينَيه. تجمَّد في مكانه كما لو كان قد أُصيب بطلقٍ ناري لأن «الآنسة ستيفنز» كانت هي نفسُها أوديت رايدر!

الفصل الحادي عشر

السيدة رايدر تعلم بمقتل ثورنتون لاين

لم يتكلَّم أيٌّ منهما لبعض الوقت. تقدَّم تارلينج نحوَها على مهل، وسحب كرسيًّا إلى جانب السرير وجلس، ولم يرفع عينَيه قطُّ عن الفتاة.

أوديت رايدر! المرأة التي كانت شرطةُ إنجلترا تبحث عنها، والتي صدر أمرٌ بالقبض عليها بتهمة القتل العمد — وهنا في مستشفًى ريفيٍّ صغير. للحظة ولحظة فقط كان تارلينج في شك. لو أنه كان خارج القضية ويُراقبها كمُشاهدٍ غيرِ مهتم، أو أن هذه الفتاة لم تقترب من حياته إلى هذا الحد، مؤثِّرة عليه هذا التأثيرَ الجديد المزعج حتى أفقدته قدرته على الحُكم السليم، لكان قد قال إنها كانت مختبئةً وإنها اختارت هذا المستشفى كملاذٍ آمن. الاسم ذاته الذي سجَّلَت نفسَها به كان اسمًا وهميًّا — وهو ما كان من الملابسات المريبة في حدِّ ذاته.

لم تُفارق عينا الفتاةِ عينَيه. وقرأ في أعماقها الصافيةِ نظرةَ رعب، فسقط قلبُه من بين أضلُعِه. لم يُدرك من قبل أن الحافز الرئيسي له في هذه القضية لم يكن اكتشافَ قاتل ثورنتون لاين، وإنما كان إثبات براءة الفتاة.

قالت بصوت مخنوق: «السيد تارلينج. أنا ... أنا لم أتوقَّع رؤيتك.»

لقد كانت عبارةً ضعيفة، وبدَت أضعفَ بالنسبة إليها لأنها تدرَّبَت بعناية شديدة على البيان الذي كانت تنوي الإدلاءَ به. لأنَّ لحظاتِ يقظتها، منذ وقوع الحادث، امتلأت بالأفكار حول هذا الرجل الجامد الملامح، وما الذي سيُفكر فيه، وماذا سيقول، وماذا، في بعض الاحتمالات، كان سيفعل.

قال تارلينج بلطف: «أفترضُ ذلك.» ثم أضافَ: «يؤسفني سماع أنكِ قد أُصِبتِ بارتجاجٍ يا آنسة رايدر.»

أومأت برأسها، وانفرَجَت شفتاها عن ابتسامة واهنة.

قالت: «لم يكن شيئًا خطيرًا.» ثم استطردت: «بالطبع، كان الأمرُ شديد الإزعاج في البداية و... ماذا تريد؟»

انطلقت الكلمات الأخيرة من فمها كالرَّصاص. لم تستطِع تحمُّلَ مهزلةِ المحادثة المهذَّبة.

سادَ الصمتُ دقيقةً ثم تحدَّث تارلينج.

قالَ على مهل: «أردتُ أن أجِدَك.» ومرةً أخرى قرأ الخوفَ في عينَيها.

قالت: «حسنًا.» تردَّدَت ثم قالت بيأسٍ وبقليل من التحدي: «هَا قد وجدتَني!»

أومأ تارلينج برأسه.

تابعَت حديثها بسرعة: «والآن بعد أن وجدتَني، ماذا تريد؟»

كانت مستلقيةً على مرفقها، ووجهُها المجهد ملتفتٌ نحوَه، وقد ضاقت عيناها قليلًا وهي تُراقبه بنظرة متجهمة وشَتْ بانفعالها.

قال تارلينج: «أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة.» وأخرجَ دفتر ملاحظات صغيرًا من جيبه، ووازنه على ركبته.

هزَّت الفتاةُ رأسَها، مما أحبطه.

قالت بهدوء أكثر: «لا أعرف إذا كنت مستعدَّةً للإجابة عن أسئلتك، ولكن لا مانع من أن تطرحها.»

كان هذا موقفًا غيرَ متوقَّع على الإطلاق. كان يستطيع أن يتفهَّم أن تكون أوديت رايدر مفزوعة. إذا كانت قد انفجرَت في نوبة بكاء، لو أنها فقدَت السيطرة على نفسها ورِباطة جأشها في خِضمِّ رعبها، لو أنها شعرت بالسخط أو بالخزي — كان من الممكن أن يتلاءم أيٌّ من هذه المشاعر مع الفكرة التي لديه عن براءتها أو تخوُّفِها من جُرمها.

سأل بصراحة: «بدايةً، لماذا أنتِ هنا تحت اسمِ الآنسة ستيفنز؟»

فكَّرَت لحظة، ثم هزَّت رأسها.

قالت بهدوء: «هذا سؤالٌ لستُ مستعدَّةً للإجابة عنه.»

قال تارلينج: «لن أضغطَ عليكِ للحظة؛ لأنني أُدرك أنه مرتبط ببعض التصرُّفات الغريبة الأخرى التي قمتِ بها يا آنسة رايدر.»

تخضَّب وجهُ الفتاة وغضَّت بصرها، وتابع تارلينج:

«لماذا غادرتِ لندن سِرًّا، دون إعطاء أصدقائك أو والدتِك أيَّ فكرة عن خُططك؟»

رفعَت نظرها إليه بجِدَّة.

«هل رأيتَ أمي؟» سألَت بهدوء، ومرةً أخرى بدا الاضطرابُ في عينيها.

قال تارلينج: «لقد رأيتُ والدتَك.» ثم أضافَ: «ورأيتُ أيضًا البرقية التي أرسلتِها إليها. هيا يا آنسة رايدر، ألن تدَعيني أُساعدك؟ صدِّقيني، هناك الكثيرُ يعتمد على إجاباتك أكثرُ من إرضاء فُضولي. يجب أن تُدركي مدى خطورة موقفك.»

رآها تزمُّ شفتَيها بإحكام وهزَّت رأسها.

قالت وهي تلتقط أنفاسها: «ليس لديَّ ما أقوله.» ثم أردفَت: «إذا ... إذا كنت تعتقد أني ...»

وتوقفَت عن الكلام.

قال تارلينج بصرامة: «أتِمي عبارتَكِ.» ثم أتمَّها هو قائلًا: «إذا كنتُ أعتقد أنكِ قد ارتكبتِ هذه الجريمة؟»

أومأت برأسها.

وضعَ دفتر ملاحظاته جانبًا قبل أن يتكلم مرة أخرى، وانحنى فوق السرير، وأخذ يدَها.

وقال بجدِّية: «آنسة رايدر، أريد مساعدتَكِ، ويُمكنني مساعدتُك على أفضلِ وجه إذا تحدَّثتِ إليَّ بصراحة. أقول لكِ إني لا أُصدق أنكِ قد ارتكبتِ هذه الفَعْلة. أقول لكِ الآن على الرغم من أن كل الملابسات تُشير إلى أنكِ مذنبة، فإن لديَّ ثقةً مطلقة بأنكِ تستطيعينَ الردَّ على الاتهام.»

اغرورقت عيناها بالدموع للحظة، لكنها عضَّت شفتَيها وابتسمت بشجاعةٍ في وجهه.

«هذا كرمٌ ولطف منك يا سيد تارلينج، وأنا أُقدِّر لك طيبتك. لكن لا يُمكنني إخبارُك بأي شيء ... لا أستطيع، لا أستطيع!» أمسكَت مِعصمَه بقوة واعتقد أنها ستنهار، ولكن مرةً أخرى، بجهد غير عادي من الإرادة التي أثارت الإعجابَ في قرارة نفسه، سيطرَت على نفسها.

قالت: «سوف تُسيء الظنَّ بي، وأنا أكره هذه الفكرة يا سيد تارلينج ... أنت لا تعرف كم أكرهُ ذلك. أريدك أن تعرف أنني بريئة، لكنني لن أبذل أيَّ جهد لإثبات أنني لست مذنبة.»

قاطعها بصرامة: «أنتِ مجنونة. إنكِ تَهْذين! يجب أن تفعلي شيئًا، هل تسمعين؟ يجب أن تفعلي شيئًا.»

هزَّت رأسها، وأغلقت يدها الصغيرةَ التي استقرَّت على يده برفق على اثنَين من أصابعه.

قالت ببساطة: «لا أستطيع. فقط لا أستطيع.»

دفعَ تارلينج الكرسيَّ بعيدًا عن السرير. كاد يئنُّ تحت وطأة اليأس من قضية الفتاة. لو أنها فقط أعطَتْه خيطًا واحدًا من شأنه أن يقودَه إلى دليلٍ آخر، لو أنها فقط احتجَّت على براءتها! غرق قلبه يأسًا، ولم يملك سوى أن يهزَّ رأسه بلا حولٍ ولا قوة.

قال بصوتٍ أجشَّ: «فلنفترِض أنكِ متهَمة بهذه الجريمة. هل تقصدين أن تُخبريني أنكِ لن تُقدِّمي دليلًا يمكن أن يُثبت براءتَكِ، ولن تقومي بأي محاولة للدفاع عن نفسك؟»

أومأت برأسها.

قالت: «أقصدُ ذلك.»

صاحَ مصعوقًا: «يا إلهي! أنتِ لا تعرفين ما تقولينَه. أنتِ مجنونة يا أوديت، مجنونة تمامًا!»

ابتسمَت لجزءٍ من الثانية فقط، وذلك لاستخدامه غيرِ الواعي لاسمها الأول.

قالت: «أنا لستُ مجنونةً على الإطلاق.» ثم أردفت: «أنا عاقلة جدًّا.»

نظرَت إليه بتمعُّن، ثم فجأةً بدَت وكأنها تنكمش إلى الخلف، وبهت لونها وهمسَت: «أنت ... أنت لديك أمرٌ بالقبض عليَّ!»

أومأ برأسه.

«وهل ستعتقلني؟»

هزَّ رأسه.

قال بإيجاز: «لا.» ثم تابعَ: «سأترك ذلك لشخصٍ آخر. لقد سئمتُ من القضية، وسأخرج منها.»

قالت ببُطء: «هو أرسلك إلى هنا.»

«هو؟»

«نعم ... أتذكر. كنتَ تعمل معه، أو أرادك أن تعمل معه.»

سأل تارلينج بسرعة: «عمَّنْ تتحدَّثين؟»

قالت الفتاة: «ثورنتون لاين.»

قفز تارلينج على قدَمَيه وحدَّق فيها.

كرَّر: «ثورنتون لاين؟» ثم سألها: «ألا تعرفين؟»

سألت الفتاة بعبوس: «أعرفُ ماذا؟»

قال تارلينج: «أنَّ ثورنتون لاين مات، وأنه صدر أمرٌ بالقبض عليكِ بتهمة قتله؟»

نظرَت إليه للحظةٍ وقد اتسعَت حدَقَتاها.

قالت لاهثة: «مات!» ثم أردفَت: «مات! ثورنتون لاين مات! أنت لا تعني ذلك، أنت لا تعني ذلك؟» تمسَّكَت بذراع تارلينج. «أخبرني أن هذا ليس صحيحًا! لم يفعلها، لم يجرُؤ على فِعلها!»

ترنحت إلى الأمام، وجثى تارلينج على ركبتيه بجانب السرير ليُمسِك بها بين ذراعَيه بينما أُغمي عليها.

الفصل الثاني عشر

سجل المستشفى

بينما كانت المرضة تَرْعى الفتاة سعى تارلينج لإجراء مقابلة مع الطبيب المسئول عن المستشفى.

قال الطبيب: «لا أعتقد أنها تُعاني مشكلة كبيرة.» ثم تابعَ حديثه: «في الواقع، كان يُمكنها الخروج من المستشفى منذ يومين أو ثلاثة أيام، ولم نسمح لها بالبقاء إلا بِناءً على طلبها. هل أفهم أنها مطلوبةٌ بخصوص جريمة قتلِ أزهار النرجس؟»

قال تارلينج بصوتٍ عالٍ: «كشاهِد.» أدركَ أنه كان يقول شيئًا مثيرًا للسخرية؛ لأن حقيقةَ صدور أمرٍ بالقبض على أوديت رايدر يجب أن تكون معروفةً بشكل عام لدى السلطات المحلية. وأُعلِنَت أوصافها بعناية، ولا بد أن تكون هذه الأوصافُ قد أتت إلى رؤساء المستشفيات والمؤسسات العامة. وأكدت الكلمات التالية للطبيب على عِلمه.

قال بجفاف: «كشاهِد، ها؟» ثم أردفَ: «حسنًا، أنا لا أريد أن أُقحِم نفسي في أسرارك، أو على الأحرى في أسرار سكوتلاند يارد، ولكنها قادرةٌ على السفر بمجرد أن تريد.»

كان هناك طَرقٌ على الباب، ودخلت رئيسة التمريض إلى مكتب الطبيب.

قالت مخاطبة تارلينج: «الآنسة رايدر ترغب في رؤيتك يا سيدي.» وأخذ المحققُ قبعته وعاد إلى الجناح الصغير.

وجد الفتاةَ أكثر تماسكًا لكنها ما زالت في بياض الموتى. كانت خارجَ السرير، جالسةً على كرسيٍّ كبير بذراعَين، وملفوفةً في ثوبِ نوم، وأشارت إلى تارلينج ليسحب كرسيًّا إلى جانبها. انتظرت حتى بعد إغلاق الباب خلف المرضة، ثم تحدَّثت.

«كان مِن السخف أن أُغمِيَ عليَّ يا سيد تارلينج، لكن الأخبار كانت فظيعةً للغاية وغيرَ متوقعة للغاية. ألن تُخبِرَني كلَّ شيء عنها؟ أنت تعرف أنا لم أقرأ أيَّ صحيفة منذ

دخلتُ المستشفى. سمعتُ واحدة من الممرضات تتحدث عن جريمة قتل أزهار النرجس ... هذه ليست ...»

ترددَت، وأومأ تارلينج برأسه. لقد كان أخفَّ قلبًا الآن، بل ربما أقربَ إلى الابتهاج. لم يكن لديه شكٌّ في أن الفتاة بريئة، وتلوَّنَت الحياة باللون الوردي.

بدأ: «قُتِل ثورنتون لاين ليلةَ الرابع عشَر. آخر مرةٍ شُوهِدَ على قيد الحياة بواسطة خادمه حوالي الساعة التاسعة والنصف مساءً. ومبكرًا في صباح اليوم التالي عُثِرَ على جثته في هايد بارك. قُتِلَ بالرصاص وبُذِلَ جهدٌ لإيقاف الجرح في صدره بربطِ ثوبٍ نسائيٍّ حريري حول جسده. ووضَع شخصٌ ما على صدره مجموعةً من أزهار النرجس.»

كرَّرت الفتاةُ متسائلة: «النرجس؟» ثم أضافت: «ولكن كيف ...»

استأنفَ تارلينج: «اكتُشِفَت سيارته على بُعد مائة ياردة من المكان. وكان من الواضح أنه قُتِلَ في مكانٍ آخَر، وجُلِبَ إلى الحديقة في سيارته، وتُرِكَ على الرصيف. في الوقت الذي اكتُشِف فيه لم يكن يرتدي معطفًا ولا صدرة، وكان على قدَمَيه شبشبٌ مصنوع من اللباد.»

قالت الفتاة الحائرة: «لكنني لا أفهم.» ثم تساءلت: «ماذا يعني ذلك؟ مَن الذي ...» وتوقفَت فجأة ورأى المحققُ شفتَيها تنغلقان بإحكام، كأنها تكبح جِماح حديثها. ثم فجأةً غطَّت وجهها بيدَيها.

همست: «أوه، هذا فظيع، فظيع!» ثم قالت: «لم أتصوَّر قطُّ، لم يخطر ببالي قطُّ ... أوه، هذا فظيع!»

وضعَ تارلينج يدَه برفق على كتفها.

قال: «آنسة رايدر، هل تشتبِهين في أنَّ أحدَهم ارتكبَ هذه الجريمة؟ هَلَّا أخبرتِني!»

هزَّت رأسها دون أن تنظر.

قالت: «لا أستطيع أن أقول شيئًا.»

حَثَّها تارلينج: «لكن ألا ترَين أنَّ الشك سوف يحومُ حولَكِ؟» ثم أردفَ: «وُجِدَت برقيةٌ بين متعلقاته تطلبُ منه الحضورَ إلى شقتكِ في ذلك المساء.»

نظرَت إليه بسرعة.

قالت: «برقية مني؟» ثم نَفت قائلة: «لم أُرسل أيَّ برقية.»

صاحَ تارلينج بحماس: «الحمد لله على ذلك!» ثم كرَّر: «الحمد لله على ذلك!»

«لكنني لا أفهم يا سيد تارلينج. أُرسِلَت برقية إلى السيد لاين تطلب منه أن يأتيَ إلى شقتي؟ هل ذهبَ إلى شقتي؟»

أومأ تارلينج.

قال بجدِّية: «لديَّ سببٌ للاعتقاد بأنه فعل. ارتُكِبَت جريمة القتل في شقتك.»

همست: «يا إلهي!» ثم قالت: «أنت لا تقصد ذلك! أوه، لا، لا، هذا مستحيل!»

باختصارٍ قصَّ عليها كلَّ اكتشافاته. كان يعلم أنه كان يتصرف بطريقة خاطئة وغير أمينة تمامًا من وجهة نظر أخلاقيات الشرطة. كان يضع في حوزتها كلَّ القرائن ويمنحُها فرصةً لدحضِ الأدلة التي جُمِعَت ضدَّها. أخبرها عن بُقَع الدمِ على الأرض، ووصف ثوب النوم الذي عُثِرَ عليه حول جثة ثورنتون لاين.

قالت ببساطة ودون تردُّد: «كان هذا ثوبي.» ثم أردفت: «أكمِل من فضلك يا سيد تارلينج.»

أخبرها ببصمات الإبهام الدامية على باب الخِزانة.

تابعَ: «ووجَدتُ على سريركِ حقيبةَ السفر نصفَ ممتلئة.»

مالت إلى الأمام، وألقت يدَيها وهي تتلمس طريقها كالأعمى.

«أوه، كم هو شرير، كم هو شرير! لقد فعلها، لقد فعلها!»

سألها تارلينج: «مَنْ؟»

أمسكَ بكتفَي الفتاة وهزَّها.

«مَنْ كان الرجل؟ يجب أن تُخبريني. حياتُكِ نفسُها تتوقف على ذلك. ألا ترَين يا أوديت، أريد مساعدتَكِ؟ أريد أن أُبرِّئ ساحتَكِ من هذه التهمة الرهيبة. أنتِ تشكِّين في شخصٍ ما. يجب أن تُعطيني اسمه.»

هزَّت رأسها وحوَّلت وجهَها المثير للشفقة نحو وجهه.

قالت بصوتٍ منخفض: «لا أستطيع أن أخبرك.» ثم تابعت: «لا أستطيع أن أقول أكثرَ من ذلك. لم أعرف شيئًا عن جريمة القتل حتى أخبرتَني. لستُ أدري ... كرهتُ ثورنتون لاين، كرهته، لكنني لم أكن لأوذيَه ... إنه أمرٌ مروِّع، مروع!»

ثم أضحَت أكثرَ هدوءًا.

قالت: «يجب أن أذهب إلى لندن في الحال.» ثم سألته: «هَلا أرجعتَني إلى هناك؟»

لاحظت إحراجه وسرعان ما فهمَت السببَ وراءه.

«أنت ... لديك أمرٌ بالقبض عليَّ، أليس كذلك؟»

أومأ برأسه.

«بتهمة القتل؟»

أومأ برأسه مرة أخرى. نظرت إليه في صمتٍ لبعض لحظات.

قالت: «سأكون جاهزة خلال نصف الساعة.» ودون أن ينبس ببنتِ شفةٍ غادر المحقِّقُ الغرفة.

عادَ إلى غرفة الطبيب ووجد ذلك الرجلَ في انتظاره بصبرٍ نافد.

قال الطبيب: «إنَّ الحديث عن أنَّ هذه الفتاة مطلوبةٌ كشاهدة هو محضُ هُراء. راودَتْني شكوكي واطلعتُ على تحذير سكوتلاند يارد الذي تلقيتُه منذ يومين. إنها أوديت رايدر، وهي مطلوبة بتهمة القتل العَمْد.»

قال تارلينج: «فهمت الأمر في المرة الأولى.» واستلقى بإرهاق على كرسي. «هل تُمانع إذا دخَّنت؟»

قال الطبيب بكل أريحية: «على الإطلاق.» ثم سأله: «أفترضُ أنك ستأخذها معك؟»

أومأ تارلينج.

قال الدكتور سوندرز: «لا أستطيع أن أتخيَّل فتاةً مثل هذه ترتكبُ جريمةَ قتل.» ثم علَّل قائلًا: «لا يبدو أنها تمتلكُ اللياقة البدنية اللازمة لتنفيذ جميع خطوات الجريمة. قرأتُ التفاصيل في جريدة «مورنينج جلوب». الشخص الذي قتَل ثورنتون لاين يجب أن يكون قد حمَله من سيارته وأرقده على العُشب، أو أينما وُجِد — وتلك الفتاة لا تستطيع حمل طفلٍ كبير الحجم.»

هزَّ تارلينج رأسه موافقًا.

وتابعَ الدكتور سوندرز: «علاوةً على ذلك، فهي لا تمتلك وجهَ قاتل. لا أقصد أن أقول إنها كونها جميلةً لا تستطيع ارتكاب جريمة، ولكنْ هناك أنواعٌ معينة من الجمال أصلُها الجمال الروحي، والآنسة ستيفنز، أو رايدر، كما أفترض أنني يجب أن أدعُوَها هي واحدة من هذا النوع.»

قال تارلينج: «أنا معك في ذلك.» ثم أردفَ مؤكِّدًا: «أنا مقتنعٌ تمامًا أنها لم ترتكب الجريمة، لكن كل الملابسات ضدها.»

رنَّ جرس الهاتف، ورفع الطبيب السماعة وتحدَّث كلمات قليلة.

قال: «مكالمة بعيدة.» موضحًا التأخيرَ في استقبال المعلومات من الطرَف الآخر للمكالمة.

تحدَّث مرة أخرى في الهاتف ثم سلَّم الجهازَ عبر المائدة إلى تارلينج.

قال: «إنها لك.» ثم أوضحَ: «أعتقد أنها سكوتلاند يارد.»

وضعَ تارلينج السماعةَ على أذنه.

قال صوت: «هذا وايتساید.» ثم أضافَ مستفسرًا: «هل هذا أنت يا سيد تارلينج؟ لقد وجدنا المسدس.»

سألَ تارلينج بسرعة: «أين؟»

جاءَ الرد: «في شقة الفتاة.»

بدَت على وجه تارلينج خيبةُ الأمل. لكن على أيِّ حال، لم يكن هذا شيئًا غيرَ متوقَّع. لم يكن لديه شكٌّ على الإطلاق في أن جريمة القتل قد ارتُكِبَت في شقة أوديت رايدر، وإذا سلَّمنا بصحة هذه النظرية، فإن التفاصيل تُصبح غيرَ مهمة، حيث لا يوجد سبب في العالم يمنع أن يوجد المسدس أيضًا بالقرب من مسرح الجريمة. في الواقع، كان الأمر سيُصبح غريبًا إذا لم يُكتشَف السلاح في هذا المكان.

سألَ: «أين كان؟»

قال وايتساید: «في صندوقِ أدواتِ الحياكةِ الخاصِّ بالسيدة.» ثم أردفَ: «دُفِعَ إلى الأسفل وغُطِّيَ بالكثير من الصوف والأغراض ونهايات الأشرطة.»

سألَ تارلينج بعد لحظة صمت: «أيُّ نوع من المسدسات هذا؟»

كان الرد: «كولت آلي.» ثم استرسل الرجل قائلًا: «كانت هناك ستُّ خراطيشَ حيةٍ في الخِزانة وواحدةٌ في الثغرة. من الواضح أن الطلق الناري قد خرج من المسدس؛ لأن الماسورة كانت لها رائحة كريهة. وجدنا أيضًا الرصاصة الفارغة في المدفأة. هل وجدتَ الآنسة ستيفنز؟»

قال تارلينج بهدوء: «نعم.» ثم أوضحَ: «الآنسة ستيفنز هي أوديت رايدر.»

سمعَ صافرةَ مفاجأةٍ على الجانب الآخر.

«هل ألقيتَ القبض عليها؟»

قال تارلينج: «ليس بعد.» ثم سأله: «هَلا قابلتَ القطار القادم من آشفورد؟ سأغادر هنا بعد نصف الساعة.»

أغلقَ السماعة واستدار إلى الطبيب.

قال الطبيب المهتم: «أفهم أنهم وجَدوا السلاح.»

أجابَ تارلينج: «نعم، لقد عثَروا على السلاح.»

قال الطبيب، وهو يفرك ذقنه بتفكير عميق: «أمر سيِّئ جدًّا.» ثم نظر إلى الآخَر بفضول وسأل: «أيُّ نوع من الرجال كان ثورنتون لاين؟»

هزَّ تارلينج كتفَيه.

قال: «أخشى أنه لم يكن أفضلَ الرجال، ولكن حتى أسوأ الرجال يحميهم القانون، والعقوبة التي تقع على القاتل ...»

ابتسم الطبيب وقال: «أو القاتلة.»

قال تارلينج باقتضاب: «قاتل.» ثم عقَّب قائلًا: «العقوبة لن تتأثر بشخصية القتيل.»

كان الدكتور سوندرز ينفخ بثباتٍ في غليونه.

وقال: «من الصعب جدًّا أن تتورط فتاةٌ مثل هذه في قضيةٍ بهذا الوصف.» ثم أضافَ: «أمر غريبٌ غايةَ الغرابة.»

نُقِرَ الباب نقرة خفيفة ثم ظهرَت رئيسة التمريض.

قالت: «الآنسة ستيفنز جاهزة.» ثم نهضَ تارلينج.

نهضَ الدكتور سوندرز معه، وذهب إلى أحد الرفوف وأنزل منه سجلًّا كبيرًا، ووضعه على طاولته، وفتحه وأخرج قلمًا.

قال وهو يُقلِّب الأوراق ويُمرِّر إصبعه على الصفحة: «يجب أن أُسجل خروجها. ها هي ... آنسة ستيفنز، ارتجاجٌ وصدمة.»

نظرَ إلى الكتابة تحت يده ثم رفعَ عينَيه إلى المحقق.

سأل: «متى ارتُكِبَت جريمة القتل هذه؟»

«في ليلة الرابعَ عشر.»

كرَّر الطبيب بتفكيرٍ عميق: «في ليلة الرابع عشر؟» ثم سأله: «في أي وقتٍ بالضبط؟»

قال تارلينج بنفادِ صبرٍ واستعجالٍ أن يُنهي حديثه مع هذا الطبيب الثرثار: «الساعة غيرُ مؤكَّدة. في وقتٍ ما بعد الحادية عشرة.»

كرَّر الطبيب: «في وقتٍ ما بعد الحادية عشرة.» ثم أردفَ: «لا يمكن أن تكون قد ارتُكِبَت قبل ذلك. متى شُوهِد الرجل آخِرَ مرة على قيد الحياة؟»

قال تارلينج بابتسامة صغيرة: «الساعة التاسعة والنصف.» ثم سأله: «لا تنوي العملَ في التحقيق الجنائي، أليس كذلك يا دكتور؟»

ابتسمَ سوندرز قائلًا: «ليس بالضبط.» ثم تابعَ: «على الرغم من أنني سعيدٌ بطبيعة الحال لوجودي في موقفٍ يسمح لي بإثبات براءةِ الفتاة.»

سألَ تارلينج بسرعة: «تُثبت براءتها؟ ماذا تقصد؟»

«جريمة القتل لا يُمكن أن تكون قد ارتُكِبَت قبل الساعة الحادية عشرة. فقد شُوهِد القتيلُ لآخِر مرة على قيد الحياة في التاسعة والنصف.»

قال تارلينج: «حسنًا؟»

كرَّر الدكتور سوندرز: «حسنًا. عند الساعة التاسعة غادر قطارُ القارب تشيرينج كروس، وفي العاشرة والنصف سُجِّل دخول الآنسة رايدر بهذا المستشفى تُعاني من صدمةٍ وارتجاج في المخ.»

للحظةٍ، لم ينبس تارلينج ببنتِ شَفة ولم يُحرك ساكنًا. وقفَ كما لو كان قد تحوَّل إلى حجر، يُحدِّق في الطبيب فاغرًا فاه. ثم تقدَّم إلى الأمام، وأمسك بيد الطبيب المذهول وصافحَها.

قال بصوتٍ أجشَّ: «هذا أفضلُ خبرٍ تلقيتُه في حياتي.»

الفصل الثالث عشر

طلقتان في جوف الليل

كانت رحلة العودة إلى لندن واحدةً من الرحلات التي سُجِّلَت تفاصيلها بواقعيةٍ فوتوغرافية في عقل تارلينج لِمَا بقي من حياته. تحدَّثَت الفتاة قليلًا، وكان هو نفسُه راضيًا بالتأمُّل وتقليب الملابسات المحيِّرة التي أحاطت برحلة أوديت رايدر في ذهنه.

في فترات الصمت ذاتِها التي تخللَت حديثَهما كان ثَمة صداقةٌ وتفاهمٌ وُديٌّ كان من الصعب على الرجل والفتاة تحديدُ كُنْهِه. هل كان يُحبها؟ لقد صُدِمَ من احتمال وقوع مثل هذه الكارثة. إنَّ الحب لم يدخل حياته قط. لقد كان حالةً افتراضية لم يضَعْها يومًا في اعتباره. كان يعرف أن الرجال يقَعون في الحب، تمامًا كما يعرف أن الرجال يُعانون من الملاريا أو الحُمَّى الصفراء، دون أن يُفكر في أن التجرِبة نفسها قد تمر به وتسيطر عليه. كان وجود رجل خجول متحفِّظ، وراء هذا القِناع القاسي أمرًا لم يتوقَّعْه أقربُ أصدقائه.

حتى إنَّ احتمال أن يكون واقعًا في حب أوديت رايدر أربكَ عقله؛ لأنه يفتقدُ إلى الخيال الكافي للاعتقاد بأن مثل هذه العاطفة يُمكن أن توجد في حياته. لم يكن يتصوَّر أن أيَّ امرأة يُمكن أن تُحبه. والآن مجرد حضورها، قربها العَطِر، يُهدئه ويُقلقه في الوقت نفسِه. ها هو محقق مسئول فعليًّا عن امرأة يُشتبَه في ارتكابها جريمةَ قتل — وكان خائفًا منها! كان يعرف أن أمر القبض عليها الموجودَ في جيبه لن يُنفَّذ على الإطلاق، وأن سكوتلاند يارد لن تمضيَ قدمًا في الادِّعاء؛ لأنه على الرغم من أن سكوتلاند يارد ترتكب بعض الأخطاء الفادحة، فهي لا تُحب أن تُعلن عن أخطائها.

كانت الرحلة قصيرةً للغاية، ولم يَعُد إلى موضوع القتل إلا حين كان القطار يتهادى ببطءٍ عبر الضباب الرقيق الذي غلَّف لندن، وبمجهود ضخم كذلك.

قال: «سوف أصحَبُكِ إلى فندقٍ لقضاء الليلة، وفي الصباح سأطلب منكِ الحضورَ معي إلى سكوتلاند يارد للتحدُّث إلى الرئيس.»

ابتسمت وقالت: «إذن أنا لستُ قيدَ الاعتقال؟»

ابتسمَ متجاوبًا معها وقال: «لا، لا أعتقدُ أنكِ قيد الاعتقال.» ثم استدركَ: «لكن أخشى أنكِ سيُطرَح عليكِ عددٌ من الأسئلة قد تُضايقك. كما ترَين يا آنسة رايدر كانت أفعالُكِ مثيرةً للرِّيبة للغاية. كنتِ ستسافرين إلى أوروبا تحت اسم مستعار، ومما لا شك فيه أن جريمة القتل ارتُكِبت في شقتك.»

ارتجفَت.

قالت بصوتٍ منخفض: «من فضلك، من فضلك لا تتحدَّث عن ذلك.»

شعر بالوحشية، لكنه كان يعلم أنَّ عليها الخضوعَ لتحقيقٍ على أيدي رجال كانوا أقلَّ احترامًا لمشاعرها.

قال متوسِّلًا: «أتمنى أن تكوني صريحةً معي.» ثم أردفَ: «أنا متأكد أنني أستطيع إخراجَكِ من كل مشاكلكِ دون أي صعوبة.»

قالت: «السيد لاين كان يكرهُني.» ثم أوضحت: «أعتقد أنني لمستُ نقطة ضعفه — هذا الرجل المسكين — ألا وهي كبرياؤه. أنت نفسك تعرف كيف أرسلَ ذلك المجرمَ إلى شقتي من أجل زرع أدلة ضدي.»

أومأ برأسه.

وسألها: «هل قابلتِ ستاي من قبل؟»

هزَّت رأسها.

قالت: «أعتقد أنني سمعتُ عنه.» ثم تابعت: «كنتُ أعرف أن السيد لاين كان مهتمًّا بمجرم، وأن هذا المجرم يعبده. ذات مرة أحضره السيد لاين إلى المتاجر وأراد أن يمنحَه وظيفة، لكن الرجل رفض. وأخبرني السيد لاين ذات مرة أن سام ستاي يمكن أن يفعلَ أي شيء في العالم من أجله.»

قال تارلينج بصراحة: «ستاي يظن أنكِ ارتكبتِ جريمة القتل.» ثم تابعَ قائلًا: «من الواضح أن لاين أخبره قصصًا عنكِ وعن كراهيتكِ له، وأنا أعتقد حقًّا أن ستاي سيكون أكثرَ خطورةً عليكِ من الشرطة، لكن لحسن الحظ فقط هذا المحتالُ الصغير قد فقدَ عقله.»

نظرَت إليه بدهشة.

سألت: «هل جُنَّ؟» ثم قالت: «المسكين! هل دفعه هذا الشيء الفظيع إلى ...»

أومأ تارلينج برأسه.

«لقد نُقِل إلى مِصحَّة المقاطعة هذا الصباح. لقد عانى نوبةً أثناء وجوده في مكتبي، وعندما أفاقَ بدا أنه فقدَ عقله تمامًا. والآن يا آنسة رايدر ستكونين صريحة معي، أليس كذلك؟»

نظرت إليه مرة أخرى وابتسمت في أسًى.

«أخشى ألا أكونَ أكثر صراحةً مما كنتُ عليه يا سيد تارلينج. إذا كنتَ تريدني أن أخبرك لماذا اتخذتُ اسم ستيفنز، أو لماذا هرَبت من لندن، فلن أستطيعَ أن أُخبرك. كان لديَّ سببٌ وجيه ...» توقفَت قليلًا، ثم تابعت: «وقد يكون لديَّ حتى الآن سببٌ أوجَهُ للهرب ...»

كادت أن تقول «مرة أخرى» لكنها أحجمت عن الكلمة.

وضعَ يده على يدها.

وقال بجدية: «عندما أخبرتُكِ عن جريمة القتل هذه، عرَفتُ من دهشتكِ وغضبكِ أنكِ بريئة. ثم تمكَّن الطبيب لاحقًا من إثبات حُجَّة غياب لا يُمكن زعزعتُها. ولكن يا آنسة رايدر عندما فاجأتُكِ، تحدثتِ كما لو كنتِ تعرفين مَن ارتكب الجريمة. لقد تحدثتِ عن رجل، وما أريده هو اسم ذلك الرجل.»

هزَّت رأسها.

وقالت ببساطة: «ذلك ما لا أستطيع أن أخبرك به أبدًا.»

حثَّها قائلًا: «لكن ألا تُدركين أنكِ قد تُتهَمين بكونكِ أحدَ الشركاء قبل الفِعل أو بعده؟» ثم أردفَ: «ألا ترين ما يعنيه هذا لكِ ولوالدتكِ؟»

أغمَضَت عينيها عند ذِكر اسم والدتها كأنها تحجب رؤيةَ أحد الاحتمالات غير السارة.

تمتمَت: «لا تتحدَّث عن ذلك، لا تتحدَّث عنه! أرجوك يا سيد تارلينج! افعل ما يحلو لك. دَعِ الشرطة تعتقلني أو تُحاكمني أو تشنقني ... لكن لا تطلب مني أن أقول المزيد؛ لأنني لن أفعل، لن أفعل!»

غاصَ تارلينج للخلف بين الوسائد، متحيرًا ومذهولًا، ولم ينبس ببنت شَفة.

كان وايتساید في انتظار القطار، وكان معه رجلان يحملان علامة «سكوتلاند يارد» على نحوٍ لا التباسَ فيه. سحبه تارلينج جانبًا وشرح الوضعَ في بضع كلمات.

قال: «في ظل هذه الظروف، لن أنفذ أمر القبض عليها.»

ووافقَ وايتساید.

وقال: «من المستحيل تمامًا أن تكون قد ارتكبَت جريمة القتل.» ثم سأل مؤكِّدًا: «أعتقد أن دليل الطبيب لا يُمكن زعزعته؟»

قال تارلينج: «بالتأكيد.» ثم تابعَ: «وقد أكَّده رئيس المحطة في آشفورد، الذي سجَّل وقتَ وقوع الحادث في يومياته، وهو نفسُه ساعد في حمل الفتاة من القطار.»

سألَ وايتساييد: «لماذا أطلقَت على نفسها اسم الآنسة ستيفنز؟» وأضافَ: «وما الذي دفعها إلى مغادرة لندن على عجلٍ بهذه الطريقة؟»

أبدى تارلينج بادرةَ يأس.

قال: «هذا أحد الأشياء التي أودُّ أن أعرفها، والشيء نفسُه الذي ترفض الآنسة رايدر أن تُعلِمَني به. سأصحبها إلى فندق، وغدًا سوف أُحضرها إلى سكوتلاند يارد، لكن أشكُّ إذا كان بإمكان الرئيس أن يقول أيَّ شيء يحثُّها على الكلام.»

سأل وايتساييد: «هل فوجِئَت عندما أخبرتَها بجريمة القتل؟ هل ذكرَت اسم أي شخص؟»

تردَّد تارلينج، ثم في واحدة من المرات القليلة في حياته، كذب.

قال: «لا، كانت مستاءةً فقط ... لم تذكر أحدًا.»

اصطحب الفتاةَ بسيارة أجرة إلى الفندق الصغير الهادئ الذي اختاره — ولم تخلُ الرحلة من الإثارة، فقد أصبح الضباب كثيفًا الآن — ورآها ثابتةً على نحوٍ مريح.

قالت عندما كانت تتأهَّب لمفارقته: «لا يسَعُني التعبير عن مبلغ امتناني على لُطفك يا سيد تارلينج، وإذا كان بإمكاني جعلُ مهمتك أسهل ... لكنتُ فعلت.»

رأى وجهها يتقلَّص ألمًا.

قالت وكأنها تُحدث نفسها: «أنا لا أفهم الأمر حتى الآن؛ يبدو وكأنه كابوس.» ثم أضافت: «بطريقةٍ أو بأخرى لا أريد أن أفهمه ... أريد أن أنسى، أريد أن أنسى!»

سألَ تارلينج: «ماذا تريدين أن تنسَي؟»

هزَّت رأسها وقالت:

«لا تسألني.» ثم أردفت متوسلة: «أرجوك، أرجوك لا تسألني!»

نزلَ على الدَّرج الكبير وهو في غاية القلق. لقد تركَ سيارة الأجرة عند الباب. ولدهشته وجدَها قد ذهبت فاستدار إلى البواب.

قال: «ماذا حدث لسيارة الأجرة التي كانت تنتظرني؟» ثم تابعَ: «أنا لم أحاسب السائق.»

قال البواب: «سيارة الأجرة يا سيدي؟» ثم أردفَ: «لم أرَها وهي تُغادر. سأسأل أحد الغلمان.»

روى مساعد البواب الذي كان في الشارع قصةً مدهشة. خرجَ سيدٌ محترم من الظلمة، وسدَّد للسيارة الأجرة، ومِن ثَمَّ اختفت السيارة. الشاهِد على هذا الحدث لم يرَ وجه الرجل. كلُّ ما كان يعرفه هو أن هذا المتبرع الغامض قد سار في اتجاهٍ معاكس للاتجاه الذي سارت فيه السيارة، واختفى في الظلام.

تجهَّمَ تارلينج.

عقَّب قائلًا: «هذا غريب.» ثم قال: «فلتُحضر لي سيارة أجرة أخرى.»

هزَّ بواب الفندق رأسه وقال: «أخشى أنك ستجد ذلك صعبًا يا سيدي.» ثم أوضحَ: «أنت ترى مدى كثافة الضباب — إنه دائمًا ما يكون كثيفًا هنا — الوقت متأخر في العام على هذا الضباب ...»

قاطعَ تارلينج محاضرته عن الأرصاد الجوية، وزرَّر معطفه، وخرجَ من الفندق في اتجاه أقرب محطة مترو أنفاق.

كان الفندق الذي اصطحبَ إليه الفتاة يقع في شارعٍ سكَني هادئ، وفي هذه الساعة من الليل كان الشارع خاليًا تمامًا، وأضاف الضباب شيئًا إلى وحدته الطبيعية.

لم يكن تارلينج على دراية جيدة بلندن تحديدًا، ولكن كانت لديه فكرةٌ تقريبية عن الاتجاه. كان الضبابُ كثيفًا، لكنه استطاع رؤية الإضاءة المشوَّشة لمصباح الشارع، وكان في منتصف الطريق بين اثنين من هذه المصابيح عندما سمع خطواتٍ هادئةً وراءَه.

كان صوتًا ضعيفًا جدًّا، واستدار بسرعة. وعلى نحوٍ غريزي، ألقى يدَيه وتنحَّى جانبًا.

سمعَ صوتَ أزيز شيء ما يمر أمام رأسه ويصطدم بالرصيف بصوت مكتوم.

قال في عقله: «كيس رمل»، وقفز على مُهاجِمه.

وبالسرعةِ نفسِها قفز مُهاجِمُه المجهول إلى الخلف. كان هناك صوتٌ يصمُّ الآذان. تم حرق قدمَيه بالكورودايت المحترق، وللحظةٍ حرَّر رقبة عدوِّه التي كانت في قبضته.

شعرَ بالمسدس مرفوعًا مرة أخرى، ولم يرَه، فسقط على الأرض بسرعة البرق كما تعلَّم في الأيام الخوالي من مدرب ياباني للجو-جيتسو. كان مقلوبًا على رأسه عندما انطلق المسدس للمرة الثانية. لقد كانت خدعة ذكية، مصمَّمة لتحقيق أقصى قوةٍ من قدمه على ركبة خَصمه. لكن الغريب الغامض كان سريعًا جدًّا بالمقارنة به، وعندما قفز تارلينج على قدمَيه كان وحده.

لكنه رأى الوجه ... كان كبيرًا وأبيضَ ويبدو عليه ملامحُ الانتقام. كانت مجردَ لمحة وتخمين، لكنه اقتنع بأنه يعرف عدوَّه.

ركضَ في الاتجاه الذي اعتقد أن القاتل المحتمَل قد سلكه، لكن الضباب كان كثيفًا وأساءَ التقدير. سمع صوت خطوات متسارعة وجرى نحوها، ليجد أنه رجلُ شرطة جذبه صوتُ الطلقات.

لم يقابل الضابطُ أحدًا.

قال تارلينج: «لا بد أنه ذهب في الاتجاه الآخر.» وأسرع يُطارده، ومع ذلك، لم يستطِع القبضَ على مُهاجِمه.

رجع ببطءٍ إلى حيث ترك الشرطيَّ يبحث على الرصيف عن دليلٍ من شأنه التعرُّفُ على معتدي الليل.

كان الشرطي يستخدم مصباحًا كهربائيًّا صغيرًا كان قد أخرجه من جيبه.

قال: «لا شيء هنا يا سيدي.» ثم أردفَ: «فقط هذه القطعة من الورق الأحمر.»

أخذَ تارلينج الورقة المربعة الصغيرة من يد الرجل وفحصها تحت ضوء المصباح — مربع أحمر كُتِبَت عليه أربع كلمات باللغة الصينية: «لقد جلب هذه المشكلةَ على نفسِه.»

كان النقشَ نفسَه الذي عُثِرَ عليه مطويًّا بعناية في جيب صدرة ثورنتون لاين في ذلك الصباح الذي وُجِد فيه مقتولًا.

الفصل الرابع عشر

البحث عن منزل ميلبرج

كان لدى السيد ميلبرج منزلٌ صغير في أحد الشوارع الصناعية في مدينة كامدن. كان شارعًا مكوَّنًا في معظمه من جدرانٍ خالية، تقطعها كلَّ مسافة بواباتٌ كبيرة، يُمكن للمرء من خلالها مشاهدةُ منظر للمصانع الهزيلة والمداخن ذات المظهر الدخاني.

كان منزل السيد ميلبرج هو المسكنَ الوحيد الموجود في الشارع، إذا استثنينا مقرات القائمين على الرعاية والمديرين، واتفق جميعُ الذين رأَوا منزله الصغير أن السيد ميلبرج كان لديه مالِكٌ جيد.

كان «المنزل» عبارةً عن كوخ منفصل على مساحة نصف فدان تقريبًا مكوَّن من طابق واحد يحتكر المساحةَ التي ربما كان سيحتلُّها امتداد المصنع. قدَّم كلٌّ من المصنع على اليمين واليسار عروضًا سخية للحصول على الأرض، ولكن مالِك منزل السيد ميلبرج كان مُصرًّا. كان هناك أشخاصٌ اقترَحوا أن مالِك منزل السيد ميلبرج كان هو السيد ميلبرج نفسُه. لكن، كيف يُمكن أن يكون ذلك؟ كان راتبُ السيد ميلبرج أقلَّ من ٤٠٠ جنيه إسترليني في السنة، وموقع الكوخ كان يساوي ٤٠٠٠ جنيه إسترليني على الأقل.

كان «كانفي كوتيدج»، كما كان يُطلَق عليه، يقف بعيدًا عن الطريق، خلف مرجٍ خالٍ من الزهور، وكان المرج نفسُه محميًّا من الاقتحام بواسطة سورٍ حديدي مرتفع أقامَه مالِكُ منزل السيد ميلبرج بتكلِفة كبيرة. للوصول إلى المنزل كان من الضروريِّ المرورُ عبر بوابة حديدية واجتيازُ مسار حجري إلى باب الكوخ.

في الليلة التي تعرَّض فيها تارلينج من سكوتلاند يارد لمحاولة القتل، فتح السيد ميلبرج البوابة ومرَّ عبرَها وأغلقها بقفل مزدوج خلفه. كان وحيدًا، وكما كانت عادته، يصفر لحنًا صغيرًا حزينًا ليس له بداية ولا نهاية. سار ببطء على الممر الحجري، وفتح

باب كوخه، ووقف لحظةً فقط على عتبة الباب ليدرس عمق الظلام المتزايد، قبل أن يُغلق الباب ويوصده بالمزلاج ويفتح النور الكهربائي.

كان في صالة صغيرة، مؤثَّثة على نحو بسيط ولكن جميل. أعلنت الرفاهيةُ عن نفسها من خلال نقوش زون المعلَّقة على الحائط، التي توقَّف السيد ميلبرج لتأمُّلِها برضًا واستحسان. علَّق معطفه وقبعته، وخلع حذاء الجالوش الذي كان يلبَسه لمنع البلل (لأن الشوارع كانت مبلَّلة)، وعبَر من بابٍ انفتح من الممرِّ داخلًا إلى غرفة معيشته. نفس الأثاث البسيط والديكور ملحوظٌ هنا. كان الأثاث جيدًا والسجادة تحت قدمَيه سميكة وفاخرة. ضغط مفتاحًا آخرَ وتوهج مشعاع كهربائي في المدفأة. ثم جلس إلى الطاولة الكبيرة، التي كانت أبرزَ قطعة أثاث موجودة في الغرفة. كانت مغطَّاة تقريبًا بأكوام صغيرة منظَّمة من الورق، معظمها محاطة بأساتك مطَّاطية. لم يُحاول أن يلمسها أو يقرأها، ولكنه جلس ناظرًا بمِزاج معتلٍّ إلى لوح الورق النشاف الخاص به، منشغِل البال وغائب الذهن.

ثم نهض مهمهمًا، وعبر الغرفة، وفتح خِزانة قديمة الطِّراز ومألوفة جدًّا، وكان الجزء العُلوي منها عبارةً عن بوفيه. أخذ من الخِزانة نحو عشَرة كتبٍ صغيرة وحملَها إلى الطاولة. كانت ذاتَ حجمٍ واحد وكان كلٌّ منها يحمل أرقام سنة. بدَت وكأنها مذكرات، وكانت كذلك بالفعل، لكنها لم تكن مذكرات السيد ميلبرج. في يوم من الأيام، صادف أن دخل إلى غرفة ثورنتون لاين في المتاجر وشاهد هذه الكتيبات مصفوفة على رفٍّ فولاذي من رفوف خزنة لاين الخاصة. كانت غرفة المالِك تُطلُّ على الطابق الأرضي من المتاجر، وكان ثورنتون لاين في ذلك الوقت مرئيًّا لمديره، ولا يمكن أن يُفاجئه تحت أيِّ ظرف من الظروف؛ لذلك أخذ السيد ميلبرج كتيبًا واحدًا وراح يقرأ باهتمامٍ أكثرَ من عاديِّ المذكراتِ الصريحةَ والمفصَّلة التي يحتفظ بها ثورنتون لاين.

كان قد قرأ بضعَ صفحاتٍ فقط في تلك المرة، ولكن لاحقًا حظي بفرصة قراءة سجلِّ العام بأكمله، واستوعبَ الكثيرَ من المعلومات التي قد تكون مفيدةً له في المستقبل، لو لم يلقَ ثورنتون لاين حتفه فجأةً على يدِ قاتلٍ مجهول.

في اليوم الذي اكتُشِفَت فيه جثة ثورنتون لاين في هايد بارك وملفوف على الجرح في صدره ثوبُ نومٍ نسائي، استطاع السيد ميلبرج لأسبابٍ تتعلق بالنَّفعية، وبالاستعانة بنسخةٍ من مفتاح خزنة لاين، أن ينقل تلك المذكراتِ إلى مكانٍ أكثرَ أمانًا. لقد احتوت على الكثير من المعلومات غير السارة للسيد ميلبرج، ولا سيَّما المذكرات الحاليَّة؛ حيث إن

ثورنتون لاين لم يُسجل تجارِبَه فحسب، بل مجريات حياته اليومية، وأفكاره الشاعرية وغيرها، وقد ذكَر بوضوحٍ شديد وبعبارات تشهيرية شكوكَه في مديره.

قدَّمت المذكراتُ إلى السيد ميلبرج قدرًا كبيرًا من مادة القراءة المثيرة للاهتمام جدًّا، والآن انتقلَ إلى الصفحة التي توقَّف عندها الليلةَ الماضية وتابع قراءتَه. كانت صفحة يسهل العثورُ عليها لأنه وضع بين الأوراق مظروفًا رقيقًا من صُنع أجنبي يحتوي على مقصوصات ورقية معينة، وبينما كان يُخرج علامة الكتاب المرتجلةَ الخاص به راودَته فكرة، وتحسَّس جيبَه بعناية. لم يكتشف الشيءَ الذي كان يبحث عنه، وبابتسامةٍ وضعَ الظرف بعناية على الطاولة وتابع القراءة عند النقطة التي كان قد توقَّف عندها.

> تناولتُ الغداءَ في فندق لندن وأخذت قيلولتي بعد الظهر. كان الطقس حارًّا على نحوٍ مخيف. كنتُ قد رتبت لزيارةِ ابنِ عم بعيد — رجل يُدعى تارلينج — يعمل في قوة الشرطة في شنغهاي، ولكنه مجتهدٌ للغاية. أمضيتُ المساء في قاعة رقص تشو هان. صادقتُ فتاة صينية صغيرة جميلة تتحدث الإنجليزية بلهجة التُّجار. سوف أراها غدًا في لينج فو. إنها تدعى «زهرة النرجس الصغيرة». وقد أسمَيتُها «نرجستي الصغيرة» ...

توقف السيد ميلبرج عن قراءته.

كرَّر: «زهرة النرجس الصغيرة.» ونظر إلى السقف وضغط على شفته الغليظة. ثم قال مرة أخرى: «زهرة النرجس الصغيرة.» وعلَت وجهه ابتسامةٌ واسعة.

كان لا يزال منشغلًا بالقراءة عندما دقَّ الجرس في الصالة. نهض على قدمَيه ووقف يستمع ودقَّ الجرس مرة أخرى. أطفأ النور، وسحب الستارة السميكة التي أخفَت النافذة جانبًا، واختلس النظرَ إلى الخارج عبر الضباب. أمكنَه في ضوء مصباح الشارع أن يُميز وجود رجلَين أو ثلاثة يقفون عند البوابة. أعاد الستارة مكانها، وأضاء النور مرة أخرى، وأخذ الكتب بين ذراعَيه واختفى بهم في الممر. كانت الغرفة في الخلف هي غرفة نومه، وذهب إليها، دون أن يردَّ على القرع المتكرِّر للجرس لمدة خمس دقائق كاملة.

في نهاية ذلك الوقت عاد للظهور مرةً أخرى، لكنه الآن كان يرتدي بيجامة، فوقها مِبذَل ثقيل. فتح الباب وعبر الممر الحجري لابسًا شبشبه وصولًا إلى البوابة.

سأل: «مَنْ بالباب؟»

قال صوت: «تارلينج. أنت تعرفني.»

قال ميلبرج متفاجئًا: «السيد تارلينج؟» ثم أردفَ: «في الواقع، هذا شرفٌ غير متوقَّع. تفضَّلوا أيها السادة، تفضلوا.»

قال تارلينج باقتضاب: «افتح البوابة.»

قال ميلبرج: «اسمحوا لي سأذهب وأحضر المفتاح.» ثم تابعَ موضِّحًا: «فأنا لم أتوقَّع زوارًا في هذه الساعة من الليل.»

دخلَ المنزل، وألقى نظرةً فاحصة حول غرفته، ثم ظهرَ من جديد، وأخذَ المفتاح من جيب مِبذَله. فقد كان هناك طَوال الوقت، إحقاقًا للحق، ولكن السيد ميلبرج كان رجلًا حذرًا ولا يُحب المجازفة.

كان تارلينج برفقة المفتش وايتساید ورجلٍ آخر افترض ميلبرج على الفور أنه محقِّق، وكان مُحقًّا في افتراضه. لم يقبل دعوته للدُّخول سوى تارلينج والمفتش، أما الرجل الثالث فبقي متأهبًا عند البوابة.

أرشدهما ميلبرج إلى غرفة جلوسه المريحة.

«لقد كنتُ في الفراش لعدة ساعات، وأنا آسفٌ لأنني أبقيتُكما لفترة طويلة.»

قال تارلينج بهدوء، منحنيًا ليتحسَّس المدفأة الصغيرة: «مِدفأتُك لا تزال دافئة.»

قهقه السيد ميلبرج.

وقال بإعجاب: «أليس ذَكاءً منك أن تكتشف ذلك؟» ثم أوضحَ قائلًا: «الحقيقة هي أنني كنت نعسانًا جدًّا عندما ذهبتُ إلى الفراش، منذ عدة ساعات، لدرجة أنني نسيتُ إيقاف تشغيل المدفأة، ولم أكتشف أنني تركتُها في وضع التشغيل إلا عندما نزلتُ للرد على الجرس.»

انحنى تارلينج والتقطَ عُقب سيجار من المدفأة. كان لا يزال مشتعلًا.

قال بطريقة جافة: «لقد كنت تُدخن أثناء نومك يا سيد ميلبرج.»

قال السيد ميلبرج بمرح: «لا، لا.» ثم أردفَ: «كنت أُدخن ذلك عندما نزلت لإدخالكما. إنني أضع سيجارًا في فمي بشكلٍ غريزي لحظة أستيقظ في الصباح. إنها عادة شائنة، وهي بالفعل واحدةٌ من رذائلي القليلة، ولقد رميتُه عندما أوقفتُ تشغيل المدفأة.»

ابتسمَ تارلينج.

قال ميلبرج، وهو يجلس في أقلِّ المقاعد راحة: «ألن تجلس؟» كانت ابتسامته اعتذارية وهو يُلوح بيده ناحيةَ الطاولة، واستدرك قائلًا: «أنت تعلم، العمل ثقيلٌ للغاية الآن بعد أن تُوفي السيد لاين المسكين. أنا أُضطَر إلى أن أُحضره إلى المنزل، بل إني أؤكد لك

يا سيد تارلينج أن هناك بعضَ الليالي التي أعمل فيها حتى ضوء النهار، لكي أجهز الأمور لمدقق الحسابات.»

سأله تارلينج ببراءة: «ألا تُمارس الرياضة أبدًا؟» ثم فصَّل أكثر: «ألا تمارس رياضة المشي ليلًا في الضباب من أجل صحتك؟»

عبسَ وجه ميلبرج وظهرت عليه الحيرة.

وقال بارتباك: «الرياضة يا سيد تارلينج؟» ثم أضافَ: «أنا لا أفهمُك بالضبط. من الطبيعي ألا أخرج في ليلةٍ مثل هذه. يا له من ضباب غير عادي في هذا الوقت من العام!»

«هل تعرف بادينجتون بأية حال؟»

قال السيد ميلبرج: «لا، باستثناء أنَّ هناك محطةً أستخدمها في بعض الأحيان. لكن ربما تشرح لي معنى هذه الزيارة؟»

قال تارلينج بعد بُرهة من الوقت: «معناها هو أنني تعرَّضتُ للهجوم الليلة من قِبَل رجل في جسمك وطولك، وأطلق النار عليَّ مرتَين في مكان قريب من هنا. ولديَّ أمر ...» ضاقت عينا السيد ميلبرج، فاستدرك تارلينج: «لديَّ أمر بتفتيش هذا المنزل.»

سألَ ميلبرج بجُرأة: «تفتيشه بحثًا عن ماذا؟»

«عن مسدس أو مسدس آلي وأي شيء آخر يُمكنني العثور عليه.»

نهضَ ميلبرج.

قال: «أنت حرٌّ في تفتيش المنزل من أوله إلى آخره.» ثم تابعَ: «ولحسن الحظ أنه منزل صغير؛ لأن راتبي لا يسمح بمنزل فخم.»

سألَ تارلينج: «هل تعيش هنا بمفردك؟»

أجابَ ميلبرج: «تمامًا.» ثم استدرك قائلًا: «تأتي امرأةٌ في الساعة الثامنة صباحًا لطهي إفطاري وترتيب المكان، لكني أنام هنا وحدي. لقد تأذيتُ كثيرًا.» وكان مستمرًّا في الحديث.

قال تارلينج بجفاف: «وسوف تتأذَّى أكثرَ بكثير.» وشرعَ يُفتش البيت.

كانت نتيجة التفتيش مخيبةً للآمال؛ لأنه لم يكن هناك أثر لأي سلاح، وبالتأكيد لم يكن هناك أثرٌ للبطاقات الورقية الحمراء التي توقَّع أن يجدَها في حوزة ميلبرج؛ لأنه لم يكن يبحث عن الرجل الذي هاجمه، وإنما عن الرجل الذي قتل ثورنتون لاين.

عادَ إلى غرفة الجلوس الصغيرة التي ترك فيها ميلبرج مع المفتش، ويبدو أنه لم ينزعج من فشله.

قال بفظاظة: «الآن يا سيد ميلبرج أُريد أن أسألك: هل سبق أن رأيتَ قطعةً من الورق مثلَ هذه من قبل؟»

أخذ بطاقةً من جيبه ونشرها على الطاولة. نظر ميلبرج بتمعُّن إلى الأحرف الصينية على الورقة الحمراء المربعة، ثم أومأ برأسه.

قال تارلينج متفاجئًا: «هل فعلت؟»

قال السيد ميلبرج برضًا عن النفس: «نعم يا سيدي.» ثم أردفَ: «سأكون كاذبًا إذا قلت إنني لم أفعل. ليس هناك ما هو أكثرُ إثارةً للاشمئزاز بالنسبة إليَّ من خداع أي شخص.»

قال تارلينج: «أستطيع تخيُّل ذلك.»

قال ميلبرج بعتاب: «أنا آسفٌ لأنك تسخر مما أقول، لكني أؤكِّد لكما أنني أكرهُ الكذب وأمقتُه.»

«أين رأيت هذه الأوراق؟»

كانت الإجابة المفاجئة: «على مكتب السيد لاين.»

«على مكتب لاين؟»

أومأ ميلبرج برأسه.

قال: «عاد الراحل السيد ثورنتون لاين من الشرق بعددٍ كبير من التذكارات، ومن بينها عددٌ من البطاقات الورقية مغطَّاة بأحرف صينيَّة مشابهة لهذه. أنا لا أفهم الصينيَّة؛ لأنني لم تسنَح لي الفرصة للذَّهاب إلى الصين. قد تكون الأحرف مختلفةً عن هذه، لكن بالنسبة إلى عيني غير الدقيقة كلُّها متشابهة.»

قال تارلينج: «هل رأيت هذه البطاقات على مكتب لاين؟» ثم سأله مستوضحًا: «إذن لماذا لم تُخبر الشرطة من قبل؟ ألا تعلم أن الشرطة تُعلِّق الكثيرَ من الأهمية على اكتشاف إحدى هذه البطاقات في جيب القتيل؟»

أومأ السيد ميلبرج.

وقال: «صحيحٌ تمامًا أنني لم أذكر هذه الحقيقة للشرطة، لكنك تفهم يا سيد تارلينج أنني كنت مستاءً جدًّا من هذا الحدث المحزن، مما أنساني كلَّ شيء آخر. كان من الممكن جدًّا أن تجد واحدة أو اثنتَين من هذه البطاقات الغريبة في هذا المنزل بالذات.» ابتسم في وجه المحقق وواصل حديثه: «كان السيد لاين مغرمًا جدًّا بتوزيع التحف التي جلبها من الشرق على أصدقائه. لقد أعطاني ذلك الخنجر الذي تراه معلقًا على الجدار الذي اشتراه

من مكان غريب في أسفاره. وربما أعطاني عينة من هذه البطاقات. أتذكَّر أنه روى لي قصة عنها، وهو ما لا يُمكنني تذكُّره في الوقت الحالي.»

كان سيواصل روايةَ ذكريات صاحب العمل الراحل، لولا أن تارلينج قاطعه، وانسحب متمنيًا له ليلة سعيدة. رافقه ميلبرج إلى البوابة الأمامية وأغلق الباب خلف الرجال الثلاثة قبل أن يرجع مرة أخرى إلى غرفة جلوسه مبتسمًا لنفسه بهدوء.

قال تارلينج: «أنا متأكد من أن الرجل كان ميلبرج.» ثم أضافَ: «أنا متأكد من ذلك قدرَ تأكُّدي من أنني واقف هنا.»

سألَ وايتساييد: «هل لديك أيُّ فكرة لماذا يريد التخلُّص منك؟»

أجابَ تارلينج: «ليست لدي أيُّ فكرة على الإطلاق.» ثم قال: «من الواضح أن المعتديَ كان رجلًا يُراقب تحركاتي وربما كان يتبع الفتاةَ ويتبعني إلى الفندق في سيارة أجرة. وعندما اختفيتُ بالداخل صرف سيارته الأجرة ثم صرف سيارتي أنا، وهو ما يُمكنه بسهولة فعله بدفع أجرة الرجل وصرفه. سيَقبل أيُّ سائق سيارة أجرة هذا دون أن يشكَّ في شيء. ثم انتظرني في الضباب وتبعني حتى وصلتُ إلى جزءٍ هادئ من الطريق، حيث حاول أولًا أن يُلقي عليَّ كيس الرمل ثم أن يُطلِق عليَّ النار.»

سألَ وايتساييد مرة أخرى: «لكن لماذا؟» ثم قال: «لنفترض أن ميلبرج كان على علمٍ بشيء عن جريمة القتل هذه — وهو أمر مشكوك فيه جدًّا — فما الفائدة التي تعود عليه من إبعادك عن الطريق؟»

أجابَ تارلينج بتجهُّم: «إذا كان بإمكاني الإجابةُ عن هذا السؤال، فبإمكاني أن أقول لك مَنْ قتل ثورنتون لاين.»

الفصل الخامس عشر

صاحبُ المسدس

اختفى كلُّ أثرٍ لضباب الليلة الماضية عندما نظر تارلينج من نافذة غرفة نومه في وقتٍ لاحق من ذلك الصباح. كانت الشوارع تغمرها أشعَّة الشمس الصفراء، وكان ثَمة رائحةٌ في الهواء جلبَت اللون إلى وجنات أهالي لندن المرضى، والضوءَ إلى عيونهم.

مدَّ تارلينج ذراعَيه وتثاءَب برفاهية العيش المطلقة، قبل أن يخلع مِبذَلَه الحريريَّ ويذهب إلى الإفطار الذي أعدَّه له لينج تشو.

صبَّ الصيني الذي كان يرتدي قميصًا أزرقَ اللون والذي وقف خلف كرسيِّ سيده الشايَ ووضع صحيفةً على أحد جانبَي الطبق وخطابات على الجانب الآخر. تناول تارلينج إفطاره في صمتٍ ونحَّى الطبق جانبًا.

قال بعامية الصين السفلى: «لينج تشو. سأفقد لقب «صياد الرجال»، فهذه القضية تُحيرني أكثرَ من أي قضية أخرى.»

قال الصيني باللغة نفسِها: «يا سيدي، هناك وقت في كل القضايا يشعر فيه الصياد أنه يريد أن يتوقف ويبكي. أنا نفسي كان لدي هذا الشعور عندما طاردتُ وو فونج، قاتِل هانكو.» ثم استدرك متفلسفًا: «لكن ذات يوم وجدتُه وهو نائم في شرفة الليل.»

واستخدم التشبيه الصيني الجميل للموت.

قال تارلينج بعد وقفة: «بالأمس وجدتُ الشابة الصغيرة.» بهذه الطريقة الغريبة أشار إلى أوديت رايدر.

قال لينج تشو وهو واقف بجوار الطاولة، ويداه مختفيتان باحترام تحت أكمامه: «قد تجد الشابة الصغيرة ومع ذلك لا تجد القاتل.» ثم أوضحَ معلِّلًا: «لأن الشابة الصغيرة لم تقتل الرجل أبيضَ الوجه.»

سألَ تارلينج: «كيف عرَفت ذلك؟» فهزَّ الصيني رأسه.

وقالَ: «الشابة الصغيرة ليست لديها القوة يا سيدي.» ثم أضافَ: «كما أنه من غير المعروف أنَّ لديها مهارةَ قيادة العرَبة السريعة.»

سألَ تارلينج بسرعة: «تقصد السيارة؟» وأومأ لينج تشو.

قال تارلينج: «يا إلهي! لم أُفكر في ذلك قطُّ.» ثم أردفَ: «بالطبع، أيًّا كان مَنْ قتل ثورنتون لاين لا بد أنه وضع جثته في السيارة وقادَ به إلى المتنزَّه. لكن كيف تعرف أنها لا تستطيع القيادة؟»

قال الصيني ببساطة: «لأنني سألت.» ثم واصلَ حديثه قائلًا: «كثيرٌ من الناس يعرفون الشابة الصغيرة في المتاجر الكبرى حيث يعيش الرجلُ ذو الوجه الأبيض، وكلهم يقولون إنها لا تقود العربة السريعة.»

فكَّر تارلينج لمدَّة.

وقال: «نعم، هذا كلام صحيح.» ثم تابعَ: «الشابة الصغيرة لم تقتل الرجل ذا الوجه الأبيض؛ لأنها كانت على بُعد أميالٍ عديدة عندما ارتُكِبَت جريمة القتل. هذا عرَفناه. السؤال هو مَنْ قتله؟»

قال لينج تشو: «صياد الرجال سوف يكتشف.»

قال تارلينج: «أشك.»

ارتدى ملابسه وذهب إلى سكوتلاند يارد. كان لديه موعد مع وايتساييد، وكانت لديه نيةُ مرافَقة أوديت رايدر لاحقًا إلى تحقيقٍ أمام مساعد المفوَّض. كان وايتساييد في سكوتلاند يارد من قبله، وعندما دخل تارلينج غرفته كان يفحص شيئًا وُضِعَ أمامه على ورقة. كان عبارة عن مسدس آليٍّ قصير الماسورة.

قال باهتمام: «مرحبًا!» ثم سأل: «هل هذا هو المسدس الذي قُتِلَ به ثورنتون لاين؟»

قال وايتساييد بابتهاج: «هذا هو السلاح. وحشٌ قبيح المظهر، أليس كذلك؟»

«أين قلت إنهم وجدوه؟»

«في أسفل صندوق أدوات الحياكة الخاص بالفتاة.»

قال تارلينج وهو يرفع المسدس عن الطاولة: «إنه يبدو مألوفًا لي.» ثم سألَ: «بالمناسبة، هل الخرطوشة لا تزال في الخزنة؟»

هزَّ وايتساييد رأسه.

قال: «لا، لقد أزلتها.» ثم أضافَ: «كما أخرجت الخزنة أيضًا.»

«أفترض أنك أرسلت الوصف والرقم إلى جميع متاجر السلاح؟»

أومأ وايتساید.

وقال: «لا یعني ذلك أنه من المحتمل أن یكون ذلك ذا فائدة كبیرة.» ثم أوضحَ: «هذا مسدَّس أمریكي الصُّنع، وما لم یُصادف أنه بِیعَ في إنجلترا فهناك فرصة ضئیلة جدًّا لاكتشاف صاحبه.»

كان تارلینج ینظر إلى السلاح، ویُقلبه في یده مِرارًا وتَكرارًا. ثم فجأة نظر إلى مؤخرته وعبَّر عن تعجبه. عندما تبع وایتساید اتجاه عینَیه، رأى أخدودَین عمیقین یسیران قطریًّا عبر القبضة.

سأل: «ما هذان؟»

«یبدوان وكأنهما رصاصتان أُطلِقتا على حامِل المسدس منذ عدة سنوات، ولكنهما لم یُصیباه وأصابا مؤخرة المسدس.»

ضحكَ وایتساید.

قال: «هل هذا واحد من استنتاجاتك یا سید تارلینج؟»

قال تارلینج: «لا، بل هذه حقیقة. فهذا المسدس ملكي!»

الفصل السادس عشر

الوريث

قال وايتساید غيرَ مصدِّق: «مسدسك؟ فتاي العزيز الطيب، لقد جُنِنت! كيف يمكن أن يكون مسدسك؟»

قال تارلينج بهدوء: «إنه مع ذلك مسدسي.» ثم أردفَ: «لقد تعرفت عليه في اللحظة التي رأيته فيها على مكتبك، واعتقدتُ أنه لا بد من وجود خطأ ما. هذان الأخدودان يُثبتان أنه لا يوجد خطأٌ على الإطلاق. لقد كان واحدًا من أصدقائي المخلصين، وقد حملته معي في الصين لمدة ستِّ سنوات.»

شهقَ وايتساید.

وسأل: «وأنت تقصد أن تُخبرني أن ثورنتون لاين قد قُتل بمسدسك؟»

أومأ تارلينج.

وقال: «إنها حقيقة مذهلة لكنها محيِّرة.» ثم تابعَ حديثه: «هذا بلا شك مسدسي وهو نفسُه الذي عُثِرَ عليه في غرفة الآنسة رايدر في كاريمور مانشنز، وليس لديَّ أدنى شك في أن ثورنتون لاين فقد حياته برصاصة أُطلقت من هذا السلاح.»

سادَ صمتٌ طويل.

قال وايتساید وهو يضع السلاح على الطاولة: «حسنًا، هذا يفوقني. في كل منعطَف يقابلني لغزٌ جديد. هذه صدمتي الثانية اليوم.»

قال تارلينج: «الثانية؟» لقد طرحَ السؤال بلا مبالاة؛ لأنَّ عقله كان مستغرقًا تمامًا في هذا الجانب الجديد والهائل من الجريمة. لقد قُتِلَ ثورنتون لاين بمسدسه! كان ذلك بالنسبة إليه أكثرَ ما يذهل في ملابسات الجريمة التي جرى الكشف عنها منذ أن دخل القضية.

قال وايتساید: «نعم، إنها ثاني صدمة.»

بصعوبة أعاد تارلينج عقله من التفكير في اللغز الجديد.

قال وايتساييد: «هل تتذكر هذا؟» فتحَ خزنته وأخرجَ مظروفًا كبيرًا أخرجَ منه برقية.

«نعم، هذه هي البرقية التي من المفترض أن تكون قد أرسلتها أوديت رايدر، تطلب من السيد لاين الحضور إلى شقتها. عُثِرَ عليها بين متعلقات القتيل عندما جرى تفتيش المنزل.»

صحَّح وايتساييد كلامه: «تحريًا للدقة، عثرَ عليها خادم لاين، رجل يُدعى كول، ويبدو أنه شخصٌ أمين للغاية، ولم يكن ضدَّه أيُّ شك. أحضرته إليَّ هنا هذا الصباح في وقت مبكر لإجراء مزيد من التحقيقات حول تحركات لاين ليلةَ القتل. إنه في الغرفة المجاورة بالمناسبة. سأحضره.»

ضغطَ الجرس وأعطى تعليماته إلى الشرطي الذي دخل مرتديًا الزيَّ الرسمي. وعلى الفور فتح الباب مرة أخرى وأدخل الضابط رجلًا محترمَ المظهر، في منتصف العمر، تبدو عليه بالكامل سِيماءُ «الخدمة المنزلية».

قال وايتساييد: «فقط أخبِر السيد تارلينج بما قلتَه لي.»

سأل كول: «بخصوص تلك البرقية يا سيدي؟» ثم قال: «نعم، أخشى أنني ارتكبتُ خطأً بسيطًا هناك، ولكنني انزعجت من هذا الحدث الفظيع وأعتقد أنني فقدتُ عقلي قليلًا.»

سألَ تارلينج: «ماذا حدث؟»

«حسنًا يا سيدي، هذه البرقية التي أحضرتُها في اليوم التالي إلى السيد وايتساييد — أي في اليوم التالي لجريمة القتل ...» أومأ تارلينج. «وعندما أحضرتها أدليتُ بأقوال كاذبة. إنه شيء لم أفعله مطلقًا في حياتي، لكن أؤكد لك أنني كنتُ خائفًا من كل هذه التحقيقات التي تُجريها الشرطة.»

سأله تارلينج بسرعة: «ما هي الأقوال الكاذبة؟»

قال الخادم وهو يلف قبعته بعصبية: «حسنًا يا سيدي، قلت إن السيد لاين فتحها. في واقع الأمر، لم تصل البرقية حتى ربع الساعة بعد مغادرة السيد لاين المكان. كنت أنا مَنْ فتحها عندما سمعتُ عن جريمة القتل. ثم، معتقدًا أني قد أتورط في مشكلة لإقحام أنفي في أعمال الشرطة، قلتُ للسيد وايتساييد إن السيد لاين قد فتحها.»

سألَ تارلينج: «ألم يتلقَّ البرقية؟»

«نعم يا سيدي، لم يتلَقَّها.»

نظرَ المحققان أحدهما إلى الآخر.

«حسنًا، ما رأيك في ذلك يا وايتسايد؟»

قال وايتسايد وهو يحك رأسه: «فليباركني الله إذا كنتُ أعرف ما يعنيه ذلك. لقد اعتمدنا على تلك البرقية لتوريط الفتاة. وهذا يكسر حلقةً كبيرة في سلسلة اتهامها.»

قال تارلينج بأسلوب يكاد يكون عدائيًّا: «هذا على افتراض أنها لم تُكسَر بالفعل.»

«وهذا بالتأكيد يُزيل التفسير الوحيد الممكن لذَهاب لاين إلى الشقة في ليلة القتل. هل أنت متأكد تمامًا يا كول من أن البرقية لم تصل إلى السيد لاين؟»

قال كول على نحوٍ قاطع: «تمامًا يا سيدي.» ثم أردفَ: «لقد استلمتُها بنفسي. بعد أن انطلق السيد لاين بسيارته ذهبتُ إلى باب المنزل لاستنشاق بعض الهواء النقي، وكنتُ أقف على أعلى درجة عندما جاءت. إذا لاحظتَ يا سيدي مكتوبٌ عليها «تم الاستلام الساعة ٩:٢٠» وهذا يعني وقت استلامها في مكتب بريد المقاطعة، وهذا على بُعد ميلَين من منزلنا. لم تكن لتتمكَّن من الوصول إلى المنزل قبل أن يُغادر السيد لاين، وكنت أموتُ خوفًا من أنكم أيها السادة الأذكياء قد ترَون ذلك.»

أقرَّ تارلينج بابتسامة: «حقًّا، لقد كنت ذكيًّا جدًّا لدرجة أنني لم أرَ ذلك.» ثم قال: «شكرًا لك يا سيد كول، هذا سيفي بالغرض.»

عندما انصرفَ الرجل، جلسَ تارلينج على كرسيٍّ أمام وايتسايد، ووضعَ يدَيه في جيبَيْه إشارةً إلى يأسه.

قال: «حسنًا، أنا في حيرةٍ من أمري.» ثم استطرد: «اسمح لي أن أسرد القضية يا وايتسايد؛ لأنها تزداد تعقيدًا لدرجة أنني كدتُ أنسى أبسطَ ملامحها. في ليلة الرابع عشر قُتِل ثورنتون لاين على يد شخصٍ أو أشخاص غير معروفين، ويُفترَض أن تكون هذه الجريمةُ قد ارتُكبت في شقة أوديت رايدر، الموظَّفة السابقة لديه، والمقيمة في كاريمور مانشنز. جرى العثورُ على بُقَع دمٍ على الأرض، وهناك أدلة أخرى، مثل اكتشاف المسدس والرصاصة الفارغة مما يُؤكِّد على دقة ذلك الاستنتاج. لم يرَ أحدٌ السيد لاين يدخل إلى الشقة أو يخرج منها. وقد عُثر على جثته في هايد بارك في صباح اليوم التالي دون معطفه أو سُترته وقد لُفَّ حول صدره ثوبُ نوم حريريٌّ نسائي، جرى التعرُّف عليه على أنه مِلكٌ لأوديت رايدر، وعُثر على منديلين خاصَّين بأوديت رايدر فوق الجرح. ونُثِر على جسده عددٌ من أزهار النرجس وكانت سيارته التي تحتوي على معطفه وصدرته وحذائه على جانب الطريق على بُعد مائة ياردة من الجثة. هل سردتُ الأحداث بشكل صحيح؟»

أومأ وايتسايد.

ابتسمَ قائلًا: «كل ما عدا ذلك هو الخطأ. فذاكرتُك لا تقبل التحدِّي.»

«كشف تفتيشُ غرفة النوم التي ارتُكِبت فيها الجريمة بصمةَ إبهام ملطَّخةً بالدماء على الخِزانة البيضاء، وحقيبة سفر نصف ممتلئة على السرير، جرى التعرُّف عليها على أنها مِلكٌ لأوديت رايدر. في وقت لاحق، عُثِر على مسدَّس مِلكي، في صندوق أدوات الحياكة الخاص بالسيدة، مُخبَّأً تحت أدوات الحياكة. الاقتراح الأول هو أن الآنسة رايدر هي القاتلة. جرى دحضُ هذا الاقتراح، أولًا من خلال حقيقة أنها كانت في آشفورد وقتَ وقوع الجريمة، فاقدة الوعي نتيجةً لحادث سكة حديد؛ والنقطة الثانية لصالحها هي أن البرقية التي اكتشفها خادم لاين، والتي يُزعَم أنها تحمل توقيعَ الفتاة، وتدعو فيها لاين إلى الحضور إلى شقتها في ساعة معيَّنة، لم يستلمها القتيل.»

نهضَ على قدميه.

قال: «تعالَ وانظر يا كريسويل.» ثم أضافَ: «هذه القضية ستدفعني إلى الجنون!»

سمعَ مساعِدُ المفوَّض كريسويل القصة التي كان على الرجلَين سردُها، وإذا كان قد ذُهِلَ فإن وجهه لم تظهر عليه أيُّ علامات اندهاش.

وقال: «يبدو أن هذه هي قضية قتل القرن.» ثم أضافَ: «بالطبع، لا يُمكنك المضيُّ قُدمًا في اتهام الآنسة رايدر، وقد كنتَ محقًّا في عدم إلقاء القبض عليها. ومع ذلك، يجب أن تبقى تحت المراقبة؛ لأنها على ما يبدو تعرف أو تظن أنها تعرف الشخصَ الذي ارتكب الجريمة. لا بد من مراقبتها ليلَ نهار، وعاجلًا أو آجلًا ستقودك إلى الرجل الذي تتمحور حوله شكوكها.»

استأنفَ حديثه وهو يلتفت إلى تارلينج: «من الأفضل أن يراها وايتسايد.» ثم أردفَ موضِّحًا: «فربما يحصل على زاوية جديدة من رؤيتها. لا أعتقد أن هناك فائدةً كبيرة من جلبها إلى هنا. وبالمناسبة يا تارلينج، كل حسابات لاين قد أُسنِدَت إلى شركةٍ ذكية من المحاسبين القانونيين — داشوود آند سولومون، من سانت ماري آكس. إذا كنت تشك في وجود أي اختلاس من جانب موظَّفي لاين، وإذا كان هذا الاختلاس وراء القتل، فربما نعرف شيئًا منهم يُعطيك دليلًا.»

أومأ تارلينج.

سألَ: «كم من الوقت سيستغرق الفحص؟»

«يعتقدون أنه سيستغرق أسبوعًا. أُخِذَت الدفاتر هذا الصباح؛ وهذا يُذكرني أن صديقك السيد ميلبرج — أعتقد أن هذا اسمه — يُقدِّم كلَّ ما في وُسعه لمساعدة الشرطة للحصول على سجلٍّ أمين للموقف المالي للشركة.»

نظرَ إلى تارلينج وحكَّ أنفه.

ثم قال بابتسامة صغيرة: «إذن لقد ارتُكِبت الجريمة بمسدسك يا تارلينج؟» ثم أضافَ: «هذا يبدو سيئًا.»

ضحكَ تارلينج: «هذا يبدو جنونًا.» ثم أردفَ: «سأرجع حالًا لأستوضح ما حدث لمسدَّسي وكيف دخل تلك الغرفة. وعلى حد عِلمي أنه كان آمنًا منذ أسبوعَين لأنني أخذته إلى تاجر أسلحة لتزييته.»

«أين تحتفظ به في العادة؟»

قال تارلينج: «في الخِزانة مع أدواتي الأمريكية.» ثم أضافَ: «لا أحد لديه إمكانيةُ الوصول إلى غرفتي باستثناء لينج تشو، الذي يكون موجودًا دائمًا عندما أكون بالخارج.»

«لينج تشو هو خادمُك الصيني؟»

ابتسمَ تارلينج: «ليس خادمًا بالمعنى الحرفي للكلمة.» ثم تابعَ موضِّحًا: «إنه أحدُ أفضلِ صيادي اللصوص الصينيِّين الذين قابلتُهم على الإطلاق. إنه رجل من أعظم الرجال نزاهةً وآتَمِنُه على حياتي.»

سألَ المفوَّض: «قُتِل بمسدسك، ها؟»

سادَ الصمت لبرهة ثم قال:

«أفترض أن تركة لاين ستذهب إلى الحكومة الملكية الدستورية؟ ليس لديه أقاربُ ولا وريث.»

قال تارلينج بهدوء: «أنت مُخطئ في هذا.»

نظرَ المفوَّض في دهشة.

وسألَ: «هل له وريث؟»

قال تارلينج بابتسامة صغيرة: «لديه ابنُ عم، علاقةٌ قريبة بما يكفي لتأهيله للحصول على ملايينِ لاين للأسف.»

سأله السيد كريسويل: «لماذا للأسف؟»

قال تارلينج: «لأنه يُصادف أن أكون أنا الوريث.»

الفصل السابع عشر

المسدس المفقود

مشى تارلينج من سكوتلاند يارد إلى الطريق الموازي للتايمز والمضاءِ بنور الشمس، والانزعاجُ بادٍ على وجهه. قال لنفسه إن القضية كانت تتجاوزه وإن ما يُقلقه هو القضية فقط وتطوُّرها. النظرة الصغيرة الغريبة التي ظهرت على وجه المفوَّض عندما علم أن وريث ثروة القتيل ثورنتون لاين كان هو المحقِّق الذي يُحقق في مقتله، وأن مسدس تارلينج قد عُثر عليه في الغرفة التي ارتُكِبت فيها جريمة القتل، لم تُثِر بداخله إلا ضحكةً مكتومة.

قال لنفسه إنَّ كون الشكِّ يحوم حوله، هو في الحقيقة عدالةٌ شعرية؛ لأنه هو نفسُه في حياته شكَّ في كثيرٍ من الرجال، الأبرياء أو الأبرياء جزئيًّا.

صعدَ الدَّرج إلى غرفته ووجد لينج تشو يلمع مخزون الفِضَّة الضئيل الذي يمتلكه تارلينج. كان لينج تشو صيادَ لصوصٍ ومحققًا رائعًا، لكنه أخذ على عاتقه أيضًا أعمالَ العناية بالراحة الشخصية لتارلينج. لم ينبس المحقق ببنتِ شفة، وتوجَّه مباشرة إلى الخزانة حيث احتفظ بأدواته الأجنبية. كانت حُلله البيضاء الرقيقةُ التي يرتديها في المناطق الاستوائية مصفوفةً ومطويَّة بعناية على أحد الرفوف. وخوذته الشمسية معلَّقة على مِشجَب، وعلى الجانب المقابل كان هناك جرابُ مسدس معلقٌ بحزام. رفع الجراب. كان فارغًا. لم يكن لديه شكٌّ في أن الجراب سيكون فارغًا، وأغلق باب الخزانة عابسًا منزعجًا.

قال بهدوء: «لينج تشو.»

قال الرجل، وهو يضع الملاعق والقفاز المطاطيَّ الذي كان يرتديه على الطاولة: «هل تتحدث إليَّ يا صياد الرجال؟»

«أين مسدسي؟»

قال الرجل بهدوء: «لقد اختفى يا صياد الرجال.»

«منذ متى اختفى؟»

قال لينج تشو بهدوء: «أفتقده منذ أربعة أيام.»

سألَ تارلينج: «مَنْ أخذه؟»

قال الرجل: «أفتقده منذ أربعة أيام.»

سادَ الصمت لفترة، ثم أومأ تارلينج برأسه ببطء.

قال: «جيد جدًّا يا لينج تشو، ليس هناك ما يُقال أكثر من ذلك.»

على الرغم من كل هدوئه الخارجي، كان عقله مضطرمًا.

هل من الممكن أن يكون شخصٌ ما قد دخل الغرفة في غياب لينج تشو — إنه لا يتذكر سِوى مناسبةٍ واحدة اجتمعا فيها بالخارج معًا، وكانت تلك الليلة التي ذهبَ فيها إلى شقة الفتاة ولينج تشو كان يتبعه.

ماذا لو لينج تشو ...؟

طردَ الفكرة من عقله واعتبرها سخيفةً على نحوٍ واضح. ما الفائدة التي يمكن أن تعود على لينج تشو من موت لاين، الذي لم يرَه سوى مرةٍ واحدة، في اليوم الذي كان ثورنتون لاين قد اتصل بتارلينج للتشاور في المتجر؟

كانت هذه الفكرة خياليةً للغاية لدرجةٍ يصعب أن يُصدقها، لكنها مع ذلك ظلت تُراوده مِرارًا وتَكرارًا وفي النهاية أرسل خادمه برسالة إلى سكوتلاند يارد، مصرًّا على إخضاع نظريته الأكثر خيالية للبحث الشامل والحيادي قدر الإمكان.

كانت الشقة مكوَّنة من أربع غرف ومطبخ. كان هناك غرفةُ نوم تارلينج وهي ملحَقة بغرفة طعامه وجلوسه. وكانت هناك الغرفة الاحتياطية التي احتفظ فيها بصناديقه وحقائب السفر الخاصة به — وفي هذه الغرفة كان يحتفظ بالمسدس — وكانت هناك غرفة صغيرة يحتلُّها لينج تشو. أعطى مُرافقه الوقت للخروج من المنزل وتمنَّى له رحلة موفقة قبل أن ينهض من الكرسي الوثير حيث كان يجلس حائرَ الفِكر ويشرع في التفتيش.

كانت غرفة لينج تشو صغيرةً وشديدة النظافة. لم يكن فيها أثاثٌ بخلاف السرير وصندوقٍ عادي مطليٍّ باللون الأسود تحت السرير. غُطِّيَت الألواح المغسولة جيدًا بقطعة ضيقة من الحصير الصيني وكان الديكور الوحيد في الغرفة عبارة عن مزهرية صغيرة حمراء اللون وُضِعَت على رف المدفأة.

عادَ تارلينج إلى الباب الخارجي للشقة وأغلقه قبل أن يواصل بحثه. إذا كان هناك أيُّ دليل على سِرِّ المسدس المسروق فسيعثر عليه هنا في هذا الصندوق الأسود. فالرجل

الصيني يحتفظ بكل ممتلكاته «بين ستة جدران» كما يقول المثل، وبالتأكيد كان الصندوق مؤمَّنًا جيدًا. مرَّت عشرُ دقائق قبل أن يتمكَّن من العثور على مفتاحٍ يفتح القفلين اللذَين أُغلِقَ بهما.

محتويات الصندوق كانت قليلة. لم تكن ملابس لينج تشو كثيرة للغاية، ولم تملأ أكثرَ من النصف بقليل. أخرج بعناية شديدةٍ الحُلة الوحيدة والقمصان الحريرية، والشبشب والمستلزمات المتنوعةَ لهندام الرجل الصيني ووصلَ بسرعة إلى الطبقة السفلى. هنا اكتشف صندوقين مطليَّين بالورنيش، لم يكن أيُّهما مقفلًا أو مربوطًا.

احتوى أولُهما على أدوات حياكة، والثاني عبارة عن مغلف صغير ملفوف بورق صيني ومربوط بعناية بشريط. فكَّ تارلينج الشريط، وفتح المغلف ولدهشته وجد لوحة صغيرة من قصاصات الصحف. كانت في أكثرها قصاصاتٍ من صحف عامية مطبوعة بالأحرف الصينية، ولكن كانت هناك واحدةٌ أو اثنتان مقطوعتَين بوضوح من إحدى الصحف الإنجليزية المنشورة في شنغهاي.

اعتقد في البداية أن هذه كانت سجلات القضايا التي شارك فيها لينج تشو، وعلى الرغم من أنه فُوجئ بأن يكون الصيني قد تحمَّل عناء جمع هذه الهدايا التذكارية — وخاصة القصاصات المكتوبة باللغة الإنجليزية — لم يظنَّ في البداية أن هناك أيَّ مغزًى من هذا العمل. كان يبحث عن دليلٍ ما — لم يكن يعرفه — يُمكِّنه من تفسير لغز المسدس المسروق إرضاءً لنفسه.

قرأ أُولى القصاصات الأوروبية بلا مبالاة، ولكن سرعان ما فتح عينيه على اتساعِهما:

> شبَّ الليلةَ الماضية شجارٌ في غرفة الشاي في هو هانز، وكان السبب على ما يبدو هو الاهتمامَ المُلِحَّ للغاية الذي أولاه زائرٌ إنجليزيٌّ إلى فتاة راقصة، تُدعى زهرة النرجس الصغيرة، التي يُطلق عليها الرجل الإنجليزي، نرجستي الصغيرة ...

لهثَ وهو يقرأ. زهرة النرجس الصغيرة! تركَ القصاصة تسقط على ركبته وتجهَّم باذلًا جهدًا هائلًا في محاولة التذكر. كان يعرف شنغهاي جيدًا. كان يعرف عالَمها السفلي الغامض وكان لديه أكثرُ من معرفةٍ عابرةٍ بغرف شاي هو هانز. كانت غرفة الشاي الخاصة بهو هانز، في الواقع، القناعَ الذي أخفى وكر الأفيون الذي كان له دور فعال في تنظيفه قبل مغادرته الصينَ بقليل. وتذكَّر بوضوح زهرة النرجس الصغيرة. لم يكن لديه أيُّ تعاملاتٍ معها في نطاق العمل؛ لأنه عندما كان يصادف ويذهب إلى غرف الشاي

الخاصة بهو هانز، كان عادةً ما يكون ذلك وراءَ طريدة أكبرَ من الراقصة الصغيرة الرشيقة.

عادَ كلُّ شيء إلى ذهنه في ومضة. لقد سمعَ رجالًا في الملهى يتحدثون عن رشاقة زهرة النرجس الصغيرة وعن أن رقصها يتمتع بشيء من الرواج بين البريطانيين الشباب المغتربين في شنغهاي.

كانت المقصوصة التالية باللُّغة الإنجليزية أيضًا وكانت تقول:

> وقعَت صباح اليوم وفاةٌ حزينة؛ إذ عُثِرَ على فتاة صينية شابة، تُدعى أوه لينج، وهي أخت المفتش لينج تشو من الشرطة المحلية، في حالةِ احتضارٍ في الفِناء خلف غرف الشاي في هو هانز. كانت الفتاة تعمل في المحل كراقصة، وهو ما كان ضد رغبة أخيها، وكانت بطلة قصة غير سارة على الإطلاق ذكرناها في هذه الأعمدة الأسبوع الماضي. ويعتقد أن هذه الفَعلة المأساوية كانت واحدةً من حالات الانتحار «لحفظ ماء الوجه» التي تُعَد شائعة جدًّا بين النساء الصينيات.

أطلقَ تارلينج صافرة طويلة هادئة تنمُّ عن فَهمه.

زهرة النرجس الصغيرة! وشقيقة لينج تشو! كان يعرف شيئًا عن الصينيين، شيئًا عن صبرهم الخارق، شيئًا عن طبيعتهم غير المتسامحة. لقد أهان هذا الرجلُ القتيلُ ليس فقط الراقصةَ الصغيرة، ولكنْ كلَّ أفراد عائلتها. في الصين تُعَد وصمةُ العار للفرد الواحد هي وصمةَ عار للجميع، وقد أدركَت الفتاة العارَ الذي ألحقته بأخيها، ومن ثَمَّ لم تجد أمامها سبيلًا، كفتاة صينية، سوى هذا السبيل.

لكن ما هي وصمة العار؟ بحث تارلينج في الصحف المحلية ووجد عدةَ روايات منمَّقة، ولم يُتفَق على أيٍّ اثنين باستثناء نقطة واحدة وهي أن رجلًا إنجليزيًّا وسائحًا قد أقرَّ بحُبه علنًا للفتاة، ليس جرحًا كبيرًا من وجهة نظر الغربي، وتدخَّل رجلٌ صيني وحدثت مشادة عنيفة.

قرأ تارلينج القُصاصات من البداية إلى النهاية، ثم وضعها بحرصٍ في المغلَّف الورقي، وأعادها إلى الصندوق المطلي بالورنيش في أسفل الصندوق. وبنفس الحرص أعاد كل الملابس التي أخرجها من الصندوق، وأعاد غلق الغطاء ودفعَه تحت السرير الحديدي. راجع بسرعةٍ كلَّ الملابسات. لقد رأى لينج تشو ثورنتون لاين وخطَّط للانتقام. كان أخذُ مسدس تارلينج أمرًا سهلًا — ولكن لماذا، إذا كان قد قتَل لاين، ترك سلاح الجريمة وراءه؟ لم يكن ذلك فِعْلَ رجلٍ مثلِ لينج تشو؛ كان هذا فِعلَ مبتدئ.

لكن كيف استدرجَ ثورنتون لاين إلى الشقة؟ وكيف عرَف ... راودَته فكرة.

قبل جريمة القتل بثلاث ليالٍ، عندما كان لينج تشو يُناقش المقابلة التي تمت في متاجر لاين، شخَّص الموقفَ على نحوٍ صحيح للغاية. عرَف لينج تشو أن ثورنتون لاين كان غارقًا في حب الفتاة وأنه يرغبها، ولن يكونَ من الغريب لو استخدم معرفته لتحقيقِ غاياته.

لكن البرقية التي قُصِد بها جلبُ لاين إلى الشقة كانت بالإنجليزية، ولينج تشو لا يُتقن تلك اللغة. مرةً أخرى، وصل تارلينج هنا إلى طريق مسدود. على الرغم من أنه قد يأتمنُ الرجل الصيني على حياته، كان مقتنعًا تمامًا بأن هذا الرجل لن يكشف كلَّ ما يعرفه، وأنه من الممكن جدًّا أن يكون لينج تشو قادرًا على تحدث الإنجليزية بنفس طَلاقة تحدثِه بلغته الأم وباللهجات الأربع الصينية.

قال تارلينج، بصوتٍ خفيض وكأنما يُحدث نفسه: «لقد استسلمت!»

كان مترددًا بشأن ما إذا كان يتعيَّن عليه انتظارُ عودةِ مرءوسيه من سكوتلاند يارد واتهامِهم له بالجريمة، أو ما إذا كان يجب أن يترك الأمور تسير في مجراها لمدة يومٍ أو يومين، وأن يُنفذ نيته في زيارة أوديت رايدر. اتخذ هذا القرار، تاركًا ملاحظةً للصيني، وبعد ربع الساعة ترجَّل من سيارته الأجرة عند باب فندق ويست سمرست.

كانت أوديت رايدر موجودة (ذلك ما كان يعرفه) وفي انتظاره. بدَت شاحبةً وكانت عيناها متعَبتَين كما لو كان النوم قد فارقها في الليلة الماضية، ولكنها استقبلَته بنصف ابتسامة كعادتها.

قال ضاحكًا: «لقد جئتُ لأخبرَكِ أنكِ ستتجنَّبين محنة الاجتماع برجال الدرجة الثالثة من سكوتلاند يارد.» وتحدَّثت عيناها عن ارتياحها.

سألها ببراءة: «ألم تخرجي في هذا الصباح الجميل؟» وهذه المرةَ ضحكت بصوتٍ عالٍ.

أجابت: «يا لك من منافق يا سيد تارلينج!» ثم أردفت: «أنت تعرف جيدًا أنني لم أخرج، وتعلمُ أيضًا أن هناك ثلاثةَ رجال من سكوتلاند يارد يُراقبون هذا الفندق وسوف يُرافقونني في أي تمشيةٍ أو نُزهة أقومُ بها.»

سألَ دون أن يُنكر التهمة: «كيف عرَفتِ ذلك؟»

قالت بسذاجة وضحكت مرةً أخرى: «لأنني خرَجت.» ثم هاجمَته قائلة: «أنت لستَ بالذكاء الذي اعتقدتُه فيك. كنت أتوقع عندما قلت إنني لم أخرج، أن أسمعَك تُخبرني أين ذهبتِ وإلى أيِّ مدًى سرتِ وما اشتريتِه بالضبط.»

قال تارلينج على الفور: «بعض خَيْط الحياكة الحرير الأخضر وستة مناديل وفرشاة أسنان.» وحملقَت فيه الفتاةُ بإحباطٍ كوميدي.

قالت: «آه بالطبع، كان يجب أن أعرفك أكثرَ من ذلك.» ثم أردفت: «إذن لديك مراقبون فعلًا؟»

قال تارلينج بمرح: «مراقبون ومتحدثون.» ثم تابعَ: «لقد أجريتُ مقابلة صغيرة مع الرجل المحترم في دهليز الفندق وزودَني بالكثير من المعلومات. هل تَبِعَكِ؟»

هزَّت رأسها.

ثم أقرَّت: «لم أرَ أحدًا، على الرغم من أنني نظرتُ بعنايةٍ شديدة. والآن ماذا ستفعل معي يا سيد تارلينج؟»

وردًّا على سؤالها، أخرج تارلينج من جيبه علبةً مستطيلة مسطحة. نظرت الفتاة متسائلة وهو يفتح الغطاء ويُخرج قطعة من البورسلين مغطاةً بطبقة رقيقة من الحبر الأسود وبطاقتَين بيضاوَين. ارتجفت يده وهو يضعهما على الطاولة، وفجأةً فهمت الفتاة.

سألته: «هل تريد بصماتي؟» فأومأ برأسه إيجابًا.

قال: «أنا فقط أكره أن أطلب ذلك منكِ، لكن ...»

قاطعته: «أرني كيف أفعل ذلك.» وأرشدها.

شعرَ بعدم الولاء — بالخيانة، وربما أدرَكَت ما يُفكر فيه؛ لأنها ضحكت وهي تمسح أطراف أصابعها الملطَّخة بالحبر.

سخرت منه: «الواجبُ واجب، والآن أخبرني هل ستُبقيني تحت المراقبة طوال الوقت؟»

قال تارلينج بجدية: «لبُرهة.» ثم أضافَ: «في الواقع، حتى نحصل على نوعية المعلومات التي نريدها.»

وضعَ العلبة في جيبه وهي تهزُّ رأسها.

قال تارلينج: «هذا يعني أنكِ لن تُخبرينا بأي شيء.» ثم تابعَ: «أعتقد أنكِ ترتكبين خطأً فادحًا، لكنني في الحقيقة لا أعتمد على ما ستقولينه. أنا أعتمد كليًّا على ...»

سألته بفضول بينما تردَّد: «على ماذا؟»

قال تارلينج: «على ما سيقوله لي الآخرون.»

«الآخرون؟ مَن الآخَرون؟»

التقت عيناها الثابتتان بعينيه.

قال تارلينج: «كان هناك سياسيٌّ مشهور قال «انتظر وسترى»، وهي نصيحة سأطلب منكِ اتباعها.» ثم أضافَ: «الآن، سأقول لكِ شيئًا يا آنسة رايدر. غدًا سوف

أسحب مراقبيكِ، على الرغم من أنني يجب أن أنصحكِ بالبقاء في هذا الفندق لفترة. من الواضح أنه من المستحيل أن تعودي إلى شقتك.»

ارتجفت الفتاة.

قالت بصوتٍ منخفض: «لا تتحدث عن ذلك.» ثم استطردت: «ولكن هل من الضروريِّ أن أبقى هنا؟»

قال وهو يتحدث ببطء: «هناك بديل.» وواصل وهو ينظر إليها بثبات «وهو أنَّ عليكِ أن تذهبي إلى منزل والدتك في هيرتفورد.»

نظرت إليه بسرعة.

وقالت: «هذا مستحيل.»

صمتَ للحظة.

ثم قال: «لماذا لا تجعليني موضعَ سركِ يا آنسة رايدر؟» وسألها: «أنا لن أخون ثقتَكِ أبدًا. لِمَ لا تقولين لي شيئًا عن أبيكِ؟»

نظرَت إليه بذهول وقالت: «أبي؟» ثم سألته متحققة: «هل قلت أبي؟»

أومأ برأسه إيجابًا.

قالت الفتاة: «لكن ليس لديَّ أب.»

«هل لديكِ ...» وجد صعوبة في صياغة كلماته وبدا له أنها يجب أن تكون قد خمَّنَت ما سيأتي. سألها بعد فترة: «هل لديكِ حبيب؟»

ردَّت عليه بصوت به نبرةُ ترفُّع: «ماذا تقصد بذلك؟»

قال تارلينج بثبات: «أقصد هذا.» ثم سألها: «مَنْ هو السيد ميلبرج بالنسبة إليكِ؟»

رفعت يدها إلى فمها ونظرت إليه وقد اتسعت عيناها من الضيق، ثم قالت بصوت قوي:

«لا شيء!» ثم كرَّرت مؤكِّدة: «لا شيء، لا شيء!»

الفصل الثامن عشر

البصمات

سارَ تارلينج ببطءٍ على الرصيف العريض لطريق إدجوير في طريقه من فندق الفتاة إلى شقته، واضعًا يدَيه في جيوبه، مُطأطئ الرأس، منحنيَ الكتفَين. غَضَّ الطرْفَ لسببٍ وجيهٍ عن حقيقة مهمة؛ ألا وهي أنه هو نفسه كان مشتبَهًا فيه. هو، المحقق غير المعروف نسبيًّا من شنغهاي الذي كان بسبب علاقته بثورنتون لاين، والأكثر من ذلك بسبب العثور على مسدسه الخاص في مسرح المأساة، موضعَ بعضِ الشكوك من جانب السلطات العليا التي لن تتغاضى بالتأكيد عن الاقتراح أنه بريء من أيِّ ارتباط بالجريمة لأنه صادفَ أن يكون مشاركًا في القضية.

كان يعلم أن آلية سكوتلاند يارد المعقدة بأكملها تعمل، وتعمل بأقصى سرعة لتوريطه في المأساة. وعلى الرغم من أن هذا العمل ربما يكون صامتًا وخفيًّا، فإنه مؤكَّد. ابتسم قليلًا، وأخرج نفسه من فئة المشتبَه فيهم.

كان أول وأهم المشتبَه فيهم أوديت رايدر. إنه لم يستطِع أن يتصوَّرَ للحظةٍ أن ثورنتون لاين قد أحبَّها. لم يكن ثورنتون لاين من نوع الرجال الذي يُحب. بل كان يرغب، وقليل جدًّا من النساء أحبطَه. كانت أوديت رايدر استثناءً. علم تارلينج فقط عن المشهد الذي حدث بين لاين والفتاة في اليوم الذي استُدعي فيه، ولكن لا بد أنه كان هناك العديد من المقابلات المؤلمة الأخرى، مؤلمة للفتاة، ومهينة للمليونير المقتول.

على أي حال، إنها ليست أوديت، لحُسن الحظ. اعتاد على أن يُفكر فيها كـ «أوديت»، وهو ما كان اكتشافًا مسليًا بالنسبة إليه. يمكنه استبعادها؛ لأن من الواضح أنها لا يمكن أن تكون في مكانين في وقتٍ واحد. عندما عُثِرَ على ثورنتون لاين في هايد بارك، وقد رُبِطَ حول جرحه ثوب نوم أوديت رايدر، كانت الفتاة نفسُها مستلقيةً في مستشفًى في آشفورد على بُعد خمسين ميلًا.

لكن ماذا عن ميلبرج، ذلك الرجل المداهن المتزلِّف؟ تذكَّر تارلينج حقيقة أنه قد أرسله قريبُه المتوفَّ للاستفسار عن أسلوب معيشة ميلبرج، وأن ميلبرج كان محلَّ شك في أنه سرق الشركة. لنفترض أن ميلبرج قد ارتكب الجريمة، لنفترض أنه لإخفاء عمليات الاختلاس التي ارتكبها؛ قتل صاحبَ العمل رميًا بالرصاص، كان في هذا الافتراض حَيْدٌ عن المنطق؛ لأن وفاة ثورنتون لاين يُحتمَل أن تُعجل اكتشاف اختلاسات المدير — سيكون هناك تدقيقٌ للحسابات وسينكشف كلُّ شيء. ميلبرج نفسُه لم يكن غافلًا عن هذه الحُجة لصالحه، كما سيتضح.

في مقابل ذلك، فكَّر تارلينج أنه من المعروف أن المجرمين يرتكبون أفعالًا حمقاء. ولا يضعون في اعتبارهم العواقبَ الفورية لأفعالهم، ورجلٌ مثل ميلبرج في يأسه، قد يتغاضى في جنونه الشديد عن احتمال انكشافِ جريمته من خلال الفِعل نفسه الذي ارتكبه للتستُّر على نفسه.

وصلَ إلى نهاية طريق إدجوير، وكان يستدير إلى زاوية الطريق، ناظرًا عبر القوس الرخامي، عندما سمع صوتًا يُحيِّيه فاستدار، ورأى سيارة أجرة تنعطف بعنف إلى حافة الرصيف.

قفزَ منها المفتش وايتساييد.

قال: «كنتُ قادمًا للتو لرؤيتك.» ثم أردفَ: «ظننتُ أن مقابلتك مع الفتاة الشابة ستكون أطول. فقط انتظِر لحظة، حتى أدفع للسائق ... بالمناسبة، رأيتُ خادمك الصيني واستنتجتُ أنك أرسلته إلى سكوتلاند يارد في مهمة.»

عندما عادَ، التقى بعينَي تارلينج وابتسمَ بتعاطف.

قال بصراحة: «أعرفُ ما يدور في ذهنك، ولكن حقيقةً الرئيس يعتقد أنها ليست أكثرَ من مصادفة استثنائية. أفترضُ أنك أجريتَ استفسارات حول مسدسك؟»

أومأ تارلينج برأسه إيجابًا.

«وهل يُمكنك اكتشافُ كيف أصبح في حوزة ...» وصمت للحظةٍ ثم واصلَ حديثه: «قاتِل ثورنتون لاين؟»

قال تارلينج: «لديَّ نظرية، نصف مُتبلورة، إنها صحيحة، لكنها لا تزال مجرد نظرية.» ثم استدركَ قائلًا: «في الواقع، إنها ليست نظريةً بقدر ما هي فرضية.»

ابتسمَ وايتساييد مرة أخرى.

«إنَّ هذا الفارق الضئيل في مسألة المصطلحات المنطقية لم يكن له أيُّ تأثير على الإطلاق في حياتي الشابة، ولكني سأعتبر أنَّ لديك حَدْسًا.»

دون أيِّ تأجيل آخر، أخبر تارلينج الآخر بالاكتشاف الذي وجده في صندوق لينج تشو، وقصاصات الصحف، ووصف له سلوكَ الراحل السيد لاين في شنغهاي، وعاقبتَه المأساوية.

استمعَ وايتساید في صمت.

قال أخيرًا عندما انتهى تارلينج: «قد يكون هناك شيءٌ في هذا الجانب.» ثم أردفَ: «لقد سمعتُ عن لينج تشو هذا. إنه رجل شرطة ماهرٌ جدًّا، أليس كذلك؟»

قال تارلينج على الفور: «الأفضل في الصين، لكنني لن أتظاهرَ أني أفهمُ عقله. هذه هي الحقائق. المسدس كان في خِزانتي والشخص الوحيد الذي يمكنه الوصول إليه كان لينج تشو. الحقيقة الثانية والأكثر أهمية وهي الدافِع، أن لينج تشو كان لديه كلُّ الأسباب لكراهية ثورنتون لاين، الرجل الذي كان مسئولًا على نحوٍ غيرِ مباشر عن موتِ أخته. لقد كنتُ أُقلب الأمر في ذهني وأتذكر الآن أن لينج تشو كان صامتًا بطريقةٍ غير عادية بعد أن رأى لاين. لقد اعترف لي أنه ذهب إلى متجر لاين، وأنه في الحقيقة كان يُجري استفساراتٍ هناك. صادف أننا كنا نُناقش إمكانيةَ ارتكاب الآنسة رايدر جريمة القتل وأخبرني لينج تشو أن الآنسة رايدر لم تكن قادرةً على قيادة سيارة، وعندما سألتُه عن كيفية معرفته بذلك، أخبرني أنه أجرى عدة استفسارات في المتجر. وهذا ما لم أكن أعرفُ عنه شيئًا.»

وتابعَ تارلينج: «ثَمة حقيقة أخرى مثيرة للفضول.» ثم قال: «كان لديَّ انطباع دائم بأن لينج تشو لا يتحدث الإنجليزية، باستثناء القليل من الكلمات من لهجة التجَّار التي يلتقطها الصينيون من خلال الاختلاط بالأجانب. ومع ذلك، فقد أجرى استفساراته في متجر لاين بين الموظفين، واحتمال أن يعثر على عاملةٍ في المتجر تتحدث الصينيةَ الكنتونية هو واحد إلى مليون!»

قال وايتساید: «سأضع رجلَين لمراقبته.» لكن تارلينج هزَّ رأسه رافضًا.

قال: «سيكون ذلك مضيعةً لجهد رجلَين؛ لأن لينج تشو يمكن أن يقودهما إلى حيث يريد. أقول لك إنه أفضلُ من أي شرطيٍّ لديك في سكوتلاند يارد، ولديه موهبةٌ فَذَّة للتلاشي من أمام عينيك تمامًا.» وأضافَ بجِدية: «اترك لينج تشو لي، أنا أعرف طريقة التعامل معه.»

قال وايتساید متأملًا وهو يُكرِّر العبارة التي اقتبسها تارلينج من الصحف: «زهرة النرجس الصغيرة! كان هذا اسم الفتاة الصينية إذن؟ يا إلهي إن هذا أكثرُ من مجرد مصادفة، ألا تعتقد ذلك يا تارلينج؟»

قال تارلينج: «قد يكون كذلك، أو لا يكون. لا توجد كلمة مثل النرجس باللغة الصينية. في الحقيقة، أنا لست متأكدًا من أن النرجس من الزهور التي تُزرَع في الصين على الإطلاق، على الرغم من أن الصين بلدٌ ضخم جدًّا. لقد كانت الفتاة تُدعى «زهرة النرجس الصغيرة» ولكن كما قلت، قد يكون الأمر أكثرَ من مصادفة أن الرجل الذي أهانها يُقتَل، بينما أخوها موجود في لندن.»

لقد عبَرا الطريق العريض بينما كانا يتحدثان ومرَّا في هايد بارك. فكَّر تارلينج أن هذا المكان المفتوح يُمارس عليه الجاذبيةَ نفسَها التي يُمارسها على السيد ميلبرج.

سألَ فجأة متذكرًا أن وايتساید كان في طريقه إلى الفندق عندما التقيا: «لِمَ كنتَ تريد رؤيتي؟»

«أردتُ أن أُقدم إليك آخِرَ تقرير عن ميلبرج.»

ميلبرج مرة أخرى! كل المحادثات، كل الأفكار، كل القرائن تؤدي إلى ذلك الرجل الغامض. لكن ما كان على وايتساید أن يقوله لم يكن مثيرًا إلى حدٍّ كبير. كان ميلبرج مراقَبًا ليلَ نهار، وسجلُّ أفعاله كان عاديًّا جدًّا.

ولكن من الأحداث العادية تُولَد الأدلة الكبيرة.

قال وايتساید: «لا أعرف ما يتوقعه ميلبرج بخصوص سير التحقيق في حسابات لاين، ولكن من الواضح أنه مرتبط أو يُتوقَّع أن يكون مرتبطًا ببعض الأعمال الأخرى.»

سألَ تارلينج: «ما الذي جعلك تقول هذا؟»

أجابَ وايتساید: «حسنًا، لقد كان يشتري دفاتر الأستاذ.» وضحكَ تارلينج.

وقال بخفةِ ظل: «لا يبدو أن هذا إجراءٌ مسيء للغاية. أي نوع من دفاتر الأستاذ؟»

«تلك الأشياء الثقيلة التي تُستخدَم في المكاتب الكبيرة. كما تعلم، هذا النوع من الأشياء الذي يستغرق من رجل واحد كلَّ وقته لرفعه. اشترى ثلاثة من متجر روباك، في طريق المدينة، وأخذها إلى منزله في سيارة أجرة.» ثم قال وايتساید بجدية: «الآن نظريتي هي أن هذا الشخص ليس مجرمًا عاديًّا، إذا كان مجرمًا في الأساس. قد يكون الأمر أنه كان يحتفظ بنسخةٍ مكرَّرة من الدفاتر.»

قاطعَه تارلينج: «هذا غيرُ مرجَّح، وأنا أقول هذا مع كامل الاحترام لحُكمك يا وايتساید. سيتطلب الأمر أن يكون أكثرَ من مجرم عادي ليحمل كلَّ تفاصيل أعمال لاين العملاقة في رأسه، ومن الممكن جدًّا أن تكون نظريتُك الأولى صحيحة؛ أي إنه يفكر إما في الانضمام إلى شركة أخرى أو في بدء عمل جديد خاصٍّ به. والافتراض الثاني هو

الأرجح. على أية حال، ليست جريمةً أن تمتلك دفتر أستاذ، أو حتى ثلاثة. بالمناسبة، متى اشترى هذه الدفاتر؟»

قال وايتسايد: «بالأمس في وقت مبكر من الصباح، قبل فتحِ متجر لاين. وكيف سارت مقابلتك مع الآنسة رايدر؟»

هزَّ تارلينج كتفَيه. شعر بتردد غريب في مناقشة أمر الفتاة مع ضابط الشرطة، وأدرك كم هو أحمقُ لأنه سمح لجمالها بأن يُخدِّره.

قال بعد قليل: «أنا مقتنعٌ بأنها، أيًّا كان مَنْ تشتبهُ فيه، فإنها لا تعرف شيئًا عن جريمة القتل.»

«إذن، فهي بالفعل تشتبهُ في شخصٍ ما؟»

أومأ تارلينج برأسه.

«مَنْ؟»

تردد تارلينج مرة أخرى.

قال: «أعتقد أنها تشك في ميلبرج.»

وضعَ يده في سترته من الداخل وأخرجَ علبة من جيبه، وفتحَها، وأخرجَ منها البطاقتَين اللتين تحملان بصمات أصابع أوديت رايدر. تطلَّب الأمر منه إرادةً غير عادية ليفعل ذلك، على الرغم من أنه كان سيجد صعوبة في شرح الحِيَل التي كانت تلعبها عليه عواطفُه.

قال: «هذه هي البصمات التي أردتَها.» ثم سألَه: «هل ستأخذها؟»

أخذَ وايتسايد البطاقات بإيماءة وفحص اللطخات الحبرية، وظلَّ قلبُ تارلينج متوقفًا طوال الوقت؛ لأن المفتش وايتسايد كان السُّلطةَ المعترَفَ بها في إدارة استخبارات الشرطة على بصمات الأصابع وخصائصها.

كان الفحص طويلًا.

تذكَّر تارلينج المشهد لسنوات بعد ذلك. الطريق المضاء بنور الشمس، المشاة المتسكِّعون، العرَبات التي تسير على مهل على طول الطريق، والبنيان العسكري الصارم لوايتسايد وهو يكاد يقف انتباهًا، عيناه الثاقبتان تُحدقان في البطاقتين الصغيرتين اللتين يحملُهما بأطراف أصابع يديه. ثم قال:

«أمر مثير للاهتمام.» وأردفَ: «لاحِظ أنَّ البصمتين متماثلتان تقريبًا، وهو أمر غير عادي على الإطلاق. مثير للاهتمام جدًّا.»

سألَه تارلينج بنفادِ صبر، وبأسلوب فظ إلى حَدٍّ ما: «ما رأيُك؟»

قال وايتساید مرة أخرى: «حقًّا مثير للاهتمام، لكنَّ كلتَيهما لا تطابقان بصمة الإبهام التي كانت على الخِزانة.»

قال تارلينج بحرارة: «حمدًا لله على ذلك! حمدًا لله على ذلك!»

الفصل التاسع عشر

لينج تشو يقول الحقيقة

احتلت شركة «داشوود آند سولومون» مبنًى ضيقَ الواجهة في قلب مدينة لندن. وكانت ذاتَ سُمعة عظيمة، وكان عملاؤها يعتبرونها فُضلى الشركات في بريطانيا. كلا الشريكَين حصل على لقب فارس، وكان السير فيليكس سولومون هو مَن استقبل تارلينج في مكتبه الخاص.

كان السير فيليكس رجلًا طويل القامة وجميل الطلعة، تجاوز منتصف العمر، جافَّ السلوك ولكن مع حُسن الخلق، وكان ينظر من فوق نظارته أثناءَ دخول المحقق.

قال وهو يُلقي نظرة خاطفة على بطاقة تارلينج: «سكوتلاند يارد، ها؟ حسنًا أستطيع أن أمنحَك خمس دقائق بالضبط يا سيد تارلينج. أفترض أنك أتيتَ لتراني بشأن حسابات لاين؟»

أومأ تارلينج.

قال السير فيليكس: «لم نتمكَّن من البدء فيها حتى الآن، على الرغم من أننا نأمُل في فحصها غدًا. إننا مشغولون للغاية الآن، وكان علينا تعيينُ موظفِين إضافيِّين للتعامل مع هذا العمل الجديد الذي كلَّفَتنا به الحكومة — بالمناسبة، أنت تعلم أننا لسنا محاسِبي لاين. إنهم ميسرز بيربريك آند ستور، ولكننا أخذنا هذا العمل بناءً على طلب السيد بيربريك، الذي يرغب بطبيعة الحال في الحصول على تحقيقٍ مستقل، حيث يبدو أن هناك بعضَ الشكوك حول سمعة أحد الموظفين. هذا، إلى جانب الموت المأساوي للسيد لاين، الذي جعل مِن الضروري استدعاءَ شركة خارجية لفحص الدفاتر.»

قال تارلينج: «أفهم هذا، وبالطبع يُقدِّر المفوَّض تمامًا صعوبة مهمتكم. وإنما جئتُ من أجل الحصول على معلومات لغرضٍ خاص بي؛ لأنني مهتمٌّ بقدر مضاعَف ...»

نظرَ إليه السير فيليكس بجِدَّة.

«السيد تارلينج؟» كرَّر الاسم وهو ينظر إلى البطاقة مرة أخرى. «حسنًا، بالطبع! فهمتُ أنَّ خطابات الإدارة يجب أن يجريَ تقديمها من خلالك؟»

قال تارلينج بهدوء: «أعتقد أن الأمر كذلك.» ثم أردفَ: «لكن اهتمامي بالممتلكات غيرُ شخصي إلى حدٍّ ما في الوقت الحالي. مدير العمل هو السيد ميلبرج.»

أومأ السير فيليكس.

وقال: «لقد كان متعاونًا ومفيدًا للغاية.» ثم أضافَ: «وبالتأكيد، إذا كانت الشائعات الغامضة التي سمعتها لها أيُّ أساس من الصحة — أي إن ميلبرج يُشتبَه في أنه سرق الشركة — إذن فهو بالتأكيد يُعطينا كلَّ مساعدة لإدانة نفسه.»

«هل كلُّ الدفاترِ في حوزتك؟»

أجابَ السير فيليكس على نحوٍ قاطع: «بالتأكيد.» ثم واصلَ حديثه: «وقد اكتشف السيد ميلبرج نفسُه آخِرَ ثلاثة دفاتر، وأحضرها إلى هنا فقط هذا الصباح. في الواقع، تلك هي الدفاتر.» وأشارَ إلى طردٍ من الورق البُني يوجد على طاولةٍ أصغرَ بالقرب من النافذة. كان الطردُ محاطًا بسلكٍ شديد ومؤمَّنٍ مرةً أخرى عن طريق شريط أحمر مختوم.

انحنى السير فيليكس وضغط الجرس على المنضدة، وجاء موظَّف.

قال: «ضع هذه الدفاتر مع البقية في الخزنة.» وعندما اختفى الرجل، مترنحًا تحت وطأة الدفاتر الثقيلة، التفتَ السير فيليكس إلى تارلينج.

قال: «إننا نحتفظ بجميع دفاتر وحسابات متاجر لاين في خزنة خاصة.» وأردفَ: «إنها جميعًا مختومة، وستُكسَر تلك الأختام في حضور السيد ميلبرج بصفته جهةً مَعْنيَّة، وأحدَ ممثِّلي النائب العام.»

سألَ تارلينج: «متى سيكون هذا؟»

«بعد ظُهر الغد، أو ربما صباح الغد. سنبلغ سكوتلاند يارد بالميعاد بالضبط؛ لأنني أفترض أنك سترغب في تمثيلهم.»

نهضَ بخفَّة، ومن ثَمَّ أنهى المقابلة.

فكَّرَ تارلينج في أنه كان طريقًا مسدودًا آخر، بينما كان يدخل شارع سانت ماري آكس ويستقلُّ حافلة عامة متجهة غربًا. كانت القضية زاخرةً بهذه الطرق المسدودة التي يبدو أنها لا تقود إلى أيِّ مكان. الطريق المسدود رقم ١ كان أوديت رايدر؛ الطريق المسدود رقم ٢ قد يؤدِّي بسهولة شديدة إلى براءة ميلبرج.

ومع ذلك فقد شعرَ بالارتياح لأن السُّلطات تصرفَت على هذا النحو على الفور في تأمينِ دفاتر لاين. فقد يُؤدي فحصُ هذه الدفاتر إلى اكتشاف القاتل، وعلى أيِّ حال سيُبدِّد سحابة الشك التي لا تزال تُحاصر أوديت رايدر.

لقد ذهبَ إلى «داشوود آند سولومون» ليُعرِّف نفسه شخصيًّا بهذا الخيط في كرة الخيط المتشابكة التي كان مصرًّا على فكِّها؛ والآن، وعقله مرتاحٌ بشأن ذلك الموضوع، كان عائدًا من أجل تسوية الأمور مع لينج تشو، مساعده الصيني الذي كان الآن محلَّ شك مثل أي مشتبهٍ فيه في القضية.

لم يقل سوى الحقيقة عندما قال للمفتش وايتسايد إنه يعرف طريقةَ التعامل مع لينج تشو. فالمجرم الصيني — وكان يكره تصديق أن لينج تشو، ذلك الخادم الأمين، ينطبق عليه هذا الوصف — يجب عدمُ التعامل معه بالطريقة الغربية؛ وهو الذي كان معروفًا في جميع أنحاء جنوب الصين باسم «صياد الرجال» كانت لديه سُمعة استخلاص الحقيقة بأساليبَ لا يُعاقب عليها أيُّ قانون.

مشى إلى شقته في شارع بوند، وأغلق الباب خلفه وأوصده بالمفتاح ووضع المفتاحَ في جيبه. كان يعلم أن لينج تشو سيكون بالداخل؛ لأنه كان قد أعطاه تعليماتٍ ذلك الصباحَ بانتظار عودته.

جاءَ الصيني إلى الصالة لأخذ معطفه وقبعته وتبع تارلينج إلى غرفة الجلوس.

قال تارلينج بالصينية: «أغلِق الباب يا لينج تشو.» ثم أردفَ: «لديَّ شيء لأقوله لك.»

الكلمات الأخيرة قيلت باللغة الإنجليزية، ونظر إليه الصينيُّ بسرعة. لم يُخاطبه تارلينج بهذه اللغة من قبل، وعرَف الصينيُّ ما يُنذر به هذا التحوُّل.

قال تارلينج وهو جالسٌ إلى الطاولة ويُمسك ذقنه بيده، وهو يراقب الآخر بعينَين ثابتتين: «لينج تشو، لم تُخبرني أنك تتحدث الإنجليزية.»

قال الصيني بهدوء: «السيد لم يسألني قطُّ.» وفُوجئ تارلينج أن لغته الإنجليزية كانت بلا لكنةٍ ونُطقه كان رائعًا.

قال تارلينج بصرامة: «هذا ليس صحيحًا.» ثم تابعَ مستوضحًا: «عندما أخبرتني أنك سمعتَ عن جريمة القتل، قلتُ إنك لا تفهم الإنجليزية، وأنت لم تنكر ذلك.»

قال لينج تشو بمنتهى الهدوء: «ليس لي أن أُنكر ما يقوله السيد.» ثم أضافَ: «أنا أتحدث الإنجليزيةَ بطلاقة. لقد تدربت في المدرسة اليسوعية في هانكو، ولكن ليس من الجيد للصينيِّ أن يتحدث اللغة الإنجليزية في الصين، أو أن يُعْلِم أيَّ شخص أنه يفهم

الإنجليزية. ومع ذلك لا بد أن سيدي عرَف أنني أتحدث الإنجليزية وأقرؤها، وإلا فلماذا أحتفظ بقُصاصات الصحف الموجودة في الصندوق الذي فتَّشه سيدي هذا الصباح؟»

ضاقت عينا تارلينج.

قال: «إذن فقد عرَفت، أليس كذلك؟»

ابتسمَ الصيني. لقد كان أكثرَ الظروف غرابة؛ إذ إن لينج تشو لم يبتسم مطلقًا فيما يتذكَّر تارلينج.

«كانت الأوراق في ترتيبٍ معيَّن — بعضها تحوَّل في اتجاه وبعضها في آخَر. عندما رأيتُها بعد عودتي من سكوتلاند يارد وجدتُها في ترتيبٍ مغاير. ولا يُمكنها أن تُغير ترتيبَ نفسها يا سيدي، ولا أحد غيرك يستطيعُ فتح صندوقي.»

سادَ الصمتُ للحظاتٍ، محرِجةٍ بما فيه الكفاية لتارلينج، الذي شعَر أنه أحمق؛ إذ إن إهماله أدَّى إلى اكتشاف لينج تشو لعملية التفتيش التي تمت في ممتلكاته الخاصة.

قال وهو يعلم أنه لن يربح أيَّ شيء بإنكار حقيقة أنه فتَّش صندوق لينج تشو: «ظننتُ أنني أعَدتُها كما وجَدتُها.» ثم استطردَ: «والآن أخبرني يا لينج تشو هل هذه المطبوعاتُ صادقةٌ فيما قالته؟»

أومأ لينج تشو برأسه.

قال: «صادقةٌ يا سيدي.» ثم أردفَ موضِّحًا: «زهرة النرجس الصغيرة، كانت أختي. عملَت راقصةً في مقهًى ضد رغبتي، بعد أن مات أبَوانا. كانت فتاة صالحة جدًّا، يا سيدي، وجميلة مثل غصن زهرة اللوز. المرأة الصينية ليست جميلةً في عيون الأجانب، ولكن زهرة النرجس الصغيرة كانت أشبهَ بتمثال مصبوبٍ من البورسلين، وكانت لديها فضائلُ ألف سنة.»

أومأ تارلينج برأسه.

كرَّر قائلًا: «كانت فتاة صالحة؟» وكان هذه المرة يتحدث بالصينية ويستخدم عبارةً قد تحمل معنيَين.

قال الصينيُّ بهدوء: «لقد عاشت صالحة وماتت صالحة.» ثم أضافَ: «كلام الرجل الإنجليزيِّ أساءَ إليها، ودعاها بأسماءٍ كثيرةٍ سيئة لأنها رفضَت أن تأتيَ وتجلس على ركبته؛ وإذا كان قد جلب لها العار بأن احتضنها أمام أعين الرجال، فإنها كانت لا تزال صالحة، وماتت بشرف.»

سادَ الصمت مرة أخرى.

قال تارلينج بهدوء: «فهمت.» ثم سأَلَه: «وعندما قلتَ إنك ستأتي معي إلى إنجلترا، هل توقعتَ أن تُقابل الرجل الإنجليزي السيئ؟»

هزَّ لينج تشو رأسه.

قال: «لقد طردتُ الموضوع من ذهني، حتى رأيتُه في ذلك اليوم في المتجر الكبير. ثم اندلعَت نيرانُ الروح الشريرة التي اعتقدتُ أنها قد خمدَت تمامًا بداخلي.»

قال تارلينج: «وأردتَ موته؟» فردَّ عليه بإيماءة من رأسه.

قال تارلينج: «يجب أن تُخبرني بكل شيء يا لينج تشو.»

كان الرجل الآن يَذْرع الغرفة بخطواتٍ مضطربة، وقد وشَت يداه اللتان ما فَتِئتا تنقبضان وتنبسطان بما يعتمِلُ داخله من عواطف.

قال: «كانت زهرة النرجس الصغيرة عزيزةً جدًّا عليَّ.» ثم واصلَ حديثه قائلًا: «وسرعان ما رحت أفكر في أنها كانت ستتزوج وتُنجب أطفالًا، وكان اسمُها سيُبارك على غِرار ما يفعله شعبنا؛ ألم يقل الإله العظيم: «مَن الذي يستحق العبادة أكثرَ من الأم؟!» وعندما ماتت يا سيدي، كان قلبي خاويًا؛ لأنه لم يكن هناك حبٌّ آخَرُ في حياتي. ثم ارتُكِبَت جريمة قتلٍ هو سينج، وذهبتُ إلى الداخل للبحث عن لو فانج، وهذا ساعدني على النسيان. لقد نسيتُ حتى رأيتُه مرة أخرى. ثم كبر الحزن القديم في روحي وخرجت ...»

قال تارلينج بهدوء: «لقتله.»

كرَّر الرجل: «لقتله.»

قال تارلينج وهو يأخذ نفَسًا طويلًا: «أخبِرْني بكل شيء.»

قال لينج تشو: «كانت تلك الليلةُ التي ذهبتُ فيها إلى الفتاة الصغيرة.» (عَلِمَ تارلينج أنه يتحدث عن أوديت رايدر) وواصلَ حديثَه: «كنتُ قد اتخذتُ قراري بالخروج، لكنني لم أجد عذرًا لأنك أعطيتَني يا سيدي أوامر ألا أغادر هذا المكان وأنت بالخارج. لذلك سألتُ إذا كان بإمكاني أن أذهب معك إلى مجمع المنازل الكثيرة.»

«إلى الشقة؟» أومأ برأسه، فقال تارلينج: «حسنًا، واصِلْ حديثك.»

«لقد أخذتُ مسدسك السريع وحشوتُه ووضعته في جيب معطفي. لقد أمرتني أن أتبعك، لكن عندما رأيتُك في طريقك تركتُك وذهبتُ إلى المتجر الكبير.»

قال تارلينج متفاجئًا: «إلى المتجر الكبير؟» ثم أردفَ: «لكن لاين لم يكن يعيش في متاجره!»

قال لينج تشو ببساطة: «هذا ما اكتشفتُه.» ثم أوضحَ: «لقد ظننتُ أنه في مثل هذا المتجر الكبير كان سيبني لنفسه غرفةً جميلة. في الصين يعيش العديدُ من السادة في متاجرهم. لذلك ذهبت إلى المتجر الكبير للبحث فيه.»

سألَ تارلينج متفاجئًا: «هل دخلت؟» ومرة أخرى ابتسم لينج تشو.

وقال: «كان ذلك سهلًا للغاية.» ثم تابعَ: «السيد يعرف أنني أُجيد التسلق، وكانت هناك أنابيبُ حديدية طويلة تؤدي إلى السطح. تسلقت إحداها. جانبان من جوانب المتجر يُطلان على شارعين كبيرين. وجانبٌ واحد على شارع أصغر، والجانب الرابع يطل على شارع صغير جدًّا به أضواء قليلة. صعدت من هذا الجانب. على السطح كان هناك العديدُ من الأبواب، ولم تكن هناك صعوبةٌ بالنسبة إلى رجل مثلي.»

قال تارلينج مرة أخرى: «واصِل حديثك.»

«نزلتُ من طابق إلى آخر، دائمًا في الظلام، ولكن في كل طابق بحثتُ بعناية، ولكن لم أجد سوى صناديقَ كبيرةٍ وحقائبِ تعبئةٍ وبارات طويلة ...»

صحَّح تارلينج: «كاونترات.»

أومأ لينج تشو برأسه وقال: «نعم يُطلَق عليها كاونترات، ثم أخيرًا وصلت إلى الطابق الذي رأيتُ فيه الرجل.» صمت قليلًا ثم قال: «ذهبتُ أولًا إلى الغرفة الكبيرة التي قابلناه فيها، وكانت مقفلة. فُتِحت بمفتاح، لكنها كانت مظلمة، وعرَفت أنه لا يوجد أحد هناك. ثم سِرت عبر ممرٍّ بحذر شديد؛ لأنه كان هناك ضوءٌ في الطرف الآخر، ووصلت إلى مكتب.»

«خالٍ بالطبع؟»

قال الصيني: «كان خاليًا، ولكن كان هناك ضوءٌ مشتعل، وكان غطاء المكتب مفتوحًا. اعتقدت أنه يجب أن يكون هناك، وتراجعت وراء خِزانة، وأخذت المسدس من جيبي. في الحال سمعت صوت خطوات. اختلست النظر ورأيت الرجل ذا الوجه الأبيض الكبير.»

قال تارلينج: «ميلبرج!»

أجابَ الصيني: «هكذا يُدعى.» ثم واصلَ حديثه: «كان جالسًا إلى مكتب الشاب. كنتُ أعلم أنه كان مكتب الشاب؛ لأنه كان هناك العديد من الصور والزهور عليه، كما سيكون مكتبه. كان الرجل الضخم يوليني ظهره.»

سألَ تارلينج: «ما الذي كان يفعله؟»

«كان يُفتش المكتب ويبحث عن شيءٍ ما. رأيتُه يأخذ من أحد الأدراج التي فتحها مظروفًا. من حيث وقفتُ استطعتُ رؤيةَ ما في الدرج، وكان هناك الكثير من الأشياء الصغيرة مثل تلك التي يشتريها السياحُ في الصين. أخرج من المظروف «الهونج».»

وجفلَ تارلينج. كان يعرف «الهونج» التي أشار إليها الرجل. كانت البطاقة الورقية الحمراء الصغيرة التي تحمل الأحرف الصينية التي وُجِدَت على جثة ثورنتون لاين ذلك الصباحَ الذي لا يُنسى في هايد بارك.

قال بلهفة: «نعم، نعم.» ثم سألَه: «ماذا حدث بعد ذلك؟»

«وضعَ المظروف في جيبه وخرجَ. سمعتُه يمشي عبر الممر، ثم تسللتُ من مخبئي وأنا أيضًا فتشتُ المكتب. وضعتُ المسدس إلى جانبي؛ لأنني أردتُ كِلتا يديَّ للبحث، لكنني لم أجد شيئًا ... فقط كتيب صغير يستخدمه السيد في كتابةِ كلِّ ما يحدث له في يومه.»

قال تارلينج: «مذكرات؟» ثم أردفَ: «حسنًا، وماذا بعد؟»

«نهضتُ لأُفتش الغرفة وتعثرت في سلك. لا بد أنه السلك الكهربائي المتصل بالمصباح المضيء فوق المكتب؛ إذ إن الغرفة أصبحت مظلمة فجأة، وفي تلك اللحظة سمعتُ خطى الرجل الضخم تعود وتسللتُ خارجًا من الباب. وهذا كل شيء يا سيدي.» قالها لينج تشو ببساطة. «عدتُ إلى السطح بسرعةٍ خشيةَ أن يُكتشف أمري فأجلبَ لك العار.»

صفَّر تارلينج.

وقال: «وتركت المسدس وراءك؟»

قال لينج تشو: «هذا ليس سوى الحقيقة.» ثم أردفَ: «لقد لوَّثتُ نفسي في عينيك وفي قلبي، أنا قاتل لأني ذهبت إلى ذلك المكان لأقتل الرجل الذي جلب العارَ لي ولشقيقتي الشريفة.»

قال تارلينج مرة أخرى: «وتركت المسدس وراءك؟» ثم استنتجَ: «ووجده ميلبرج!»

الفصل العشرون

السيد ميلبرج يُنهي المسألة

لم يكن من الصعب تصديقُ قصة لينج تشو. وكان الأقلُّ صعوبة أن تُصدق أنه كان يكذب. لا يوجد مخترعٌ في العالم بهذا الذكاء والدقة من حيث التفاصيل، مثل الصيني. إنه راوي قصصٍ موهوبٌ بالفطرة، ويستطيع أن يُفصل معًا الظروف التي تتوافق عن كثبٍ بحيث يصعب عليك رؤيةُ الوصلات. ومع ذلك كان الرجل صريحًا ومباشرًا وصادقًا على نحوٍ واضح. بل إنه وضع نفسه تحت سلطة تارلينج باعترافه بنية القتل.

استطاع تارلينج إعادةَ بناء المشهد بعد مغادرة الصيني. جاء ميلبرج يتعثَّر في الظلام وأشعل عودَ ثقاب واكتشف أن القابس قد نُزع من الحائط، فأعاد توصيل المصباح ورأى لدهشته مسدسًا فتَّاكًا على المكتب. كان من الممكن أن ينخدع ميلبرج، عندما عثَر على المسدس، ويظن أنه أغفله في بحثه السابق.

لكن ماذا حدث للسلاح بين اللحظة التي تركه فيها لينج تشو على مكتب ثورنتون لاين الخاص واللحظةِ التي اكتُشِفَ فيها في علبة أدوات الحياكة الخاصة بأوديت رايدر في الشقة في كاريمور مانشنز؟ وماذا كان ميلبرج يفعل في المتجر وحده في وقتٍ متأخر من الليل؟ وعلى نحوٍ أكثر تحديدًا، ماذا كان يفعل في غرفة ثورنتون لاين الخاصة؟ كان من غير المحتمل أن يترك لاين مكتبه مفتوحًا، والاستنتاج الوحيد الذي يُمكن استخلاصه هو أن ميلبرج فتحه بنفسه بهدف تفتيش محتوياته.

وماذا عن «الهونج»؟ تلك البطاقات الصغيرة الشريرة من الورق الأحمر ذاتُ الأحرف الصينية، التي عُثِرَ على إحداها في جيب ثورنتون لاين. كان تفسيرُ وجودها في مكتب ثورنتون لاين بسيطًا. لقد كان مسافرًا حول العالم وقد جمَع التحف، وكان من الطبيعي جدًّا أن يجمع هذه القُصاصات الورقية التي كانت تُباع في معظم المدن الصينية الكبيرة كتذكار لأسلوبِ عصابة «القلوب المبهجة».

يجب إبلاغ سكوتلاند يارد بمحادثته مع لينج تشو، وهذه المؤسسة المهيبة سوف تستخلصُ استنتاجاتها الخاصة. وفي الغالب لن تكونَ هذه الاستنتاجاتُ في صالح لينج تشو، الذي سيُصبح على الفور مشتبَهًا فيه.

ومع ذلك، كان تارلينج راضيًا — أو ربما يكون الأكثرُ دقة أنه كان يميل إلى أن يكون راضيًا — عن أقوال مساعده. كانت بعضُ أجزاء قصته من الممكن التحقُّقُ منها، ولم يُضِع المحققُ أيَّ وقت قبل أن يتخذ طريقه إلى المتاجر. كان الوضع الطوبوغرافي مثلما وصَفه لينج تشو. ذهب تارلينج إلى خلف مجمع المباني، حيث يوجد الشارع الهادئ الصغير الذي تحدَّث عنه لينج تشو، واستطاع تمييز أنبوب المطر الحديدي (واحد من العديد) الذي تسلَّقه الصيني. يستطيع لينج تشو تأديةَ هذه المهمة دون أي جهدٍ جسدي. فهو يستطيع أن يتسلق مثل قطة، كما يعلم تارلينج، وهذا الجزء من قصته لم يعتمِدْ على سذاجة المحقق.

مشى عائدًا إلى المتجر من الأمام، وعبر نوافذ العرض الزجاجية الضخمة، المكتظة الآن بالمتسوقين الذين اكتسب متجر لاين اهتمامًا جديدًا ومُرضيًا بهم، ودخل من خلال الأبواب الضخمة المتأرجحة إلى الطابق المزدحم. كان السيد ميلبرج في مكتبه، وفقًا لما قاله أحدُ السُّعاة، وأرشده إليه.

كان مكتب السيد ميلبرج أكبرَ بكثير وأقلَّ زخرفة من مكتب صاحب المتجر الراحل. استقبل تارلينج بترحيبٍ زائد، ودفع إليه كرسيًّا بذراعَين وقدَّم له علبة السيجار.

قال بصوته المتزلِّف مع ابتسامته الثابتة التي يبدو أنها لا تُفارق وجهه مطلقًا: «نحن في حالة اضطرابٍ وانزعاج الآن يا سيد تارلينج. لقد أخذ المراقبون — أو على الأحرى المحاسبون — جميعَ الدفاتر، وهذا بطبيعة الحال يفرض عليَّ عبئًا رهيبًا يا سيد تارلينج. هذا يعني أن علينا تنظيمَ نظامِ حساباتٍ مؤقَّت، وستفهمُ أنت كرجل أعمال ما يعنيه ذلك بالضبط.»

قال تارلينج: «أنت تعمل بجِدٍّ يا سيد ميلبرج؟»

ابتسمَ ميلبرج وقال: «أوه، نعم يا سيدي.» ثم أردفَ: «لقد عملت دائمًا بجِدٍّ.»

سألَ تارلينج: «كنتَ تعمل بجدٍّ شديد قبل مقتل السيد لاين، أليس كذلك؟»

تردد ميلبرج: «نعم ...» ثم قال: «أستطيع أن أقول بصراحة إنني كنت أفعل.»

«في وقت متأخر جدًّا من الليل؟»

كان ميلبرج لا يزال مبتسمًا، ولكن كانت هناك نظرةٌ فولاذية في عينيه بينما يرد: «كثيرًا ما كنت أعمل في وقت متأخر من الليل.»

سألَ تارلينج: «هل تذكر ليلة الحادي عشَر؟»

نظرَ ميلبرج إلى السقف بحثًا عن الإلهام.

«نعم، أعتقد أنني أتذكَّرها. كنت أعمل في وقت متأخر جدًّا في تلك الليلة.»

«في مكتبك؟»

أجابَ الآخر دون تردد: «لا، لقد قمتُ بمعظم عملي في مكتب السيد لاين — بِناءً على طلبه.» إجابة جريئة يقولها لرجلٍ كان يعلم أن لاين كان يشتبهُ في أنه يسرق الشركة. لكن الجُرأة كانت من أهمِّ شيم ميلبرج.

سألَ المحقق بجفاف: «هل أعطاك أيضًا مِفتاحَ مكتبه؟»

قال السيد ميلبرج متهللًا: «نعم يا سيدي، بالطبع فعل! كما ترى، السيد لاين كان يثقُ بي تمام الثقة.»

قال هذا بشكلٍ طبيعي وبثقة تامة، لدرجةِ أن تارلينج كان مذهولًا. وقبل أن يُتاح له الوقت للتحدُّث، واصل الآخرُ حديثه:

«نعم، أستطيع أن أقول بصدقٍ إنني كنت محلَّ ثقة السيد لاين. أخبرني الكثيرَ عن نفسه أكثر مما أخبر أيَّ شخص و...»

قاطعه تارلينج: «لحظةً واحدة ...» ثم تحدَّثَ ببطء قائلًا: «هل تسمح أن تُخبرني بما فعلتَ بالمسدس الذي وجدتَه على مكتب السيد لاين؟ كان مسدس كولت آليًّا، وكان محشوًّا.»

ظهرَت في عينَي السيد ميلبرج دهشةٌ فارغة.

وسألَ رافعًا حاجبيه: «مسدسٌ محشوٌّ؟ لكن يا سيدي العزيز تارلينج، عمَّ تتحدَّث؟ أنا لم أعثر على مسدسٍ محشوٍّ على مكتب السيد لاين قط ... هذا المسكين! كان السيد لاين يعترض على مثل هذه الأسلحة القاتلة مثلي تمامًا.»

كانت هذه صدمةً قاسية لتارلينج، لكن لم تبدُ عليه أيُّ علامة إحباط أو مفاجأة. كان ميلبرج عابسًا كما لو كان يُحاول تجميع بعض الذكريات شبه المَنسيَّة.

قال بصوتٍ مصدوم: «هل من الممكن أنك حين فتشتَ منزلي في ذلك اليوم كان بهدف اكتشاف مثل هذا السلاح!»

قال تارلينج ببرود: «هذا ممكن تمامًا، بل إنه مرجَّح. الآن سأكون صريحًا جدًّا معك يا سيد ميلبرج. أشك في أنك تعرف الكثير عن جريمة القتل هذه أكثرَ مما أخبرتنا به،

وأنك كان لديك أسبابٌ أكثرُ بكثير لتمنِّي وفاة السيد لاين مما أنت على استعدادٍ للاعتراف به في هذه اللحظة.» وعندما فتحَ الآخَرُ فمَه إيذانًا بالحديث، قال: «انتظر.» ثم أضافَ: «أقول لك بصراحة إن هدفي من الزيارة الأولى لهذه المتاجر كان للتحقيق في الوقائع التي بدَت ضدَّك للغاية. لقد كان بالكاد عملَ محقِّقٍ، بل كان عملَ محاسب. لكن السيد لاين اعتقد أنني سأكون قادرًا على اكتشاف مَنْ كان يسرق الشركة.»

سألَ ميلبرج ببرود: «وهل فعلتَ؟» كان لا يزال على وجهه شبحُ ابتسامة، ولكنَّ التحدِّيَ ظهر في عينَيه الشاحبتين.

«لم أفعل؛ لأنني لم أمضِ قُدُمًا في هذه القضية بعد أن عبَّرتَ أنت عن اتفاقك مع السيد لاين على تعرُّض الشركة للسرقة من قِبَل أوديت رايدر.»

رأى الرجلَ يتغيَّر لونه، وحاول أن يستغل تفوُّقه في هذه الجولة.

قال بصرامة: «لن أستفسر عن كثبٍ عن أسباب محاولتك تدميرَ فتاة بريئة.» ثم استطرد: «هذا أمر يعود إلى ضميرك. لكني أُخبرك، يا سيد ميلبرج، إذا كنتَ بريئًا — من كلٍّ من جريمة السرقة والقتل — فأنا لم أقابل قط أيَّ شخص مذنب في حياتي.»

سألَ الرجل بصوتٍ عالٍ: «ماذا تقصد بذلك؟» ثم أردفَ: «هل تجرؤ على اتهامي؟»

قال تارلينج: «لا أتهمُك بأي شيء أكثرَ من هذا؛ أنا مقتنع تمامًا بأنك كنتَ تسرق الشركة لسنوات. كما أنني مقتنعٌ تمامًا بأنك حتى إذا لم تكن قد قتلتَ السيد لاين، فأنت على الأقل تعرف مَنْ قتَله.»

سخرَ ميلبرج قائلًا: «أنت مجنون!» لكنَّ وجهه صار أبيض. واستطرد: «لنفترض أنني حقًّا سرقتُ الشركة، فلماذا أريد قتل السيد ثورنتون لاين؟ إن مجرد حقيقة وفاته من شأنها أن تجرَّ عليَّ فحص الحسابات.»

كانت هذه حُجَّة مقنعة، وكانت أكثرَ إقناعًا لأنها كانت حُجة استخدمها تارلينج نفسُه.

تابعَ ميلبرج كلامه: «أما بالنسبة إلى تُهمِكم السخيفة والميلودرامية بسرقة الشركة، فالدفاتر الآن في أيدي شركة مرموقة من المحاسبين القانونيين، وهم يستطيعون تكذيبَ أيِّ ادعاء كادعائك.»

استعادَ شيئًا من دَماثته القديمة، ووقفَ الآن، أو بالأحرى تمدَّد، وساقاه متباعدتان، وإبهاماه في فتحتَي الذراعين في صدرته، ناظرًا إلى المحقِّق بعذوبة.

قال: «أنا في انتظار تحقيق تلك الشركة البارزة، ميسرز داشوود آند سولومون، بكل ثقة ودون أدنى اضطراب. فالنتائج التي سيتوصَّلون إليها سوف تُبرهن على شرفي دون أي شك. سوف نرى هذه المسألة حتى النهاية!»

نظرَ إليه تارلينج.

وقال: «أنا معجبٌ بجُرأتك.» وغادرَ المكتب دون كلمة أخرى.

الفصل الحادي والعشرون

تغطية الأثر

أجرى تارلينج مقابلة قصيرة مع مساعده وايتساید، وقد اتفقَ معه المفتش، لدهشته، على وِجْهة نظره في اعتراف لينج تشو.

قال وايتساید بتأمُّل: «لطالما اعتقدتُ أن ميلبرج كان زبونًا رائعًا.» ثم استدرك: «لكن اتضحَ أنه يتمتعُ بشجاعةٍ أكثرَ مما ظننت. أفضلُ بالتأكيد أن أُصدِّق فرضيتك عن أن أُصدق ميلبرج. وبالمناسبة، سيدتُك الصغيرة قد هربت من رقابتها.»

سألَ تارلينج متفاجئًا: «عمَّ تتحدث؟»

«أقصدُ الآنسة أوديت رايدر — ولماذا بحقِّ السماء يمكن لضابطِ شرطة راشد بخبرتك أن يحمرَّ خجلًا؟ لا أستطيع أن أتصوَّر ذلك.»

قال تارلينج: «أنا لا أحمرُّ خجلًا.» ثم سألَه: «ماذا عنها؟»

أوضحَ وايتساید: «كان لديَّ رجلان يُراقبانِها، ووقتما كانت تتمشى بالخارج، كانت تُصبح تحت المراقبة، كما تعلم. وفقًا لتعليماتك كنتُ سأنزع هؤلاء المراقبين غدًا، ولكنها اليوم ذهبت إلى شارع بوند، وإما أن جاكسون كان مهملًا — إذ كان جاكسون هو القائمَ بالمراقبة — أو أن السيدة الشابة كانت شديدة الذكاء؛ على أي حال، انتظرَ نصف الساعة حتى تخرج من المتجر، وعندما لم تظهر، دخلَ ووجدَ هناك مدخلًا آخرَ هربَت من خلاله. ومنذ ذلك الحين لم تَعُد إلى الفندق.»

قال تارلينج وهو مضطربٌ قليلًا: «لا أحب ذلك. تمنيتُ لها أن تكون تحتَ الملاحظة لحمايتها هي شخصيًّا قبلَ أي شيء. أريدك أن تحتفظ برجلٍ في الفندق وتتصلَ بي فور عودتها.»

أومأ وايتساید.

وقال: «لقد توقَّعت رغباتك في هذا الصدد.» ثم استطرد: «حسنًا، ما خُطوتنا التالية؟»

«أنا ذاهب إلى هيرتفورد لرؤية والدة الآنسة رايدر؛ وبالمناسبة، قد أجدُ الآنسة رايدر، التي من الوارد جدًّا أنها عادت إلى المنزل.»

أومأ وايتساید.

سألَ: «ماذا تتوقع أن تكتشفَ من الأم؟»

قال تارلينج: «أتوقع أن أعرفَ الكثير.» ثم أردفَ: «لا يزال هناك لغزٌ صغير يجب حلُّه. على سبيل المثال، مَنْ هو الرجل الغامض الذي يأتي ويذهب إلى هيرتفورد، ولماذا تعيش السيدة رايدر في رفاهيةٍ بينما ابنتُها تعمل من أجل لقمة العيش في متجر لاين؟»

وافقَ وايتساید على ذلك قائلًا: «تلك أمور مهمة.» ثم سألَه: «هل تريدني أن آتيَ معك؟»

ابتسمَ تارلينج قائلًا: «شكرًا.» ثم أردفَ: «يمكنني القيامُ بهذه المهمة البسيطة بنفسي.»

بدأ وايتساید: «لنعُدْ إلى ميلبرج.»

تأوَّه تارلينج: «كما نعود دائمًا إلى ميلبرج.» ثم قال مستفهمًا: «نعم؟»

قال وايتساید: «حسنًا، لا أحب اطمئنانه.» ثم واصلَ حديثه: «يبدو الأمر كما لو كانت كلُّ آمالنا في الحصول على دليل من فحص حسابات لاين مصيرها أن تتحطم.»

قال تارلينج: «هناك شيءٌ ما في ذلك.» ثم أردفَ: «أنا نفسي لا أحبه. فالدفاتر في يدِ واحد من أفضل المحاسبين القانونيين في البلد، وإذا كان هناك أيُّ تلاعب، فهو الشخص الذي من المؤكَّد أن يكتشفه؛ وليس هذا فحسب، ولكن سيتتبع أيَّ عمليات اختلاس للوصول إلى الرجل المسئول. ميلبرج ليس أحمقَ بما يكفي لأن نتخيَّل أن أمره لن ينكشفَ بمجرد أن يبدأ المحاسبون عملهم، وأقل ما يُقال عن بهجته في مواجهة الفضيحة أنها أمرٌ مقلق.»

كان مؤتمرهما الصغير يُعقَد في غرفةِ شايٍ عامةٍ عادية أمام مجلس العموم — غرفة شاي كانت جدرانها، لو أنَّ لها آذانًا، لِتَشيَ بعددٍ غيرِ قليل من أسرار سكوتلاند يارد الثمينة.

كان تارلينج على وشك تغيير الموضوع عندما تذكَّر الدفاتر التي وصلت إلى مكتب المحاسب ذلك الصباح.

قال وايتساید بتفكير عميق: «متأخرة كثيرًا.» ثم أضافَ: «يا إلهي! أتساءل!»

«عمَّ تتساءل؟»

«أتساءَل عمَّا إذا كانت هي الدفاتر الثلاثة التي اشتراها ميلبرج أمس؟»

«دفاتر الأستاذ الثلاثة؟»

أومأ وايتسايد.

«ولكن لماذا بحق السماء يريد وضْعَ ثلاثة دفاتر أستاذ جديدة — لقد كانت جديدة، أليس كذلك؟ لا يبدو لي أن هذا اقتراح ذكيٌّ للغاية. ومع ذلك ...»

قفزَ من مكانه وكادَ يُسقِط الطاولة من فرط حماسته.

وقال: «بسرعة يا وايتسايد! أحضر سيارة أجرة بينما أُسدِّد الفاتورة.»

«إلى أين تذهب؟»

قال تارلينج: «أسرعْ وأحضرْ سيارة الأجرة!» وعندما انضمَّ إلى رفيقه في الخارج، وكانت سيارة الأجرة تسير على طول نهر التايمز: «أنا ذاهب إلى سانت ماري آكس.»

قال وايتسايد: «هكذا فهمتُ من توجيهاتك إلى سائق السيارة الأجرة.» ثم سأَلَه مستوضحًا: «ولكن لماذا سانت ماري آكس في هذا الوقت من الظهيرة؟ داشوود آند سولومون المحترمون جدًّا لن يَسُرَّهم أن يرَوك حتى الغد.»

قال تارلينج: «سأرى هذه الدفاتر.» ثم أضافَ مؤكِّدًا: «الدفاتر التي أرسلَها ميلبرج إلى المحاسبين هذا الصباح.»

«ماذا تتوقَّع أن تجد؟»

كان رد تارلينج: «سأخبرك لاحقًا.» ونظرَ إلى ساعته وقال: «لا أظنهم قد أغلقوا الشركة بعدُ، حمدًا لله!»

توقفَت سيارة الأجرة عند مفترق الطرق بين الطريق الموازي للتايمز وبين جسر بلاكفريارز، وتوقفت مرة أخرى لسببٍ مختلف في شارع كوين فيكتوريا. وفجأة كان هناك أصواتُ رنين، وانجذبت كل حركة المرور إلى جانب واحد للسماح بمرور سيارة إطفاء مسرعة. وتبعَتها أخرى وأخرى على التوالي.

قال وايتسايد: «حريق كبير.» ثم استدركَ: «أو قد يكون صغيرًا؛ لأنهم يُصابون بالذعر الشديد في المدينة، وسوف يستدعون قسمًا بأكمله من أجل مدخنة تُدخن!»

تحركَت سيارة الأجرة، وعبرت شارع كانون، عندما احتُجِزَت مرةً أخرى بواسطة سيارة هادرة، هذه المرة تحمل سُلَّم هروب من الحريق.

قال تارلينج: «دعنا نخرج من السيارة؛ سنمشي.»

قفزا من السيارة، وحاسبَ وايتسايد السائقَ.

قال تارلينج: «من هذا الطريق.» ثم أضافَ: «سنمشي من طريق مختصر.»

توقَّفَ وايتساید للتحدث إلى شرطي.

سألَ: «أين الحريق أيها الشرطي؟»

وكان رد الشرطي: «في شارع سانت ماري آكس يا سيدي.» ثم قال: «شركة كبيرة للمحاسبين القانونيين؛ داشوود آند سولومون. هل تعرفهم يا سيدي؟ قيل لي إن المكانَ تَضْطرم فيه النيرانُ من القبو إلى العِلْيَة.»

أظهرَ تارلينج أسنانه بابتسامة هادئة غير مندهشة عندما جاءَه الرد.

وقال: «وها هي كل الأدلة على جريمة ميلبرج تبدَّدت في الدخان، ها؟» ثم أردفَ: «أعتقد أني أعرف ما كانت تحتويه تلك الدفاتر — مفجِّر صغير يعمل بمُؤَقِّت وبضعة أرطال من الثرمايت لحرق كلِّ القرائن على جريمة قتل أزهار النرجس!»

الفصل الثاني والعشرون

المحفظة الثقيلة

كلُّ ما تبقى من مقرِّ شركة «ميسرز داشوود آند سولومون» الذي كان في يومٍ من الأيام فخمًا، وإن كان محدودَ المساحة، كان عبارةً عن جدارٍ أمامي هزيل سوَّده الحريق. قابَلَ تارلينج رئيسَ كتيبة الإطفاء.

قال ذلك المحترم: «سوف تمر أيام قبل أن نتمكَّن من الدخول، وأنا أشكُّ كثيرًا إذا كان أيُّ شيء قد بقي سليمًا. لقد احترق المبنى برُمَّته — يمكنك أن ترى بنفسك أن السقف قد سقط — وهناك فرصة ضئيلة للغاية لاسترداد أي شيء قابل للاشتعال ما لم يكن في خزنة.»

لمَحَ تارلينج السير فيليكس سولومون الجاف، يُحدِّق في أطلال مكتبه، دون أن يبدوَ عليه أيُّ أثرٍ لضيقٍ أو محنة.

قال السير فيليكس متفلسفًا: «التأمينُ يُغطينا، وليس هناك شيءٌ ذو أهمية كبيرة، باستثناء تلك الوثائق بالطبع والدفاتر من متجر لاين.»

سألَ تارلينج: «ألم تكن في قبوٍ مقاومٍ للحريق؟» وهزَّ السير فيليكس رأسه.

وقال: «نعم، كانت في خزنة؛ ومن الغريب أن الحريق قد نشأ في تلك الخزنة بالذات. لم تكن الخزنة نفسُها مُقاوِمة للحريق، وحتى لو كانت كذلك، لما كانت الفائدة ستكون كبيرة؛ لأن الحريق اندلع من الداخل. أول خبر تلقَّيناه كان عندما نزل أحد الموظفين إلى القبو، ورأى ألسنة اللهب تتصاعد بين القضبان الفولاذية التي تُشكِّل باب القبو رقم ٤.»

أومأ تارلينج برأسه.

وقال: «لستُ بحاجةٍ إلى أن أسألك ما إذا كانت الدفاتر التي جلبها السيد ميلبرج هذا الصباح قد وُضِعَت في تلك الخزنة يا سير فيليكس.» وبدا الفارس مندهشًا.

قال: «بالطبع لا.» ثم أضافَ: «لقد وُضِعَت هناك بينما كنتُ في المكتب. لماذا تسأل؟»

«لأن هذه الدفاتر في رأيي لم تكن دفاترَ على الإطلاق بالمعنى المفهوم للكلمة. ما لم أكن مخطئًا، الطرد يحتوي على ثلاثة دفاتر أستاذ كبيرة ملصَقة معًا، وقد صُنِعَ تجويفٌ في محتوياتها ومُلِئَت بالثرمايت، ومفجِّر بمُؤقِّت، أو بالجهاز الإلكتروني الضروري لبدء شرارة في لحظة معينة.»

حدَّق فيه المحاسب.

قال: «أنت تمزح.» لكن تارلينج هزَّ رأسه.

«لم أكن أكثرَ جدِّيةً في حياتي.»

«ولكن مَنْ سيرتكب مثل هذا الفعل الجَهنمي؟ عجبًا، أحد الموظفين كاد أن يحترق حتى الموت!»

كرَّر تارلينج ببطء: «الرجل الذي سيرتكب مثل هذا الفعل الجهنمي هو الرجل الذي لديه كلُّ الأسباب التي تجعله يرغب في تجنب فحص حسابات لاين.»

«أنت لا تعني ...؟»

قال تارلينج: «لن أذكر أيَّ أسماء في الوقت الحالي، وإذا حدث عن غير قصد أني نقلتُ هُوية الرجل الذي تحدثتُ عنه، آمُل أن تكون كريمًا بما يكفي لاعتبار هذه المعلومة سرية.» وعاد إلى مرءوسه المغموم.

قال بمرارة: «لا عجبَ أن ميلبرج كان راضيًا عن الفحص القادم.» ثم تابعَ موضحًا: «لقد زرعَ الشيطانُ هذه العبوة، وضبطَ وقت انفجارها بالدقيقة. حسنًا، ليس هناك ما يمكننا أن نفعله أكثر من هذا الليلة مع ميلبرج.»

ثم نظرَ إلى ساعته.

وقال: «سأعود إلى شقتي، وبعد ذلك سأذهب إلى هيرتفورد.»

لم يكن قد وضع أيَّ خطة محددة فيما يتعلق بالخط الذي سيسلكه بعد أن يصل إلى هيرتفورد. كانت لديه فكرة غامضة أن تحقيقه في هذا الجوار ربما يُقرِّبه، في حال توجيهه على النحو السليم، إلى قلب اللغز. هذه المرأة الجميلة الشاحبة التي تعيش في مثل هذا المستوى، والتي نادرًا ما كان زوجها يظهر، قد تمنحه مفتاحًا. كان ذلك المفتاح موجودًا في مكانٍ ما، ويمكنه من خلاله فكُّ شفرة جريمة قتل أزهار النرجس المعقدة، وربما يكون في هيرتفورد في متناول اليد.

كان الظلام قد حلَّ عندما وصل إلى منزل السيدة رايدر؛ لأنه هذه المرةَ استغنى عن ركوب سيارة أجرة، ومشى المسافة الطويلة بين المحطة والمنزل، راغبًا في تجنُّبِ لفتِ الانتباه إليه. كان البيت على الطريق الرئيسي. وكانت له واجهةٌ جدارية عالية تبلغ حوالي ثلاثمائة وخمسين قَدمًا. استمر الجدار من ناحية إلى جانب ممر، ومن الناحية الأخرى كان يُمثل حدود حقل كبير.

كان المدخل عند الأراضي من خلال بوابة قوية من الحديد المشغول، يُذكِّره تصميمُها بشيءٍ كان قد رآه من قبل. في زيارته السابقة كانت البوابة مفتوحة، ولم يُواجه صعوبةً في الوصول إلى المنزل. أما الآن، فهي مغلقة.

سلَّطَ مصباحه على البوابة والأعمدة الداعمة، واكتشف جرسًا، ومن الواضح أنه كان جديدًا تمامًا، وجرى تركيبه مؤخرًا. لم يحاول أن يضغط على الزر الأبيض الصغير، لكنه استمر في الاستطلاع. على بُعد حوالي ستِّ ياردات داخل البوابة كان يوجد كوخ صغير، ظهر منه ضوء، ويبدو أن الجرس كان يرن في هذا الكوخ. وبينما كان ينتظر سمعَ صافرةً وخُطًى متسارعة قادمة من الطريق، فانسحبَ إلى داخل الظل. جاء شخصٌ ما إلى البوابة؛ وسمع رنين جرس خافتًا وفُتِحَ باب.

كان الوافدُ الجديد صبيَّ الجرائد، الذي دفعَ حُزمة من الجرائد المسائية من خلال القضبان الحديدية وابتعد مرة أخرى. انتظر تارلينج حتى سمع باب الكوخ يُغلَق. بعد ذلك دار حول المنزل، على أمل العثور على مدخل آخر. من الواضح أنه كان هناك مدخلٌ للخدم في الخلف، يؤدي من الممر، لكن هذا أيضًا كان مغلقًا. ألقى ضوء المصباح لأعلى، ورأى أنه لا يوجد زجاج مكسور فوق الجدار، كما كان موجودًا في الجزء الأمامي من المنزل، فقفز لأعلى، وأمسك الجدار من أعلى ثم سحب نفسه لأعلى.

سقط في الظلام في الناحية الأخرى دون أن يؤذيَ نفسه، وشقَّ طريقه الحَذِرَ نحو المنزل. كانت الكلاب هي موطنَ الخطورة، ولكن يبدو أن السيدة رايدر لم تحتفظ بكلاب، وتقدَّم دون أيِّ تعطيل.

لم يرَ أيَّ ضوء سواءٌ في النوافذ العلوية أو السفلية حتى وصل إلى الباحة الخلفية. كانت هناك شُرفة ذات أعمدة، بُنِيَ فوقها ما يبدو أنه غرفة زجاجية مشمسة. وتحت الشُّرفة كان هناك باب ونافذة ذات قضبان، ولكن كان ثمة ضوء خافت ينبعث من الغرفة الزجاجية العلوية. نظر حوله بحثًا عن سُلَّم دون جدوى. لكن الشرفة لم تُمثل له أيَّ صعوبات أكثر مما مثَّله الجدار. من خلال الصعود على عتبة النافذة وتثبيت نفسِه على

أحد الأعمدة، استطاع أن يصل إلى دعامة حديدية، مِن الواضح أنها وُضِعَت لدعم إطار البِنْية الفوقية. من هنا إلى حاجز الغرفة الزجاجية نفسِه كان الأمرُ لا يتطلب منه سِوى التأرجُح. كانت هذه الغرفة الزجاجية بنوافذَ بابيَّةٍ، وكانت إحداها مفتوحة، واتَّكأ على مِرفقَيْه وأدخلَ رأسه بحذر.

كان المكان خاليًا. وكان الضوء ينبعث من غرفة داخلية تنفتح على الشرفة المحميَّة بالزجاج. سرعان ما تسلل من خلال النوافذ وانكمش في ظلِّ شجرة دفلى كبيرة. كان جوُّ الغرفة الزجاجية خانقًا وكانت الرائحة ترابية. لقد حكَم من مواسير الماء الساخن التي شعرت بها يداه المتلمِّستان أنها كانت حديقةً شتائية صغيرة أقامتها صاحبةُ المنزل للتمتُّع بها في الأيام المظلمة الباردة. كان ثَمة نوافذُ فرنسية تؤدي إلى الغرفة الداخلية، واختلس تارلينج النظرَ من خلال الستائر التي تُغطي النوافذ البابية، فرأى السيدة رايدر. كانت تجلس إلى مكتبٍ وفي يدها قلمٌ وقد وضعَت أناملها على ذقنها. لم تكن تكتب، بل كانت تُحدِّق في الحائط بنظرة فارغة كما لو كانت في حيرةٍ من أمرها ولا تدري ماذا تقول.

كان الضوء صادرًا من مِشكاةٍ كبيرة من المرمر معلَّقة أسفل مستوى السقف بقدَم، وأعطت المحققَ فرصةً لإجراء فحص سريع للغرفة. كان أثاث الغرفة بسيطًا وإن كان ذا ذوقٍ راقٍ، وكانت تبدو كغرفة مكتب. بجانب مكتبها كانت توجد خزنة خضراء، نِصفُها في الحائط ونصفُها مكشوف. كان هناك عددٌ قليل من المطبوعات معلَّق على الجدران، وكرسيٌّ أو اثنان، وأريكةٌ نصف مخفية عن زاوية رؤية المحقق، وهذا كل شيء. كان يتوقع أن يرى أوديت رايدر مع والدتها وشعر بخيبةِ أمل. لم تكن السيدة رايدر وحدَها فحسب، بل أعطته أيضًا الانطباع بأنها كانت وحيدةً في المنزل.

جثا تارلينج وهو يُراقبها لمدة عشر دقائق حتى سمعَ صوتًا في الخارج. تسلَّلَ إلى الوراء بهدوء ونظرَ إلى حافة الشرفة في الوقت المناسب ليرى شخصًا يتحرك بسرعة على طول المسار. كان يركب دراجة لا تحمل ضوءًا. وعلى الرغم من أنه أجهد عينيه، إلا أنه لم يستطِع تحديد ما إذا كان الراكبُ رجلًا أو امرأة. اختفى تحت الشرفة وسمعَ صريرَ الدراجة بينما كانت تركن إلى أحد الأعمدة، ثم سمعَ صوت مفتاح في القفل وصوتَ باب يُفتَح. بعد ذلك تسلَّلَ مرة أخرى إلى موقع المراقبة الخاصِّ به الذي يُطل على المكتب.

من الواضح أنَّ السيدة رايدر لم تسمع صوتَ فتح الباب في الأسفل، وكانت لا تزال تجلس ساكنةً بلا حركة تُحدِّق في الحائط أمامها. وفجأةً جفلت ونظرَت نحو الباب. ولاحظَ تارلينج الباب — كما لاحظ أيضًا المفتاحَ الكهربائي من زاوية رؤيته. ثم فُتِحَ

الباب ببطء. ورأى وجه السيدة رايدر يُضيء بالسعادة، ثم سألَ أحدَهم سؤالًا بصوتٍ هامس، وأجابت — أمكنه فقط سماع كلماتها:

«لا يا حبيبي، لا أحد.»

حبسَ تارلينج أنفاسه وانتظر. ثم، فجأة، انطفأ نور الغرفة. أيًّا كان مَنْ دخل فقد أطفأ النور. سمعَ صوت أقدام خفيفة قادمة نحو النافذة ونظرَ في الغرفة الزجاجية ثم سمعَ صوت الستائر وهي تُسدَل. ثم أُضيءَ النورُ مرة أخرى، لكنه لم يستطِع أن يرى شيئًا أو يسمع شيئًا.

مَنْ كان الزائرُ الغامض للسيدة رايدر؟ كانت هناك طريقة واحدة فقط ليكتشف، لكنه انتظر لفترةٍ أطول قليلًا — انتظر، في الواقع، حتى سمع صوتَ إغلاق باب الخزنة بهدوء — قبل أن يتسلل مرة أخرى من خلال النافذة وينزل على الأرض.

كانت الدراجة، كما توقَّع، مركونةً إلى أحد الأعمدة. لم يستطِع رؤية أي شيء، ولم يجرؤ على إضاءة مصباحه، لكن أنامله الحسَّاسة سارت فوق خطوطها، وبالكاد ندَّت منه صيحةُ تعجُّب. كانت دراجة نسائية!

انتظرَ قليلًا، ثم انسحبَ إلى شجيراتٍ مقابل الباب على الجانب الآخر من المسار الذي أتى منه راكبُ الدراجة. لم يُضطَر إلى الانتظار طويلًا قبل أن يُفتَح الباب تحت الشرفة مرة أخرى ويُغلَق. قفزَ شخصٌ ما إلى الدراجة بينما قفزَ تارلينج من موضع اختبائه. وضغطَ على مفتاح مصباحه الكهربائي، لكن لسببٍ ما لم يعمل. شعر برعشة مفاجئة من الشخص الذي كان يركب الدراجة.

قال تارلينج: «أريدك.» ومدَّ يديه.

أخطأَ الراكبُ بجزءٍ من البوصة، لكنه رأى الدراجة تنحرف وسمع صوتَ اصطدام شيء بالأرض. بعد ثانية واحدة اختفت الدراجة والراكب في الظلام الدامس.

أعادَ تشغيل مصباحه. كان يعرف أنَّ المطاردة عديمة الفائدة من دون المصباح، وبينما كان يلعنُ صانعه، وضعَ بطاريةً أخرى، وسلَّطَ الضوءَ على الأرض ليرى الشيء الذي أسقطَه الهارب. ظنَّ أنه سمعَ شهقةَ تعجُّبٍ مخنوقةً من ورائه واستدار. ولكن لم يظهر أحدٌ داخل نطاق إضاءة مصباحه. اعتقد أنه لا بدَّ قد فقد أعصابه، ثم واصل فحصه للمحفظة.

كانت محفظةً جلدية طويلة، طولها حوالي عشر بوصات وعمقها خمس بوصات، وكانت ثقيلة على نحوٍ غريب. التقطها وتحسَّس الإبزيم، وعثر بدلًا منه على قفلين صغيرين. قام بفحصٍ آخرَ على ضوء مصباحه، وهو فحصٌ قاطعه اعتراضٌ من فوق.

«مَنْ أنت؟»

كان صوتَ السيدة رايدر، وكان من غير المناسب بالنسبة إليه في هذا التوقيت بالذات أن يكشف عن نفسه. ودون أن يُحيرَ جوابًا، أطفأ نور المصباح وتسلل إلى الشجيرات، ومستعينًا بغريزته أكثرَ من حُسن تقديره استطاع أن يصل إلى السور، تقريبًا عند البقعة نفسها التي عبَر من فوقها.

كان الطريقُ خاليًا ولم يكن هناك أيُّ أثر لراكب الدراجة. كان هناك شيء واحد فقط للقيام به، وهو العودة إلى المدينة في أسرع وقت ممكن، وفحصُ محتويات المحفظة بحريته. كانت ثقيلةً للغاية بالنسبة إلى حجمها، ذكَّره بهذه الحقيقة جيبُه المتدلِّي.

بدا الطريق إلى هيرتفورد لا نهاية له والساعات كانت تدقُّ الحادية عشرة إلا الربع عندما دخل ساحة المحطة.

قال موظف السكة الحديد: «أتريد القطار المتجه إلى لندن يا سيدي؟» ثم أردفَ: «لقد فاتك آخرُ قطار إلى لندن بخمس دقائق!»

الفصل الثالث والعشرون

زائر الليل

لم يكن تارلينج في مُعضلةٍ بقدرِ ما كان في حالة من عدم اليقين نتجَت عن عدم امتلاكه خُططًا محدَّدة بطريقة أو بأخرى. لم يكن ثمة ضرورةٌ مُلحَّة لعودته إلى المدينة وكان انزعاجه من أنه وجدَ آخر قطار قد رحلَ ناجمًا عن رغبته الطبيعية في النوم في فراشه أكثرَ من أي سبب آخر. كان بإمكانه أن يحصل على سيارةٍ من مَرأب محلي، وينتقل إلى لندن، إذا كانت لديه أيُّ ضرورة معينة، لكنه قال لنفسه إنه قد يقضي الليلةَ في هيرتفورد كما في شارع بوند.

إذا كانت لديه أيُّ ميول للبقاء في هيرتفورد، فذلك لأنه كان حريصًا على فحص محتويات المحفظة بحرِّيته. ولو كانت لديه رغبةٌ في العودة إلى المدينة فربما يكون ذلك لقلقِه على ما حدث لأوديت رايدر؛ سواءٌ كانت قد عادت إلى فندقها أو كانت لا تزال في عداد «المفقودين» من قِبَل الشرطة. يُمكنه، على أي حال، التواصلُ مع سكوتلاند يارد وطمأنةُ عقلِه في هذه النقطة. عاد من المحطة بحثًا عن مكانٍ لَمبيته. وسرعان ما وجد أن الحصول على غرفةٍ لم يكن بهذه السهولة كما كان يتخيَّل. كان أفضل فندق في المكان مزدحمًا نتيجةً لعقدِ اتفاقيةٍ زراعية في المدينة. ومن ثمَّ، جرى إرساله إلى فندقٍ آخر، فقط ليجد أن به الوضعَ نفسَه من الازدحام، وأخيرًا بعد بحثٍ لمدة نصف الساعة وجد سكنًا في فندقٍ تجاري صغير كان خاليًا على نحوٍ غيرِ متوقَّع.

كانت خطوته الأولى هي التواصلَ مع لندن، وقد تمَّ ذلك دون تأخير. لم يُسمَع أيُّ شيء عن أوديت رايدر، وكان الخبر الوحيد المهم هو أن المُدان السابق، سام ستاي، كان قد هربَ من مصحة المرضى العقليِّين التي جرى ترحيلُه إليها بالمقاطعة.

صعدَ تارلينج إلى غرفة الجلوس الواسعة. كان مهتمًّا إلى حَدٍّ ما بأخبار ستاي؛ لأن الرجل كان مخيبًا للآمال. هذا المجرم، الذي كان حبُّه لثورنتون لاين، كما ظنَّ تارلينج وكان محقًّا في ظنه، مسئولًا عن انهياره العقلي، كان من الممكن أن يُوفِّر قدرًا هائلًا من المعلومات المتعلقة بالأحداث التي أدَّت إلى يوم القتل، وقد أدى انهياره الدراماتيكي إلى إزالة شاهِد كان من الممكن أن يُقدم مساعدةً ملموسة للشرطة.

أغلقَ تارلينج بابَ غرفة جلوسه خلفه، وسحب المحفظة من جيبه ووضعها على المنضدة. حاول أولًا بمفاتيحه أن يفتح الأقفال، لكنها عاكسَتْه. أدهشَه ثِقلُ المحفظة وحيَّره، ولكنه كان على وشك أن يجد سريعًا تفسيرًا لثقلها غيرِ العادي. فتح سكين جيبه وبدأ يقطع الجلد حول الأقفال، وندَّت منه صيحةُ تعجُّب.

إذن فهذا هو سبب ثقل المحفظة — كانت فقط مغطَّاة بالجلد! وتحت هذا الغطاء كانت هناك محفظةٌ من الفولاذ الفاخر. كانت المحفظة في الحقيقة عبارةً عن حقيبة من السلاسل الفولاذية، وقد لُحِمَت الأقفال بالسلاسل وأصبح من المستحيل إزالتُها. ألقى المحفظة مرة أخرى على المنضدة ضاحكًا. يجب أن يكبح فضوله حتى يعود إلى سكوتلاند يارد، حيث يستطيع الخبراءُ ببساطة فتْحَ أفضلِ الأقفال التي جرى اختراعها على الإطلاق. بينما كان يجلس محدقًا في هذا الشيء الجاثمِ على المنضدة ويُقلِّب في ذهنه إمكانيات محتوياته، سمع وقْعَ خطوات تمرُّ أمام بابه وتصعد السُّلَّم المقابلَ لمكان غرفة جلوسه. وفكَّر أنهم نزلاءُ في نفس المحنة التي يعيشها هو.

بطريقةٍ ما، لكونه في غرفة غريبة وسط محيطٍ غير مألوف، أعطى القضيةَ وجهةً جديدة. لقد كانت وجهة عدم الواقعية. كانت كلُّ شخصيات هذه الدراما الغريبة غيرَ واقعية بالمرة.

بدا ثورنتون لاين خياليًّا، وكانت نهايته خيالية بالفعل. ميلبرج، بابتسامته الدائمة، وانحنائه البسيط، ووجهه الضخم السمين ورأسه نصف الأصلع؛ والسيدة رايدر، شبحٌ شاحبٌ لامرأة دخلت القصة وخرجَت من القصة، أو بالأحرى تحوم حولها، دون أن يبدوَ أنها تتدخل فيها على الإطلاق، ومع ذلك لم تنفصل عن سيرتها التراجيدية بالكامل مطلقًا؛ لينج تشو، الذي لا يتزعزع، والذي يجلب معه أجواءَ أرض المؤامرات والغموض والدافع، الصين. كانت أوديت رايدر وحدها هي الحقيقية. كانت مُفعمةً بالحياة والدفء والنبضِ والجمال.

عبَسَ تارلينج ونهض بعصبيةٍ من كرسيِّه. احتقرَ نفسه قليلًا على هذا الضعف. أوديت رايدر! امرأة لا تزال في دائرة الاشتباه لارتكابِ جريمة قتل، امرأة كان من واجبه،

إذا كانت مذنبة، أن يوصلها إلى حبل المشنقة، وكان مجرد التفكير فيها يُشعره بالحر والبرد في آنٍ واحد!

مرَّ إلى غرفة نومه الملحقة بغرفة الجلوس، ووضع المحفظة على منضدة بجوار سريره، وأوصدَ باب غرفة النوم، وفتح النوافذ وجهَّز نفسه، بأفضلِ ما يُمكنه، لليلة.

كان هناك قطار يُغادر هيرتفورد في الخامسة صباحًا وقد رتَّب أن يجريَ الاتصالُ به في الوقت المناسب للَّحاق به. خلع حذاءه، ومعطفه، وصدرته، وقميصه وربطة عنقه، وفكَّ حزامه — كان أحد هؤلاء غريبي الأطوار الذين كانت دعائم الحضارة بالنسبة إليهم لعنةً — واستلقى على السرير من الخارج، ساحبًا الغطاء فوقه. لم يأتِه النوم بسهولة. كان يتقلب على جنبيه، ويفكر ويفكر ويفكر.

لنفترض أنه كان هناك خطأٌ ما في وقت وقوع الحادث في آشفورد، لنفترض أن الأطباء كانوا مخطئين وأن ثورنتون لاين قُتِل في ساعة سابقة، لنفترض أن أوديت رايدر كانت في الحقيقة ... بدمٍ بارد. طرد الفكرة بعيدًا.

سمع ساعة الكنيسة تدق الثانية وانتظر بفارغ الصبر أن تدق عند ربع الساعة — كان يستمع إلى كل ربع ساعة منذ أن رقد في السرير. لكنه لم يسمع ذلك الربع. لا بد أنه قد وقع في نومٍ مضطرب؛ لأنه بدأ يحلم. حلم أنه كان في الصين مرةً أخرى ووقع في أيدي تلك العصابة البغيضة؛ «القلوب المبهجة». كان في معبد، ممددًا على لوحٍ أسودَ كبيرٍ من الحجر، وقد قُيِّدَت يداه وقدماه، ورأى فوقه زعيم العصابة، وفي يده سكين، وهو يُحدِّق في وجهه بابتسامةٍ خبيثة — وكان وجه أوديت رايدر! رأى السكين مرفوعة واستيقظ وهو يتصبَّب عرقًا.

كانت ساعة الكنيسة تعلن أنها الثالثة وكان صمتٌ عميق يُخيِّم على العالم. لكن كان هناك شخصٌ ما في غرفته. عرَف ذلك وظلَّ بلا حَراك، يُحدِّق بعيونٍ نصف مفتوحة من زاوية إلى أخرى. لم يكن هناك أحدٌ ليراه، ولا شيءٌ ليسمَعَه، ولكن حاسته السادسة أخبرته أنَّ هناك شخصًا ما موجودًا. مدَّ يده بحرصٍ وبصمت إلى المنضدة وبحث عن المحفظة. كانت قد اختفت!

ثم سمعَ صرير لوحٍ وجاء من اتجاه الباب المؤدي إلى غرفة الجلوس. بقفزة واحدة نهض من السرير في الوقت المناسب ليرى الباب يُفتَح والشخص يتسلَّل عبره. وتبعه في لحظة. كان من الممكن أن يهرب السارقُ، لكنه سمع صوتَ اصطدام وصرخة غير

متوقَّعَين. لقد سقط على كرسيٍّ وقبل أن يتمكَّن من النهوض، كان تارلينج فوقه وأعاده مرة أخرى. قفز تارلينج إلى الباب، وكان مفتوحًا. فخبطه بقوة وأغلقه، ثم أدار المفتاح.

قال تارلينج بتجهُّم: «الآن، دعنا نُلقِ نظرةً عليك.» ثم أضاء النور.

سقطَ على الباب فاغرًا فاه في دهشة؛ إذ كان الدخيل هو أوديت رايدر، وكانت تحملُ في يدها المحفظة المسروقة.

الفصل الرابع والعشرون

اعترافُ أوديت رايدر

لم يَسعه إلا التحديقَ فيها بصمتٍ مذهول.

قال متعجبًا: «أنتِ!»

كانت الفتاة شاحبةً وعيناها لم تُفارق وجهه.

أومأت برأسها.

قالت بصوتٍ منخفض: «نعم، أنا.»

قال مرةً أخرى وهو يسير نحوها: «أنتِ!»

مدَّ يده وأعطتُه المحفظة دون أن ينبس ببنتِ شفة.

قال برقَّة: «اجلسي.»

كان يعتقد أنها على وشك الإغماء.

«أتمنى ألا أكونَ قد آذيتُكِ؟ لم تكن لديَّ أدنى فكرة ...»

هزَّت رأسها.

قالت بإعياء: «أوه، أنا لم أتأذَّ، لم أتأذَّ بالطريقةِ التي تقصدُها.»

سحبَت كرسيًّا إلى المنضدة وأسقطت وجهها على يديها ووقف هو بجوارها، محرَجًا، بل مذعورًا، من هذا التطور غيرِ المتوقَّع.

قال أخيرًا: «إذن كنتِ أنتِ الزائرَ راكبَ الدراجة. لم أشكَّ ...»

فُوجِئ في تلك اللحظة بأنَّ ذَهاب أوديت رايدر إلى بيت والدتها على دراجةٍ لم يكن جريمةً، ولا حتى أخذها محفظة، كانت في الغالب مِلكَها. إذا كانت هناك أيُّ جريمة في الأساس، فقد كان هو مَن ارتكبها بأن احتفظَ بشيءٍ ليس له الحقُّ فيه. نظرَت إليه عند سماع كلماته.

سألت: «أنا؟ على الدراجة؟ لا، لم يكن أنا.»

«ليس أنتِ؟»

هزَّت رأسها.

قالت بضعف: «كنت على الأرض — رأيتُك تستخدم مصباحك وكنتُ قريبة جدًّا منك عندما التقطتَ المحفظة، ولكنني لم أكن على الدراجة.»

سأل: «مَنْ كان؟»

هزَّت رأسها.

قالت: «هل لي بذلك من فضلك؟»

مدَّت يدها وتردَّد.

رغم كل شيء، لم يكن لديه أيُّ حق في هذه المحفظة الغريبة. وصل إلى حلٍّ وسطٍ بأنْ وضعها على المنضدة ولم تُحاول هي أن تأخذَها.

قال بلطفٍ وهو يدور حولها واضعًا يده على كتفها: «أوديت!» ثم تابعَ: «لِمَ لا تُخبرينني؟»

سألت، دون أن تنظر إليه: «بماذا أخبرك؟»

قال: «أخبريني بكل ما يمكن أن تُخبريني به.» ثم أردفَ: «يمكنني مساعدتُكِ. أريد أن أساعدكِ.»

نظرت إليه.

سألت ببساطة: «لماذا تريد أن تساعدني؟»

كان معقودَ اللسان لثانية.

قال بصوتٍ مرتعش: «لأني أُحبكِ.»

لم يبدُ له أنه هو مَنْ يتحدث. جاءت الكلمات من تلقاء نفسِها. لم تكن لديه أيُّ نية لإخبارها بأنه يحبُّها، بل في الواقع لم تكن لديه أي فكرة أنه يُحبها، أكثر مما كان لدى وايتسايد. ومع ذلك، كان يعرف أنه قال الحقيقةَ وأن قوةً أعظم منه صاغت الكلماتِ ووضعَتها على شفتَيه.

بدا تأثيرُ كلماته على الفتاة غيرَ عاديٍّ بالنسبة إليه. لم تنكمش مبتعِدة، ولم يبدُ عليها أنها فوجِئَت. ولم تُظهِر أيَّ دهشة على الإطلاق. كلُّ ما فعلته أنها أعادت عينيها إلى المنضدة وقالت: «أوه!»

هذا القبولُ الهادئ على نحوٍ عجيبٍ لحقيقةٍ لم يجرؤ تارلينج على أن يتنفَّس بها لنفسِه، كان الصدمةَ الثانية في هذا المساء.

كان الأمر كما لو كانت تعرف ذلك طَوالَ الوقت. كان جاثمًا على ركبتَيه بجانبها وذراعه حولَ كتفيها، حتى قبل أن يُريد عقله تنفيذ هذا الفعل.

قال برقَّة: «فتاتي، يا فتاتي.» ثم أردفَ: «هَلا أخبرتِني من فضلك؟»

كان رأسُها لا يزال منحنيًا وكان صوتُها منخفضًا جدًّا لدرجةِ أنه يكاد يكون غيرَ مسموع.

سألت: «بماذا أخبرك؟»

قال: «بما تعرفينه عن هذا الأمر.» ثم أضافَ: «ألا تُدركين أنَّ كل تطور جديد يُدخلك أكثرَ وأكثر في دائرة الشك؟»

«أيَّ أمرٍ تقصد؟»

تردَّد.

«مقتل ثورنتون لاين؟ لا أعرف شيئًا عن ذلك.»

لم تستجِب لذراعه الرقيقة التي كانت تُطوِّق كتفَيها، لكنها جلست جامدة. شيءٌ ما في موقفها جَمَّدَ الدمَ في عروقه، فترك يدها ونهض. عندما نظرت إلى الأعلى رأت أن وجهه أصبح جامدًا وتحوَّل إلى اللون الأبيض. مشى إلى الباب وفتحه.

قالَ بهدوءٍ: «لن أسألَكِ بعد الآن.» ثم واصلَ كلامه: «أنتِ تعرفين تمام المعرفة سببَ مجيئك لي الليلة — أفترض أنكِ تَبِعتِني وحجزتِ غرفة. سمعتُ شخصًا ما يصعد إلى الطابق العلوي بعد وصولي بوقتٍ قصير.»

أومأَت برأسها.

سألت وهي تُشير إلى المحفظة على المنضدة: «هل تريد هذه؟»

«خُذيها معك.»

نهضت على قدميها بغير ثبات وترنَّحَت نحوه. في ثانية كان بجانبها وذراعاه تُطوِّقانها. لم تُقاوم على الإطلاق، بل بالأحرى شعر بخضوعها له، وهو ما لم يشعر به من قبل. رفعت وجهها الشاحب ناظرةً إلى وجهه، فانحنى وقبَّلها.

همسَ: «أوديت! أوديت!» ثم قالَ: «ألا تُدركين أني أحبك ومستعدٌّ لأن أضحِّيَ بحياتي لإنقاذكِ من التعاسة؟ هَلا أخبرتِني بكل شيء من فضلك؟»

تمتمَت بصوتٍ مخنوق وكأنها على وشك البكاء: «لا، لا، لا.» ثم قالت: «أرجوك لا تسألني! أنا خائفة. أوه، أنا خائفة!»

سحقَها بين ذراعيه، وخدُّه يُلامس خدها، وشفتاه تُداعبان شعرها الناعم.

قال بلهفة: «لكن ليس هناك ما تخافين منه، لا شيء على الإطلاق.» ثم أردفَ: «إذا كنتِ مذنبةً كالجحيم، فسوف أُنقذكِ! إذا كنتِ تحمين شخصًا ما، فسوف أحميه من أجلكِ لأنني أحبكِ يا أوديت!»

بكت وهي تدفعه إلى الوراء، وكلتا يديها الصغيرتين تضغط على صدره: «لا، لا!» ثم قالت: «لا تسألني، لا تسألني ...»

«اسألني أنا!»

التفتَ تارلينج للخلف. كان هناك رجلٌ يقف لدى الباب، وهو يكاد يُغلق الباب خلفه.

قال مِن بين أسنانه: «ميلبرج!»

ابتسمَ الآخرُ باستهزاءٍ وقال: «ميلبرج!» ثم تابعَ: «أنا آسفٌ لمقاطعة هذا المشهد الجميل، ولكن الوضع مُلِحٌّ ولا أستطيع تحمُّل الوقوف متفرجًا في هدوء يا سيد تارلينج.»

تركَ تارلينج الفتاة ونظرَ إلى المدير المبتسِم. وبنظرة واحدة شاملة وجهَّها إليه المحقِّق، لاحظَ حذاءَ ركوب الدراجات وبُقَع الوحل على سرواله، وفَهِم.

قال: «إذن كنتَ أنت قائدَ الدراجة، ها؟»

قال ميلبرج: «هذا صحيح، إنه تمرينٌ أنا مُولَع به بشدة.»

سألَ تارلينج بانتباهٍ ويقظة: «ماذا تريد؟»

قال ميلبرج بنعومة: «أريدك أن تفيَ بوعدك يا سيد تارلينج.»

حدَّقَ تارلينج في وجهه.

وقال: «وعدي، أيُّ وعد؟»

«وعدُك بحماية ليس فقط مرتكب الجريمة، ولكن أولئك الذين خاطَروا بسُمعتهم في محاولة لحماية مرتكب الجريمة من جريمته.»

جفَلَ تارلينج.

قال بصوتٍ أجشَّ: «هل تقصد أن تقول ...» ثم أضافَ: «هل تقصد اتِّهام ...؟»

قال ميلبرج ملوحًا بيدَيه: «أنا لا أتهم أحدًا.» ثم أردفَ: «كل ما هنالك أنني والآنسة رايدر في مشكلة خطيرة، وأنت لديك السلطة لإخراجنا بأمانٍ من هذا البلد إلى بلدٍ لا تُطبَّق فيه قوانينُ التسليم.»

اتخذَ تارلينج خطوةً واحدة تجاهه، فتراجعَ ميلبرج منكمشًا.

سألَ: «هل تتهمُ الآنسة رايدر بالتواطؤ في جريمة القتل هذه؟»

ابتسمَ ميلبرج، لكنها كانت ابتسامةً غيرَ مريحة.

قال: «لا أتهم، وبخصوص القتل؟» هزَّ كتفيه واستطرد: «ستفهمُ على نحوٍ أفضل عندما تقرأ محتوياتِ تلك المحفظة التي كنتُ أحاول نقلها إلى مكانٍ آمن.»

التقطَ تارلينج المحفظة من على الطاولة ونظرَ إليها.

وقال: «سأرى محتويات هذه المحفظة غدًا.» ثم أضافَ: «سوف تتراجع صعوبةُ إزالة الأقفال كثيرًا.»

قال ميلبرج بنعومة: «يمكنك قراءة المحتويات الليلة.» وأخرجَ من جيبه سلسلةً تتدلَّى في نهايتها حَفنةٌ صغيرة من المفاتيح. وقال: «هذا هو المفتاح. افتحها واقرأ الليلة.»

أخذَ تارلينج المفتاح في يده، وأدخله في أول قفل صغير ثم في الآخر. انفتح القفل، فألقى الغطاء للخلف. ثم انتزعت يَدٌ المحفظةَ منه واستدار ليرى وجه الفتاة المرتجفَ وقرأ الرعب في عينيها.

صرخَت وهي تكاد لا تتمالك نفسها: «لا، لا، بالله عليك، لا!»

تراجعَ تارلينج. رأى الابتسامة الصغيرة الخبيثة على وجه ميلبرج وكادَ يُوسِعُه ضربًا.

وقال: «الآنسة رايدر لا تُريدني أن أرى ما في هذه المحفظة.»

سخرَ ميلبرج: «ولسببٍ وجيه.»

«تفضَّل!»

كان صوتُ الفتاة واضحًا وثابتًا على نحوٍ مدهش. أمسكت يداها المرتجفتان بالورقة التي أخذتها من المحفظة وقدَّمتها إلى المحقق.

قالت بصوتٍ منخفض: «هناك سبب.» ثم استدركت: «لكنه ليس السببَ الذي تقترحه.»

لقد ذهبَ ميلبرج بعيدًا جدًّا. رأى تارلينج وجهه يزدادُ طولًا ورأى نظرة الخوف في عينَيه الزرقاوين الباردتين. ثم، دون مزيدٍ من التردد، فتحَ الورقة وقرأ.

سلبَه السطرُ الأول أنفاسه.

اعترافُ أوديت رايدر.

تمتم: «يا إلهي!» ثم واصلَ القراءة. لم يكن هناك سوى ستةِ سطور مكتوبة بالخط الثابت للفتاة.

أنا، أوديت رايدر، أعترف بموجب هذه الوثيقة أنني كنتُ أسرق شركةَ متاجر لاين المحدودة لمدة ثلاث سنوات، وخلال تلك الفترة حصلتُ على مبلغ ٢٥٠٠٠ جنيه إسترليني.

أسقطَ تارلينج الورقةَ وأمسكَ بالفتاة وهي تسقط فاقدةً الوعي.

الفصل الخامس والعشرون

خدعة ميلبرج الأخيرة

لقد تمادى ميلبرج للغاية. كان يأمُل أن يستمر في هذا المشهد دون الكشفِ الفعليِّ عن الاعتراف. لقد اكتشف بدهائه وذكائه قبل تارلينج نفسِه، أن المحقِّق القادم من شنغهاي، هذا الوريث لملايين لاين، قد سقَطَ تحت سحر جمال الفتاة، وكل تخميناته قد أكدها المشهدُ الذي شاهده، بقدر ما أكَّدَتها المحادثة التي تنصَّت عليها قبل فتح الباب.

كان يبحث عن الحصانة والأمان. كان الرجل في حالةِ ذعرٍ رغم أن تارلينج لم يُدرك ذلك، وكان يقوم بمحاولته اليائسة الأخيرة لإنقاذ الحياة التي أحبَّها، حياة السهولة والراحة لضمان ما خاطر به كثيرًا.

كان ميلبرج يعيش في رعبٍ من أن تخونه أوديت رايدر، وبسبب خوفه المذعور من أنها أبلغَت المحقِّق بكل شيء في تلك الليلة التي أعادها فيها إلى لندن من آشفورد، كان قد تجرَّأ على محاولة إسكات الرجل الذي يعتقد أنه يتمتع بثقة الفتاة.

تلك الطلقات في الليلة الضبابية التي كادت أن تُنهيَ مسيرة جاك تارلينج كان لها تفسيرُها في ذُعر ميلبرج من أن ينفضح أمره. شخصٌ واحد في العالم، شخص واحد حي، يمكنه أن يضعَه في قفص الجناة، وإذا خانته ...

حملَ تارلينج الفتاة إلى أريكةٍ وأرقدها عليها. وذهبَ بسرعة إلى غرفة نومه، وأضاءَ النور لإحضار كوبٍ من الماء. كانت هذه فرصةَ ميلبرج. كانت ثَمة مدفأة صغيرة تشتعل فيها النار في غرفة الجلوس. سرعان ما التقطَ الاعتراف من الأرض ودفعه في جيبه.

كانت توجد طاولةٌ صغيرة للكتابة. أخذ منها ورقةً من أوراق الفندق، وجعَّدها وألقاها في النار. كانت النيران تشتعل فيها عندما عادَ تارلينج.

سأَلَه: «ماذا تفعل؟» ووقفَ بجانب الأريكة.

قال ميلبرج بهدوء: «أحرقُ اعترافَ الفتاة.» ثم أردفَ: «لا أعتقد أنه مرغوب فيه لمصلحة ...»

قال تارلينج بهدوء: «انتظر.»

أنزلَ رأسَ الفتاة ورشَّ بعض الماء على وجهها، ففتحت عينَيها بقُشَعريرة.

تركها تارلينج لمدة ثانية وسارَ إلى النار. كانت الورقة قد احترقت ما عدا جزءًا من حافتها لم تمسَّه النار، وباستخدام هذا الجزء رفعَها بحذر شديد، ونظرَ إليها للحظة، ثم دارَ بعينيه في أنحاء الغرفة. رأى أنَّ طاولة الكتابة قد بُعثِرَت محتوياتها وضحكَ. لم تكن ضحكةَ سعادة أو استمتاع.

قال: «هذه هي الفكرة، ها؟» ومشى إلى الباب وأغلقه ووقفَ وظهره له.

«الآن يا ميلبرج يُمكنك أن تُعطيني هذا الاعتراف الذي وضعتَه في جيبك.»

«لقد أحرقتُه يا سيد تارلينج.»

قال تارلينج بهدوء: «أنت كاذب.» ثم أردفَ: «كنتَ تعلم جيدًا أنني لن أسمح لك بأن تخرج من هذه الغرفة بهذا الاعتراف في جيبك وحاولتَ خداعي بحرقِ ورقة كتابة. أريدُ هذا الاعتراف.»

بدأ ميلبرج: «أؤكِّد لك ...»

قال تارلينج بابتسامةٍ صفراء: «أريد هذا الاعتراف.» وضعَ ميلبرج يده في جيبه وأخرجَ الورقة المجعَّدة.

قال تارلينج: «الآن، إذا كنتَ متشوقًا لرؤيتها تحترق، فستحظى بهذه الفرصة.»

قرأَ الاعترافَ مرة أخرى ثم وضعَه في النار وراقبَه حتى تحوَّل إلى رماد، ثم بعثرَ الرمادَ بقضيبِ تَذْكية النار.

قال تارلينج بانتشاء: «هذا كلُّ شيء.»

قال ميلبرج: «أعتقد أنك تعرف ما فعلتَه.» ثم أضافَ: «لقد دمَّرت دليلًا كان من المفترض بصفتِك منفِّذًا للقانون ...»

أجابَ تارلينج باقتضاب: «كُفَّ عن هذا.»

للمرة الثانية في تلك الليلة، فتحَ البابَ على مِصراعَيه.

وقال: «ميلبرج، يُمكنك الذَّهاب. أعرفُ أين يُمكنني أن أجدك عندما أريدك.»

قال ميلبرج: «سوف تندمُ على هذا.»

ردَّ تارلينج: «ليس بنصفِ مقدار أسفِك حين أنتهي منك.»

ابيضَّ وجه الرجل من الغضب وقال: «سأذهب مباشرةً إلى سكوتلاند يارد.»

قال المحقِّق بهدوء: «افعل، بالطبع تفضَّل. وكن كريمًا بما يكفي لأن تُخبرهم بأن يحتجزوك حتى آتي.»

بهذا الردِّ الناري أغلق البابَ خلف الرجل المنسحب.

كانت الفتاة جالسة الآن على حافة الأريكة، وعيناها الجميلتان تتفحَّصان الرجلَ الذي أحبَّها.

سألت: «ماذا فعلتَ؟»

قال تارلينج ببهجة: «لقد دمَّرتُ اعترافَكِ الثمين.» ثم واصلَ حديثه: «خطرَ ببالي في تلك الفترة الزمنية التي استغرقتُها في الذَّهاب من هنا إلى الحوض لإحضار الماء أنَّ ذلك الاعتراف ربما كان تحت ضغط. أنا محق، أليس كذلك؟»

أومأت برأسها.

«الآن، فلتنتظري هناك قليلًا حتى أُهندم نفسي لأوصلكِ إلى البيت.»

قالت الفتاة بذهول: «توصلني إلى البيت؟» ثم أردفت: «ليس لأمي، لا، لا. يجب ألا تعرفَ أبدًا.»

قال تارلينج بابتسامةٍ صغيرة: «على العكس من ذلك، يجب أن تعرف. لا أعرف ما الذي يجب ألَّا تعرفه، ولكن كان هناك الكثير جدًّا من الغموض بالفعل، وهذا لن يستمر.»

نهضت وسارت إلى المدفأة، ووضعَت مرفقيها على رف المدفأة، ورأسها إلى الوراء.

قالت: «سأُخبرك بكلِّ ما أستطيع. ربما أنت على حق.» ثم أضافت: «كان هناك الكثيرُ من الغموض. لقد سألتَني ذات مرة مَنْ يكون ميلبرج.»

استدارت وواجهته بنصف وجهها.

قال بهدوء: «لن أطرحَ عليك ذلك السؤالَ بعد الآن، أنا أعرف!»

«تعرف؟»

«نعم، ميلبرج هو زوج والدتك الثاني.»

اتسعَت عيناها دهشة.

«كيف اكتشفت ذلك؟»

ابتسم وقال: «لقد خمَّنتُ ذلك، واحتفظَت باسمها رايدر بِناءً على طلب ميلبرج. طلب منها عدمَ الكشف عن حقيقة زواجها مرة أخرى. أليست هذه هي الحقيقة؟»

أومأت برأسها.

«قابلَته أمي منذ حوالي سبع سنوات. كنا في هاروجيت في ذلك الوقت. كما ترى، كان لدى والدتي القليلُ من المال، وأعتقد أن السيد ميلبرج ظنَّ أنه أكثرُ بكثير مما كان في الواقع. لقد كان رجلًا لطيفًا جدًّا، وقال لوالدتي إنَّ لديه مشروعًا كبيرًا في المدينة. تعتقد والدتي أنه رجل ميسور الحال جدًّا.»

أطلقَ تارلينج صفيرًا.

وقال: «فهمت.» ثم تابعَ: «كان ميلبرج يسرق أربابَ عمله ويُنفق المالَ على والدتك.» هزَّت رأسها.

وقالت: «هذا صحيح في جزءٍ منه، وغيرُ صحيح في جزءٍ آخر.» ثم أوضحت: «كانت أمي مشاركة بريئة. اشترى هذا المنزل في هيرتفورد وأثَّثه بسخاء، واحتفظ بسيارتَين حتى عامٍ مضى، عندما جعَلتُه يتخلى عنهما ويعيشُ ببساطة أكثر. أنت لا تعرف ما تعنيه هذه السنوات يا سيد تارلينج، منذ أن اكتشفتُ إلى أيِّ مدًى ستُضارُّ أمي عند انكشاف نذالته.»

«كيف اكتشفتِ ذلك؟»

قالت الفتاة: «كان ذلك بعد الزواج بوقتٍ قصير.» ثم أردفت: «ذهبتُ إلى متجر لاين ذات يوم وكانت إحدى الموظَّفات وقحةً معي. لم أكن لأُعيرَ الأمر انتباهًا، لكن أحد موظَّفي خدمة العملاء الفضوليين طردَ الفتاةَ على الفور، وعندما طالبتُ بإعادتها إلى عملها، أصرَّ على أن أقابل المدير. ودخلتُ إلى مكتبٍ خاص، وهناك رأيتُ السيد ميلبرج وأدركتُ نوعَ الحياة المزدوجة التي كان يعيشها. أجبرني على أن أحفظ سرَّه، ورسمَ صورةً مروِّعة لما سيحدث، وقال إنه يستطيع وضع كلِّ شيء في نِصابه الصحيح إذا شاركتُ في العمل وساعدته. أخبرني أن لديه استثماراتٍ كبيرةً جدًّا تُدِرُّ مبالغَ ضخمة وأنه سيُخصِّص هذا المالَ لتسوية اختلاساته. هذا هو سببُ ذَهابي إلى متجر لاين، لكنه كسر كلمته من البداية.»

سألَ تارلينج: «لماذا وضَعكِ هناك؟»

فقالت الفتاة: «لأنه لو كان هناك شخصٌ آخر، فقد ينكشف أمره. كان يعلم أن أيَّ تحقيقاتٍ في مخالفات الحسابات تأتي أولًا إلى إدارتي، وكان يريد أن يكون لديه شخصٌ ما هناك من شأنه أن يُعلِمه. ولم يُعرِب عن هذه الفكرة، لكنني خمَّنت أن هذه كانت الفكرةَ في خلفية عقله ...»

وراحت تُخبره شيئًا عن الحياة التي عاشتها، والإهانة التي عانت منها بمعرفتها بالدور الحقير الذي كانت تلعبُه.

قالت: «منذ البداية كنتُ شريكة.» ثم تابعت: «صحيحٌ أنني لم أسرق، لكن سبب قَبولي المنصبَ كان من أجل تمكينه، كما ظننتُ، لتصحيحِ خطأٍ فادح وإنقاذِ والدتي من العار والبؤس اللذَين سيَتْبعان انكشافَ شخصية ميلبرج الحقيقية.»

نظرَت إليه بابتسامة صغيرة حزينة.

قالت: «بالكاد أُدرك أنني أتحدَّثُ إلى محقِّق، وكلُّ ما عانيتُ منه خلال السنوات الماضية ذهبَ بلا طائل؛ لكن الحقيقة لا بد أن تخرج الآن مهما كانت العواقب.»

توقفت لحظات.

«والآن سوف أخبرك بما حدث ليلة القتل.»

الفصل السادس والعشرون

في غرفة السيدة رايدر

سادَ صمتٌ عميق. كان تارلينج يستطيع الشعورَ بقلبه يكاد يدقُّ بصخب.

قالت: «بعد أن غادرتُ متجر لاين، قررتُ أن أذهب إلى أمي لقضاء يومَين أو ثلاثة أيام معها قبل أن أبدأ في البحث عن عمل. لم يكن السيد ميلبرج يذهب إلى هيرتفورد إلا في عطلات نهاية الأسبوع، ولم أكن أستطيعُ البقاء معه في نفس المنزل، بعد أن عرَفتُ كلَّ ما عرفتُه.

غادرتُ شقتي في حوالي الساعة السادسة والنصف مساءَ ذلك اليوم، لكنني لستُ متيقنة من الوقت بالضبط. لا بد أنه كان قريبًا من هذا التوقيت؛ لأنني كنت أعتزم اللَّحاق بقطار الساعة السابعة إلى هيرتفورد. وصلتُ إلى المحطة وأخذتُ تذكرتي، وكنتُ أنحني لآخذ حقيبتي، عندما شعرتُ بيدٍ على ذراعي، واستدرتُ، ورأيتُ السيد ميلبرج. كان في حالةٍ من الانفعال والتوتر الشديد، وطلب مني ركوب القطار التالي ومرافقتَه إلى مطعم فلورنتين، حيث حجز مكانًا خاصًّا. أخبرني أنَّ لديه أخبارًا سيئة للغاية وأنني يجب أن أعرفها.

وضعتُ حقيبتي في غرفة المعاطف وخرجتُ معه، وعلى العشاء — في الواقع لم أتناول سوى كوبٍ من الشاي — أخبرني أنه كان على وشك الانهيار. قال إنَّ السيد لاين قد أرسل في طلب محقِّق (الذي كان أنت)، وكان ينوي فضْحَه، لولا أن غضب السيد لاين مني، كان عظيمًا لدرجة أنه في الوقت الحاليِّ قد انحرفَ عن هدفه.

قال ميلبرج: «أنتِ فقط تستطيعين إنقاذي.»

قلتُ بدهشة: «أنا؟ وكيف أستطيع إنقاذَك؟»

قال: «تتحمَّلين مسئولية السرقة على عاتقك.» ثم أردفَ: «أمُّك متورطة في هذا الأمر بشدة.»

«هل تعلم أمي؟»

أومأ برأسه. واكتشفتُ بعد ذلك أنه كان يكذب عليَّ وكان يستغلُّ حبِّي لأمي.»

قالت الفتاة: «لقد أُصبتُ بالدُّوار والرعب من فكرة أن أمي العزيزةَ المسكينة يُمكن أن تكون متورطة في هذه الفضيحة المروعة، وعندما اقترح أن أكتب اعترافًا بإملائه وأُغادر في أول قطار إلى أوروبا حتى تهدأَ الأمور، سقطتُ في الشَّرَك دون احتجاج. وهذا كل شيء.»

سألَ تارلينج: «لماذا أتيتِ إلى هيرتفورد الليلة؟»

ابتسمَت مرة أخرى.

قالت ببساطة: «للحصول على الاعتراف، كنتُ أعرف أن ميلبرج سيحتفظ به في الخزنة. رأيتُه عندما غادرت الفندق. اتصل بي وحدَّد الموعد في المتجر الذي تسللتُ فيه من المحققين، وهناك قال لي ...» توقفَت عن الحديث فجأةً واحمرَّ وجهها.

قال تارلينج بهدوء: «أَخبرَكِ أنني مُغرَم بكِ.» وأومأت برأسها.

«لقد هدَّد باستغلال هذه الحقيقة، وأراد أن يُريَك الاعتراف.»

قال تارلينج: «فَهِمتُ.» وتنفَّس الصُّعَداء. قال بحرارة: «شكرًا لله!»

سألت وهي تنظر إليه بدهشة: «على ماذا؟»

«على أنَّ كل شيء اتضح. غدًا سأقبض على قاتِل ثورنتون لاين!»

قالت: «لا، لا، ليس ذلك.» ووضعَت يدها على كتفه، ونظرت إليه بوجهها الحزين واستطردت: «بالتأكيد ليس ذلك. السيد ميلبرج لم يكن ليستطيع القيامَ بذلك، لا يمكن أن يكون وغدًا كبيرًا إلى هذه الدرجة.»

«مَنْ أرسل البرقية إلى والدتك قائلًا إنك لن تذهَبي؟»

ردَّت الفتاة: «ميلبرج.»

قال تارلينج: «هل أرسل برقيَّتَين، هل تتذكرين؟»

تردَّدت.

ثم قالت: «نعم، لقد فعل ذلك، لا أعرف إلى مَنْ أرسل البرقية الأخرى.»

قال: «كانت بالخطِّ نفسِه على أي حال.»

«لكن ...»

قال: «عزيزتي، لا داعي للقلق بعد الآن. هناك وقتٌ عصيب في انتظارك، ولكن يجب أن تتحلَّي بالشجاعة، من أجلكِ ومن أجل والدتكِ، ومن أجلي أيضًا.»

وعلى الرغم من تعاستها، ابتسمَت بوَهْن.

سألت: «أنت تفترض شيئًا كأمرٍ مُسلَّمٍ به، أليس كذلك؟»

قال متفاجئًا: «هل أفعل ذلك؟»

ازدادت وجنتاها احمرارًا وهي تقول: «تقصد أنني أهتمُّ بك لدرجةِ أن أبذل جهدًا من أجلك؟»

قال تارلينج ببطء: «أفترضُ أنني أفعل ذلك، إنه غرور، على ما أعتقد.»

قالت: «ربما كان حَدْسًا» وضغطَت على ذراعه.

قال: «يجب أن أوصلكِ إلى منزل والدتكِ.»

كان الطريق من المنزل إلى المحطة طويلًا وشاقًّا. أما طريق العودة فكان قصيرًا على نحوٍ مدهش، على الرغم من أنهما سارا ببطء الحلزون. لم يكن هناك قطُّ مغازلةٌ مثلُ مغازلة تارلينج، وبدا الأمرُ غيرَ واقعَيٍّ كما لو كان حُلمًا. كان لدى الفتاة مفتاح البوابة الخارجية ومرَّا من خلالها معًا.

سأل تارلينج فجأة: «هل تعرف والدتُكِ أنكِ في هيرتفورد؟»

أجابت الفتاة: «نعم. رأيتُها قبل أن آتيَ وراءك.»

«هل تعلم ...»

لم يهتمَّ بإنهاء الجملة.

قالت الفتاة: «لا، إنها لا تعلم. تلك المرأة المسكينة، هذا الخبر سيكسر قلبها. إنها مغرمة بميلبرج. أحيانًا يكون غاية اللطف مع أمي. وهي تُحبُّه لدرجةِ أنها قبلت جيئاته وروحاته الغامضةَ وكلَّ التفسيرات التي قدَّمها لها، دون أيِّ شك.»

كانا قد وصلا إلى المكان الذي التقطَ منه المحفظة وغُمِّي فوقه الجزء المظلم من الشرفة التي يعلوها البيت الزجاجي. كان المنزل مغلفًا بالظلام، ولم يكن ثمة شعاعُ ضوءٍ في أي مكان.

«سآخذكَ من خلال الباب الموجود أسفل الشرفة. هذا هو الطريق الذي يسلكُه السيد ميلبرج دائمًا. هل لديك مصباح؟»

كان لديه مصباحه الكهربائي في جيبه ووجَّهَ شعاعًا على ثقب المفتاح. أدخلت المفتاح وندَّت عنها صيحةُ تعجب؛ إذ طاوعَها الباب تحت ضغطها وانفتح.

قالت: «إنه مفتوح.» ثم أردفت: «أنا متأكدة من أنني أغلقتُه.»

وجَّه تارلينج مصباحه إلى القفل وعبَس وجهُه قليلًا. كانت السقاطة قد جرى تثبيتُها مرة أخرى في القفل حتى لا تنبثق مرة أخرى.

سألَ بسرعة: «كم مكثتِ في المنزل؟»

قالت الفتاة: «بضع دقائق فقط.» ثم أضافت: «دخلتُ فقط لأخبر أمي، وخرجتُ على الفور.»

«هل أغلقتِ الباب خلفكِ عندما دخلتِ؟»

فكَّرت الفتاة لحظة.

قالت: «ربما لم أفعل.» ثم استدركت: «لا، بالطبع لا، لم أعد من هذا الطريق؛ أخرجَتني أمي من الباب الأمامي.»

وجَّه تارلينج الضوء في القاعة ورأى السلالم المغطاة بالسجاد على بُعد ستِّ أقدام. خمَّن ما حدث. رأى شخصٌ ما البابَ مواربًا، وخمَّن مِن ترْكِه مواربًا أنها ستعود على الفور، ومِن ثَمَّ حشر قطعةَ الخشب — التي بدَت كما لو كانت عودَ ثقاب، وكانت كذلك بالفعل — بين سقاطة القفل وغِمْدِه.

سألت الفتاة بصوتٍ مضطرب: «ماذا حدث؟»

قال تارلينج بهدوء: «لا شيء.» ثم أردفَ: «في الغالب فعل ذلك زوجُ أمِّك السيئُ السمعة. ربما فقدَ مفتاحه.»

قالت الفتاةُ بقلق: «كان من الممكن أن يدخل من الباب الأمامي.»

قالَ تارلينج بمرح، كان بعيدًا كل البُعد عمَّا يعتلج بصدره: «حسنًا، سأذهب أولًا.»

صعدَ إلى الطابق العلوي، وفي إحدى يديه مصباحُه، وفي اليد الأخرى مسدس آلي. انتهى الدرَج ببسطةٍ لها درابزين يُفتَح منه بابان.

قالت الفتاة مشيرةً إلى أقربهما: «هذه غرفة أمي.»

جعلَها الشعورُ بالمتاعب الوشيكة ترتجف. وضعَ تارلينج ذراعيه حولها مشجِّعًا. مشَى إلى باب الغرفة، وأدارَ المقبض وفتحَه. كان هناك شيءٌ خلف الباب يُغلقه، وبذلَ كلَّ قوَّته لدفع الباب وفتحَه بما يكفي لأن يسمح بمروره خلاله.

على المكتب كان ثَمة مصباحُ طاولة مضيء، وكان نوره مَخفيًّا من الخارج بالستائر الثقيلة التي تُغطي النوافذ، ولكنه لم يكن ينظر إلى النافذة أو إلى المكتب.

استلقَت السيدة رايدر خلف الباب، وابتسامةٌ صغيرةٌ على وجهها، وقد برز خِنجرٌ من تحت قلبها بوضوح مرعب.

الفصل السابع والعشرون

ضحكة في سكون الليل

ألقى تارلينج نظرةً واحدة قبل أن يلتفتَ إلى الفتاة التي كانت تُحاول دفعه والدخولَ إلى الغرفة، وأمسك بها من ذراعها برفق ودفعَها مرةً أخرى إلى الممر. سألت بهمسٍ مذعور: «ما الخطب؟ ما الخطب؟» ثم قالت: «أوه، دعني أدخل إلى أمي.»

كافحَت للإفلات من قبضته، لكنه أمسكَها بقوة.

توسَّل إليها قائلًا: «يجب أن تكوني شجاعةً لمصلحتك ولمصلحة الجميع.»

دفعَها ناحية باب الغرفة الثانية وهو لا يزال ممسكًا بذراعها. وتحسَّسَ بيده مفتاحَ الإنارة حتى وجده.

بدا أنها غرفةُ نوم احتياطية، مفروشة بأثاث بسيط، ومِن هذه الغرفة كان ثَمة بابٌ يُؤدي، فيما يبدو، إلى المبنى الرئيسي.

سأل: «إلى أين يؤدي هذا الباب؟» لكن يبدو أنها لم تسمَعْه.

كانت تنوح قائلة: «أمي، أمي! ماذا حدث لأمي؟»

سأل مرةً أخرى: «إلى أين يؤدي هذا الباب؟» وللرد أدخلَت يدَها المرتجفةَ في جيبها وأخرجَت مِفتاحًا.

فتحَ الباب ووجدَ نفسه في رواقٍ مستطيل يُطل على الصالة.

تسلَّلت متقدمةً إياه، لكنه أمسكَ بها ودفعَها إلى الخلف.

قال بحزم: «أقول لكِ، يجب أن تكوني هادئةً يا أوديت، يجب ألا تستسلمي. كل شيء يعتمد على شجاعتكِ. أين الخدم؟»

ثم، على حين غِرة، هربت منه وركضت عائدةً عبر الباب إلى الجناح الذي غادراه. وتبعها في مطاردة سريعة.

صاحَ وهي تُلقي بنفسها على الباب وتندفع داخلةً غرفةَ أمها: «بالله عليكِ يا أوديت، لا تفعلي، لا تفعلي.»

ألقت نظرة واحدة، ثم سقطت على الأرض بجانب أمِّها الميتة، وألقت ذراعَيها حول جسمها وقبَّلت شِفاهها الباردة.

سحبَها تارلينج بعيدًا برفق، وأسندَها وهو يكاد يحملها إلى الرواق. كان ثَمة رجلٌ أشعثُ في قميصٍ وسروال اعتقد تارلينج أنه ربما يكون كبيرَ الخدم يُسرع عبر الممر.

قال تارلينج بصوتٍ منخفض: «أيقظْ أيَّ نساء في المنزل.» ثم أردفَ: «لقد قُتِلَت السيدة رايدر.»

قال الرجلُ مذعورًا: «قُتِلَت يا سيدي!» ثم أردفَ: «أنت لا تقصد ذلك؟»

قال تارلينج بجِدَّة: «أسرع، لقد فقدَت الآنسة رايدر وعيها مرةً أخرى.»

حملاها إلى غرفة الصالون ووضعاها على الأريكة ولم يتركها تارلينج حتى رآها بين يدَيِ امرأتين من الخدم.

عادَ مع كبير الخدم إلى الغرفة حيث كان الجسدُ مُلقًى. أضاء كل الأنوار وأجرى فحصًا دقيقًا للغرفة. النافذة المؤدية إلى الشرفة المغطَّاة بالزجاج حيث كان مختبئًا منذ ساعاتٍ قليلة، كانت مغلقة بمِزلاجٍ وقُفل.

الستائر التي أُسدِلَت، على الأرجح من قِبَل ميلبرج عندما جاء لأخذ المحفظة، لم تتزحزح. من الوضع الذي رقدت فيه جثة المرأة والهدوء البادي على وجهها؛ خمَّن أن الموت لا بد أنه داهمها على نحوٍ مفاجئ غيرِ متوقَّع. على الأرجح تسلل القاتل من ورائها بينما كانت واقفة عند نهاية الأريكة التي كان يرى جزءًا منها من النافذة. في الغالب ذلك ما حدث، لتمضية الوقت الذي تنتظر فيه عودةَ ابنتها، أخذت كتابًا من المكتبة الصغيرة خلف الباب مباشرةً، وجاء دعمُ هذه النظرية على شكل كتاب من الواضح أنه وقع من يدها بين الموضع الذي عُثِرَ عليها فيه وبين المكتبة.

رفعَ الرجلان الجثة معًا على الأريكة.

قال تارلينج: «من الأفضل لك النزولُ إلى المدينة وإبلاغُ الشرطة.» ثم سألَه: «هل يوجد هاتف هنا؟»

أجابَ كبير الخدم: «نعم يا سيدي.»

قال المحقق: «جيد، هذا سيُوفِّر عليك الرحلة.»

أبلغَ مسئولي الشرطة المحليِّين، ثم اتصلَ بسكوتلاند يارد وأرسلَ ساعيًا لإيقاظ وايتسايد. كان ضوء الفجر الخافتُ يتسلل من السماء عندما نظر من النافذة، ولكن ذلك الضوء الباهت لم يفعل شيئًا سِوى أنه أكَّد على الظلام الحالك الذي غلَّف العالم.

فحصَ السكِّين الذي بدا وكأنه سكينُ جزارٍ عاديٌّ جدًّا. كان هناك بعضُ الأحرف الأولى الباهتة المحروقة عند المقبض، لكنها بَلِيَت كثيرًا من خلال الاستخدام المستمرِّ للمقبض بحيث لم يكن هناك سوى أثرٍ ضعيف جدًّا لما كانت عليه في الأصل. يمكنه رؤية حرف «إم» وحرفَيْن آخرَيْن يُشبهان «سي» و«إيه».

«إم سي إيه؟»

حيَّر عقله لتفسير الأحرف الأولى. ثم على الفور جاء كبيرُ الخدم مرة أخرى.

«السيدة الشابة في حالة رهيبة يا سيدي، وقد أرسلتُ في طلب د. توماس.»

أومأ تارلينج برأسه.

وقال: «لقد تصرَّفتَ بحكمة شديدة.» ثم أردفَ: «الفتاة المسكينة، لقد تلقَّت صدمة مريعة.»

مرةً أخرى اتجه نحو الهاتف، وهذه المرة اتصلَ بدار رعاية في لندن ورتَّب لإحضار سيارة إسعاف لأخذِ الفتاة دون مزيدٍ من التأخير. عندما اتصلَ هاتفيًّا بسكوتلاند يارد طلبَ بعد التفكير أن يُرسَل رسولٌ إلى لينج تشو، يأمره بالمجيء دون تأخير. كان لديه إيمانٌ عظيم بالرجل الصِّيني، لا سيَّما في قضيةٍ مثل هذه حيث كانت الأدلةُ طازَجة؛ لأن لينج تشو كان يمتلك مواهبَ خارقةً لا يُنافسه فيها إلا الكلابُ من سلالة بلَدهاوند.

ألقى تعليماته لكبير الخدم قائلًا: «لا أحدَ يصعد إلى الطابق العلوي.» ثم أردفَ: «وعندما يأتي الطبيب والطبيب الشرعي، لا بد من إدخالهما من المدخل الرئيسي، وإذا لم أكن هنا، يجب أن تفهم أنه تحت أي ظروف يجب عدمُ استخدام السلالم المؤدية إلى الشرفة.»

هو نفسُه خرجَ من المدخل الرئيسي للقيام بجولة في الأرض. لم يكن لديه أملٌ كبير في أن يؤديَ هذا البحثُ إلى أي شيء. ربما تكون الأدلة كثيرةً هناك عندما يكشفها ضوء النهار، ولكن احتمالية بقاء القاتل بالقرب من مسرح جريمته كانت بعيدة جدًّا.

كانت الأرض واسعةً وجيدةَ التشجير. اجتمعت مساراتٌ متعرجة عديدة، وتشعَّبَت بلا هدفٍ من المسارات الواسعة المفروشة بالحصى حول المنزل إلى الأسوار العالية التي أحاطت بهذه العزبة الصغيرة.

في أحد أركان الأرض كانت هناك بقعةٌ كبيرة إلى حدٍّ ما، خاليةٌ تمامًا من الشجيرات وغير مغطَّاة على الإطلاق. أجرى مسحًا عاديًّا لهذه البقعة، مُمرِّرًا الضوءَ عبر الصفوف المرتَّبة للخضراوات النامية، وكان على وشك المغادرة عندما رأى كتلة سوداء ذات مظهر، حتى في ظلام بيت البستاني. اجتاح هذا الغِطاءَ المحتمل بمصباحه.

هل كان خيالُه يخدعه، أم إنه قد لمح للحظةٍ قصيرةٍ وجهًا أبيضَ يُحدِّق إليه في هذه الزاوية؟ وجَّه الضوء مرة أخرى. لم يكن هناك شيءٌ مرئيٌّ. مشى إلى المبنى ودار حوله.

لم يكن هناك أحدٌ في مجال رؤيته. ظنَّ أنه رأى هيئةَ شيءٍ مظلمٍ تحت ظل المبنى يتحرك نحو حزام الصَّنَوبر الذي يُحيط بالمنزل من ثلاث جهات. أضاء المصباح مرةً أخرى، لكن الضوء لم يكن قويًّا بما يكفي لإضاءة المسافة المطلوبة، وتقدَّم إلى الأمام بسرعة مهرولًا في الاتجاه الذي رأى الشبحَ يختفي فيه. وصل إلى الصنوبر وسار بنعومة. وبين الحين والآخَر كان يتوقف، وذات مرة كاد يُقسم أنه سمع صوت تكسير غُصَين أمامه.

شرَع في الجري في مطاردة، والآن لم يكن هناك خطأٌ في حقيقةِ أن شخصًا ما كان لا يزال وسطَ الأشجار. سمع خطواتِ طريدته السريعة، ثم ساد الصمت. تابع الجريَ، ولكن لا بد أنه قد تجاوز الهدف؛ لأنه الآن صار يسمع ضوضاء خفية خلفه. وفي لمح البصر دار على عقبَيه.

قال: «مَنْ أنت؟» ثم أردفَ: «أظهِر نفسك، وإلا فسأطلق النار!»

لم يكن هناك جوابٌ وانتظر. سمع صوتَ كشطِ حذاءٍ في الطوب وعلم أن الدخيل كان يتسلق السور. استدار في اتجاه الصوت، لكنه لم يجد شيئًا مرة أخرى.

ثم من مكانٍ ما فوقه جاءت ضحكة شيطانية جمَّدت الدم في عروقه. كان الجزء العلوي من السور مَخفيًّا بغصنِ شجرةٍ متدلٍّ وكان ضوءُ مصباحه بلا قيمة.

صاحَ: «انزل، لقد أحطتُ بك!»

مرة أخرى جاءت تلك الضحكة الرهيبة التي يمتزج فيها الخوفُ مع السخرية، وسمعَ صوتًا حادًّا صاخبًا قاسيًا.

«قاتل! قاتل! لقد قتلتَ ثورنتون لاين، اللعنة عليك! لقد احتفظت بهذه من أجلك ... خذها!»

جاءَ شيء يصفر من خلال الأشجار، شيء صغير ومستدير، وسقطت نقطة صغيرة، كأنها نقطةُ ماء، على ظهر يد تارلينج فنفضها صارخًا؛ لأنها كانت تحرق كالنار. سمعَ صوتَ سقوط الغريب الغامض في الناحية الأخرى من السور وصوت أقدامه السريعة. انحنى والتقطَ المادة التي أُلقِيَت عليه. كانت زجاجةً صغيرة عليها ملصقٌ صيدلانيٌّ ملطَّخٌ مكتوبٌ فيه «حمض كبريتيك».

الفصل الثامن والعشرون

بصمة الإبهام

كانت الساعة العاشرة صباحًا، وكان وايتساید وتارلينج جالسَين على أريكةٍ يرتدي كلٌّ منهما قميصًا قصيرَ الأكمام، ويحتسيان القهوة. كان تارلينج مرهقًا ومجهدًا، على عكس مفتش الشرطة الأنيق. على الرغم من أن الأخير قد أُوقِظ من سريره في الساعات الأولى من الصباح، فهو على الأقل قد تمتَّع بنوم هانئ طوال الليل.

جلسَا في الغرفة التي قُتِلَت فيها السيدة رايدر وكانت البقع البنية على الأرض حيث وجدَها تارلينج تحكي المأساة ببلاغة.

جلسا يحتسيان قهوتَهما، ولم يتحدث أيٌّ منهما، واستمرا في هذا الصمت لعدةِ دقائق، كلٌّ منهما يتبع حبلَ أفكاره. لم يكشف تارلينج لأسبابٍ خاصة به عن مغامرته ولم يُخبر الآخرَ بشيء عن الشخص الغامض (الذي خمَّن هُويتَه جيدًا) الذي طارده عبر حديقة المنزل.

ثم أشعلَ وايتساید سيجارةً وألقى عود الثقاب في شبكة المدفأة، ونهضَ تارلينج من تأمُّلِه على حين غِرة.

سألَ: «ما رأيك في ذلك؟»

هزَّ وايتساید رأسه.

«لو جرى الاستيلاء على ممتلكات، لكان التفسيرُ بسيطًا. ولكن لم يُفقَد أي شيء. فتاة مسكينة!»

أومأ تارلينج.

وقال: «شيء فظيع! اضطُرَّ الطبيب إلى أن يُخدِّرها قبل أن يتمكَّن من أخذها.»

سألَ وايتساید: «أين هي؟»

قال تارلينج بعد لحظة: «أرسلتُها في سيارة إسعاف إلى دار رعايةٍ في لندن.» وأضافَ: «هذا فظيع يا وايتساید.»

قال المفتش وهو يحكُّ ذقنه: «إنه أمر سيِّئ للغاية.» ثم سألَه: «ألم تستطِع الشابةُ تقديم أي معلومات؟»

«لا شيء، لا شيء على الإطلاق. لقد صعدَت لرؤية والدتها وتركَت الباب مواربًا؛ إذ كانت تنوي العودةَ بنفس الطريقة بعد أن تُقابل السيدة رايدر. في الواقع، خرجت من الباب الأمامي. وكان شخصٌ ما يُراقبها، ومن الواضح أنه ظنَّ أنها ستخرج بنفس الطريقة التي دخلت بها، وانتظر بعض الوقت، ثم لَمَّا لم تظهر مجددًا، تبعها إلى داخل المبنى.»

قال وايتساید: «وهذا الشخص كان ميلبرج؟»

لم يُحِر تارلينج جوابًا. كانت لديه وجهاتُ نظره الخاصةُ ولم يكن في تلك اللحظة مستعدًّا للنقاش.

قال وايتساید: «من الواضح أنه كان ميلبرج. يأتي إليك في الليل — نعلم أنه في هيرتفورد. نحن نعلم أيضًا أنه حاول اغتيالَك لأنه اعتقد أن الفتاة قد خانته وأنك كشفتَ سِرَّه. لا بد أنه قتل زوجته التي ربما تعرف أكثرَ من ابنتها عن جريمة القتل.»

نظرَ تارلينج إلى ساعته.

وقال: «لينج تشو على وشك المجيء الآن.»

قال وايتساید متفاجئًا: «أوه، لقد أرسلت في طلب لينج تشو إذن.» وأردفَ: «ظننتُ أنك ستتخلَّى عن هذه الفكرة.»

قال تارلينج: «لقد اتصلتُ مرةً أخرى قبل ساعتين.»

قال وايتساید: «مم!» ثم سألَه: «هل تعتقد أنه يعرف أي شيء عن هذا؟»

هزَّ تارلينج رأسه.

«أنا أُصدق القصة التي قالها لي. بالطبع، عندما قدَّمت التقرير إلى سكوتلاند يارد لم أكن أتوقَّع أن تُصدقوه مثلي، لكني أعرف الرجل. لم يكذب عليَّ قط.»

قال وايتساید: «القتل مسألةٌ خطيرة للغاية.» ثم تابعَ حديثه: «إذا لم يكذب الرجل لإنقاذ رقبته، فمن أجلِ ماذا عساه أن يكذب على الإطلاق.»

كان هناك صوتُ محرِّك في الأسفل، وسار تارلينج إلى النافذة.

قال: «ها هو لينج تشو.» وبعد بضع دقائق جاء الصيني بصمت إلى الغرفة.

استقبله تارلينج بإيماءةٍ تحية، ومن دون أيِّ تمهيد أخبره قصة الجريمة. تحدَّث بالإنجليزية — لم يستخدم اللغة الصينية منذ أن اكتشفَ أنَّ لينج تشو يفهم اللغةَ الإنجليزية تمامًا مثلما يفهم اللغة الصينية الكنتونية، وكان وايتساید قادرًا من وقتٍ لآخر على إقحامِ كلمة أو تصحيح زلَّة لسان بسيطة من جانب تارلينج. استمع الصينيُّ دون تعليق، وعندما انتهى تارلينج انحنى إحدى انحناءاته الغريبة المتشنِّجة وخرج من الغرفة.

قال وايتساید بعد رحيل الرجل: «ها هي الرسائل.»

كان على مكتب السيدة رايدر كَوْمتان مُرتَّبتان من الرسائل الأنيقة، وسحَب تارلينج كرسيًّا.

وقال: «هذه كل الرسائل؟»

قال وايتساید: «نعم.» وأردفَ: «كنت أبحث في المنزل منذ الساعة الثامنة ولم أجد رسائلَ أخرى. تلك التي على اليمين كلُّها من ميلبرج. ستجد أنها موقَّعة ببساطة بالحرف الأول من اسمه — سِمةٌ من سماته — ولكنها تحمل عُنوان بلدته.»

سألَ تارلينج: «هل قرأتها؟»

أجابَ الآخر: «قرأتُها جميعًا.» ثم قال: «لا يوجد شيءٌ على الإطلاق يُدين في أيٍّ منها. إنها ما أُسميه رسائلَ أكلِ العيش، تتناول استثماراتٍ صغيرةً يقوم بها ميلبرج باسم زوجته — أو بالأحرى باسم السيدة رايدر. من السهل أن ترى من هذه الرسائل مدى عمقِ تورُّط تلك المرأة المسكينة دون أن تعلم أنها كانت تُورِّط نفسها في مؤامرة كبيرة.»

وافقَ تارلينج. أخذَ الرسائل واحدةً تلو الأخرى من مظاريفها، وقرأها وأعادها إلى مكانها. كان في منتصف الكومة عندما توقَّف وحملَ رسالة إلى النافذة.

قال: استمع إلى هذا:

> سامحيني على لطخة الحبر، ولكنني في عجَلةٍ من أمري، وقد اتسخَت أصابعي من جراء قلب زجاجة حبر.

قال وايتساید بابتسامة: «لا شيء مذهلًا في ذلك.»

صدَّقَ تارلينج على ذلك قائلًا: «لا شيء على الإطلاق.» ثم استطرد: «ولكن تصادف أنَّ صديقنا تركَ لنا بصمةَ إبهامٍ جيدة ومفيدة للغاية. على الأقل، تبدو كبيرة جدًّا بالنسبة إلى بصمة إصبع.»

قال وايتساید وهو يقفز من مكانه: «دعني أرَها.»

ذهبَ إلى الجانب الآخَر ونظرَ من فوق كتفه إلى الرسالة في يده وصَفَّر. كان وجهُه منيرًا حينما أداره نحو تارلينج وأمسكَ رئيسه من كتفَيه.

وقال بحماس: «لقد أوقَعْنا به. لقد أوقَعْنا به كالفأر في المصيدة!»

سألَ تارلينج: «ماذا تقصد بذلك؟»

أجابَ وايتساید: «أُقسم على بصمة الإبهام هذه.» وأردفَ: «إنها متطابقة مع البصمة الدامية التي تُرِكت على خِزانة الآنسة رايدر ليلة القتل!»

«هل أنت واثق؟»

قال وايتساید وهو يتحدَّث بسرعة: «بالتأكيد.» ثم تابعَ قائلًا: «هل ترى تلك الدائرة؟ انظر إلى تلك الخطوط! إنها متطابقة. لديَّ الصورة الأصلية في جيبي في مكانٍ ما.» وفتَّشَ في دفتر جيبه وجلبَ صورة لبصمة الإبهام مُكبَّرةً للغاية.

صاحَ وايتساید في انتصار: «قارِن بينهما!» ثم أضافَ: «خطًّا خطًّا ونتوءًا نتوءًا وثَلْمًا ثَلْمًا، إنها بصمةُ إبهام ميلبرج، وميلبرج هو رجلي!»

التقطَ مِعطفه وارتداه.

«إلى أين تذهب؟»

قال وايتساید بإصرار: «سأعودُ إلى لندن، لتأمين أمر القبض على جورج ميلبرج، الرجل الذي قتَل ثورنتون لاين، الرجل الذي قتل زوجتَه؛ الشرير الأكثر سوادًا في العالم اليوم!»

الفصل التاسع والعشرون

نظرية لينج تشو

أثناء هذا المشهد جاء لينج تشو، جامدًا، بلا تعبير، يَغْشاه جوٌّ من الغموض.

قال تارلينج: «حسنًا، ما الذي اكتشفتَه؟» وحتى وايتساید هدَّأ من حماسه ليستمع.

قال لينج تشو: «صعدَ شخصان الدرَج الليلة الماضية، بالإضافة إلى سيدي.» ونظر إلى تارلينج، وأومأ الأخير برأسه. فواصلَ لينج تشو: «قدَماك واضِحتان، وأيضًا قدما المرأة الصغيرة؛ وأيضًا القدمان العاريتان.»

قال تارلينج: «القدمان العاريتان؟» وأومأ لينج تشو إيجابًا.

سألَ وايتساید: «ماذا كانت القدمان العاريتان — لرجلٍ أم لامرأة؟»

أجابَ الصيني: «ربما كان رجلًا أو امرأة، لكنَّ القدمَيْن كانتا مجروحتَين وتنزفان. هناك آثارُ دمٍ على الحصى بالخارج.»

قال وايتساید بحِدَّة: «هراء!»

حذَّر تارلينج: «دَعْه يستمر.»

تابعَ لينج تشو: «دخلَت امرأةٌ وخرجت ...»

قال تارلينج: «هذه كانت الآنسة رايدر.»

«ثم جاءت امرأةٌ ورجل، ثم جاءَ حافي القدمين؛ لأن الدمَ كان فوق آثار أقدام المرأة الأولى.»

سألَ وايتساید، وقد غلَبه الفضولُ رغمًا عنه: «كيف تعرف أيُّها كانت المرأة الأولى وأيُّها كانت الثانية؟»

قال لينج تشو: «كانت قدمُ المرأة الأولى مبتلَّة.»

فقال المفتش منتصرًا: «لكن لم يكن هناك مطر.»

قال لينج تشو: «كانت تقف على العشب.» وأومأ تارلينج برأسه، متذكرًا أن الفتاة قد وقفَت على العشب في ظل الشجيرات، مراقبةً مغامرته مع ميلبرج.

قال لينج تشو: «لكنْ هناك شيءٌ واحد لا أفهمه يا سيدي.» وتابعَ قائلًا: «هناك أثرُ قدم امرأةٍ أخرى لا أجدها على الدرج في الصالة. مشَت هذه المرأة حول المنزل بالكامل؛ أظن أنها تجوَّلَت حوله مرتَيْن ثم دخلت الحديقةَ عَبْر الأشجار.»

حدَّق تارلينج في وجهه.

وقال: «الآنسة رايدر جاءت مباشرةً من المنزل إلى الطريق، ثم إلى هيرتفورد ورائي.»

أصرَّ لينج تشو قائلًا: «هناك أثرٌ لامرأةٍ دارت حول المنزل، وبالتالي أعتقد أنها كانت امرأةً عارية القدمَيْن.»

«هل هناك آثارٌ لرجلٍ بالإضافة إلى ثلاثتنا؟»

قال لينج تشو: «كنتُ سأذكر ذلك.» ثم أردفَ: «هناك أثر ضعيف جدًّا لرجلٍ أتى مبكرًا؛ لأن آثار الأقدام المبتلَّة فوق آثاره؛ كما أنه غادر، لكن لا توجد أيُّ آثار له على الحصى، فقط أثر مسار عجلة.»

قال تارلينج: «كان هذا ميلبرج.»

وأوضحَ لينج تشو: «إذا لم تلمس القدمُ الأرض، فسوف تترك القليلَ من الأثر. هذا هو السبب في أن قدم المرأة في أرجاء المنزل صعبة عليَّ جدًّا؛ لأنني لا أستطيع أن أجدها على الدرج. ومع ذلك فأنا أعلم أنها جاءت من المنزل لأني أستطيعُ رؤيتها تقود من الباب. تعالَ يا سيدي، سأريك.»

قاد الطريقَ عبر الدرج إلى الحديقة، ثم لأول مرة لاحظَ وايتساييد أنَّ الصينيَّ كان حافيَ القدمَيْن.

سألَ مازحًا: «ألم تخلط بين آثار أقدامك وأقدامِ شخصٍ آخر؟»

هزَّ لينج تشو رأسه.

وقال بهدوء، وهو يُدخِل قدمَيه في حذائه الصغير: «تركتُ حذائي خارج الباب لأن هذا يُسهل عليَّ العمل أكثر.»

قاد الطريقَ إلى جانب المنزل، وهناك أشار إلى آثار الأقدام. لقد كانت أنثويةً على نحوٍ لا التباس فيه. حيث كان الكعب، كانت حفرةٌ عميقة على شكل هلال، وقد تكرَّرت على مسافاتٍ في جميع أنحاء المنزل. من الغريب أنه عُثِرَ عليها أمام كلِّ النوافذ تقريبًا، كأنَّ الزائر الغامضَ قد سار في الحديقة بالكامل ساعيًا لإيجاد مدخل.

قال وايتسايد، فاحصًا أحدَ هذه الآثار: «إنها تُشبه الشباشب أكثرَ من الأحذية بالنسبة إليَّ. إنها بلا شك نسائية. ما رأيك يا تارلينج؟»

أومأ تارلينج وقاد طريق العودة إلى الغرفة.

سأل: «ما هي نظريتُك يا لينج تشو؟»

قال الصيني: «دخل شخصٌ ما إلى المنزل، متسللًا من الباب السفليِّ ثم صعد الدرج. في البداية قام هذا الشخص بالقتل، ثم ذهب ليُفتش المنزل، ولكنه لم يستطِع الخروج من الباب.»

قال وايتسايد: «هذا صحيح.» وأردفَ: «تقصد الباب الذي يُغلق هذا الجناح الصغيرَ من بقية المنزل. كان ذلك مقفلًا، أليس كذلك يا تارلينج، عندما اكتشفت الأمر؟»

قال تارلينج: «بلى، كان مقفلًا.»

تابعَ لينج تشو: «عندما اكتشفوا أنهم لا يستطيعون دخول المنزل، حاولوا التسللَ عبر إحدى النوافذ.»

قال تارلينج وقد نَفِد صبرُه: «هم؟ مَنْ هم؟» ثم سألَه: «هل تقصد المرأة؟»

كانت النظرية الجديدة مربِكة. لقد اخترقَ الممثلُ الثاني في المأساة — ذكَّره حرقُ حمض الكبريتيك البُني على ظهر يده بوجوده — ولكن مَنْ كان الثالث؟

أجابَ لينج تشو بهدوء: «أعني المرأة.»

سألَ وايتسايد بانفعال: «ولكن مَنْ أراد بحقٍّ السماء أن يدخل المنزل بعد أن قتَل السيدة رايدر؟» ثم عقَّب قائلًا: «نظريتك تُخالف المنطق يا لينج تشو. عندما يرتكب شخصٌ جريمةَ قتل يريد أن يبعد قدرَ الإمكان عن مسرح الجريمة في أقصر فترة زمنية ممكنة.»

لم يردَّ لينج تشو.

قال تارلينج: «كم عدد الأشخاص المعنيِّين بهذا القتل؟» وتابعَ قائلًا: «دخلَ رجلٌ أو امرأة حافية القدمَيْن وقتَل السيدة رايدر، ثم دارَ شخصٌ ثانٍ حول المنزل، محاولًا الدخولَ من خلال إحدى النوافذ ...»

أجابَ لينج تشو: «سواءٌ كان شخصًا واحدًا أو شخصَين لا أستطيع معرفة ذلك.»

أجرى تارلينج فحصًا إضافيًّا للجناح الصغير. كان، مثلما قال لينج تشو وكما أوضح هو للصيني، منفصلًا عن بقية المنزل، وكان من الواضح أنه أُعِدَّ ليُعطيَ السيد ميلبرج الخصوصيةَ اللازمة في زياراته لهيرتفورد. كان الجَناحُ مكوَّنًا من ثلاث غرف؛

غرفة نوم تؤدي إلى غرفة الجلوس، ومن الواضح أنها تُستخدَم من قِبَل السيدة رايدر، حيث كانت ملابسها معلَّقةً في الدولاب؛ وغرفة الجلوس التي ارتُكِبَت فيها جريمة القتل، والغرفة الاحتياطية التي مرَّ عبرها مع أوديت إلى القاعة التي تعلو الصالة.

جرى تأمين الدخول إلى المنزل عبر الباب الموجود في هذه الغرفة.

قال تارلينج عند الانتهاء من الفحص: «ليس هناك ما يُمكن فعله سوى ترك الشرطة المحلية تتولَّى المسئولية والرجوع إلى لندن.»

واقترحَ وايتساید: «واعتقال ميلبرج.» ثم سألَه: «هل تقبل نظرية لينج تشو؟»

هزَّ تارلينج رأسه.

قال: «أنا أكره رفضها؛ لأنه أكثرُ متعقِّبي الأثرِ ذكاءً ومهارة، لدرجة مذهلة. يستطيع تعقُّب آثار الأقدام غير المرئية تمامًا للعين، ولديه غريزةُ الأدغال التي قادتنا في الأيام الخوالي في الصين إلى بعض النتائج الاستثنائية.»

عادوا إلى المدينة بالسيارة، لينج تشو يركب بجانب السائق، مدخنًا سلسلةً لا نهاية لها من السجائر. تحدَّث تارلينج قليلًا جدًّا خلال الرحلة، كان عقلُه مشغولًا بالكامل بأحدث تطوُّرٍ للُّغز، الذي لا يزال حَلُّه عَصيًّا عليه.

حمله الطريق عبر لندن إلى سكوتلاند يارد عبر كافنديش بليس، الذي كانت تقع فيه دارُ الرعاية التي ذهبت إليها أوديت رايدر. أوقف السيارةَ للاستفسار ووجد أن الفتاة قد تعافَت من نوبة الحزن التي دخلَت فيها جرَّاءَ الاكتشاف الرهيب الذي اكتشفته هذا الصباح، وسقطَت في نوم هادئ.

قال وهو ينضم مجددًا إلى رفيقه: «هذه أخبار جيدة على أي حال. كدتُ أموت قلقًا عليها.»

سألَ وايتساید بجفاف: «أنت تهتمُّ بالآنسة رايدر اهتمامًا هائلًا، أليس كذلك؟»

تغيَّر لون تارلينج، ثم ضحك.

أقرَّ: «أوه، بلى، أنا مهتم بها، ولكن هذا طبيعي للغاية.»

سألَ وايتساید: «لماذا طبيعي؟»

أجابَ تارلينج عمدًا: «لأن الآنسة رايدر ستكون زوجتي.»

قال وايتساید في ذهولٍ بالغ: «أوه!» ولم يكن لديه شيءٌ آخر ليقوله.

كانت مذكرة القبض على ميلبرج في انتظارهما، ووُضِعَت في يد وايتساید للتنفيذ.

قال الضابط: «لن نمهله وقتًا.» ثم تابعَ: «أخشى أنه حظي بمُهلة كبيرة، وسنكون محظوظين جدًّا إذا وجدناه في المنزل.»

كما ظنَّ، كان المنزل في كامدن تاون خاليًا، وكانت المرأة التي تأتي يوميًّا لتنظيف المنزل تنتظر بصبرٍ بجوار البوابة الحديدية. أخبرتهم أن السيد ميلبرج عادةً ما يسمح لها بالدخول في الثامنة والنصف. وحتى لو كان «في البلد» كان يعود إلى المنزل قبل وصولها.

أدخلَ وايتساید مفتاحًا هيكليًّا في قفل البوابة، وفتحَه (في ظل احتجاج الخادمة لصالح صاحب عملها) وعبر المسار الحجري. كان بابُ المنزل مهمةً أكثرَ صعوبة؛ إذ كان مزوَّدًا بقفل عالي الجودة. لم يقف تارلينج متفرجًا، ولكنه حطَّم إحدى النوافذ، وابتسمَ ابتسامةً عريضة وهو يفعل ذلك.

«استمع إلى ذلك؟»

وصلَ رنينُ الجرس الحادُّ إلى آذانهم.

قال تارلينج بإيجاز: «إنذار ضدَّ السرقة.» ودفعَ المزلاج إلى الوراء، وفتحَ النافذة، وخطا داخلَ الغرفة الصغيرة التي قابل فيها السيد ميلبرج.

كان المنزلُ خاليًا. تجوَّلا من غرفة لأخرى، مفتشين الخزانات والدواليب. وفي إحداها عثَر تارلينج على اكتشاف. لم يكن أكثرَ من عدد قليل من الحبيبات المتلألئة التي مسحها من أحد الأرفف إلى راحة يده.

قال: «إذا لم يكن ذلك ثرمايت، فأنا هولندي.» وأردفَ: «على أي حال، سنتمكَّن من إدانة السيد ميلبرج بالحرق المُتعمَّد إذا لم نتمكَّن من إدانته بالقتل. سنُرسل هذا إلى المحلِّل الحكومي على الفور يا وايتساید. إذا كان ميلبرج لم يقتل ثورنتون لاين، فهو بالتأكيد قد أحرق مقرَّ داشوود آند سولومون لتدمير دليل سرقته.»

كان وايتساید هو مَنْ قام بالاكتشاف الثاني. ينام السيد ميلبرج على سرير خشبي ضخم بأربعة أعمدة.

قال وايتساید: «إنه شيطانٌ مترَف.» ثم أشارَ قائلًا: «انظر إلى سُمْك هذه المَرتبة.» ونقرَ على جانب هذه القطعة من الأثاث وتفحَّصها بتعبيرٍ مندهش.

سألَ وهو يُواصل فحصه، ممزقًا مفرش السرير: «أليست صُلبةً بعض الشيء لمَرتبة سرير؟»

وعلى الفور تمت مكافأته بإيجاد ثَقْب صغير في جانب المَرتبة. أخرج سكينه وفتح أداةَ تنظيف الأنابيب وأدرج النصلَ الرفيع في الفتحة وضغط عليه. سمع صوت نقرة وانفتح بابان، كالأبواب التي تُخمد صوت موسيقى الجرامافون.

وضعَ وايتساید يدَه وأخرج شيئًا.

قال بخيبةِ أمل: «كتب.» ثم أشرَقَ وجهُه وقال: «إنها مذكرات؛ أتساءل عمَّا إذا كان ذلك المتسوِّل يحتفظ بمذكراته؟»

كدَّس المجلداتِ الصغيرةَ على السرير وأخذ تارلينج واحدًا وتصفَّح الأوراق.

وقال: «مذكرات ثورنتون لاين.» ثم علَّق قائلًا: «هذه قد تكون مفيدة.»

كان أحد المجلدات مقفولًا. وكان أحدثَها، ومن الواضح أنه جرَت محاولةٌ لفتح القفل؛ لأن المشبك كان مضرورًا بشدة. في الواقع، قام السيد ميلبرج بهذه المحاولة، ولكن بما أنه كان منخرطًا في دراسةٍ منهجية للمذكرات منذ البداية؛ نحَّى المجلد الأخير جانبًا بعد محاولةٍ فاشلة لكسر القفل.

سأَلَ تارلينج: «ألا يوجد شيءٌ آخر؟»

قال المفتش المُحبَط وهو ينظر إلى الداخل: «لا شيء.» وأضافَ: «قد تكون هناك خِزاناتٌ صغيرة أخرى من هذا النوع.» لكن كشفَ البحثُ الطويل عدم وجود المزيد من أماكن الإخفاء.

قال تارلينج: «لا يوجد شيء آخر يمكن القيام به هنا.» ثم استطرد: «أبقِ أحد رجالك في المنزل لعل ميلبرج يظهر. أنا شخصيًّا أشكُّ كثيرًا فيما إذا كان سيظهر مرة أخرى.»

«هل تعتقد أن الفتاة أخافته؟»

قال تارلينج: «أعتقد أنه من المحتمل جدًّا.» وأردفَ: «سأُجري تفتيشًا في المتاجر، لكنني لا أعتقد أنه سيكون هناك أيضًا.»

ثبَتَ أن هذا التخمين صحيح. لم يرَ أحدٌ في متجر لاين المديرَ أو تلقَّى كلمةً عن مكان وجوده. اختفى ميلبرج كما لو كانت الأرض قد انشقَّت وابتلعته.

لم تُضيِّع سكوتلاند يارد وقتًا في تقديم تفاصيل الرجل المطلوبِ القبضُ عليه إلى كل مركزِ شرطة في إنجلترا. وفي خلال أربع وعشرين ساعة كان وصفُه وصورته في أيدي كلِّ مأمور قسم شرطة؛ وإذا لم يكن قد نجح في مغادرة البلاد — وهو ما كان مستبعَدًا — خلال المدَّة ما بين إصدار الأمر ومغادرته غرفةَ تارلينج في هيرتفورد، لكان القبض عليه حتميًّا.

في الساعة الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم جاء دليلٌ جديد. زوجان من الأحذية النسائية، ملطَّخان بالطين ومهترئان، اكتُشِفَا في حفرة في طريق هيرتفورد، على بُعد أربعة أميال من المنزل الذي وقعَت فيه آخرُ جريمة قتل. جاء هذا الخبر عبر الهاتف من مأمور قسم هيرتفورد، مع معلومة إضافية تُفيد بأن الحذاء جرى إرساله إلى سكوتلاند يارد بواسطة مرسال خاص.

كانت الساعة السابعة والنصف عندما أُودِعَ الطردُ الصغير على طاولة تارلينج. أزال الورق عن الطرد وفتح غطاءَ الصندوق المصنوع من الورق المقوَّى، وأخرج شبشبًا مهترئَ المظهر أكلَ عليه الدهرُ وشَرِب.

قال: «إنه نسائيٌّ بلا شك.» ثم سألَه: «هل لاحظتَ الكعب الذي يتخذ شكل هلال؟»

قال وايتسايد: «انظر!» مشيرًا إلى بعض البُقع على الجزء الداخلي الأبيض البُني. «هذا يدعم نظرية لينج تشو. قدَما الشخص الذي لبِس هذا الشبشب كانتا تنزفان.»

فحَص تارلينج الشبشب وأومأ. رفعَ اللسان بحثًا عن اسم الصانع وسقط الحذاء من يده.

سألَ وايتسايد وهو يلتقطُه: «ما الأمر بحقِّ السماء؟»

نظرَ وضحكَ بلا حولٍ ولا قوة؛ ذلك أنَّ داخل اللسان كان يوجد ملصقٌ صغير يحمل اسمَ صانع أحذية في لندن، وتحته مكتوب بالحبر «الآنسة أوه رايدر.»

الفصل الثلاثون

مَنْ قتل السيدة رايدر؟

استقبلَت رئيسةُ دار الرعاية تارلينج. وقالت إن أوديت قد استعادت هدوءها الطبيعي، لكنها تحتاج إلى بضعةِ أيام للراحة. واقترحت أن يتمَّ إرسالها إلى الريف.

قالت رئيسة دار الرعاية: «آمُل ألا تسألها الكثيرَ من الأسئلة يا سيد تارلينج؛ لأنها في الحقيقة غيرُ قادرة على تحمل المزيد من الضغط.»

قال تارلينج بحزم: «هناك سؤال واحد فقط سأطرحه.»

وجدَ الفتاةَ في غرفةٍ مؤثَّثةٍ على نحوٍ جميل، ومدَّت يدَها لتُصافحه. انحنى وقبَّلها، ودون مزيدٍ من الثرثرة أخرج الحذاء من جيبه.

قال بلطف: «أوديت عزيزتي، هل هذا لكِ؟»

نظرت إليه وأومأت.

«أوه، نعم، أين وجدته؟»

«هل أنتِ متأكدةٌ من أنه لكِ؟»

ابتسمت: «أنا متأكدة تمامًا أنه يخصُّني.» وأضافت: «إنه شبشب قديم اعتدتُ لُبْسَه. لماذا تسأل؟»

«أين رأيتِه آخِرَ مرة؟»

أغمضَت الفتاة عينيها وارتجفت.

قالت: «في غرفة أمي.» ثم تذكَّرت: «أوه، أمي، أمي!»

أدارت رأسَها إلى وسادة الكرسي وبكت وراحَ تارلينج يُهدِّئُها.

مرَّ بعض الوقت قبل أن تهدأ، لكنها بعد ذلك لم تستطِع تقديم المزيد من المعلومات.

«لقد كان حذاءً أحبَّته أمي لأنه يُناسبها. كلانا كان يلبَس المقاس نفسه ...»

تحشرجَ صوتها مرة أخرى، وسارع تارلينج إلى تغيير المحادثة.

أصبح يتحوَّل أكثرَ فأكثر إلى نظرية لينج تشو. لم يستطِع أن يُطبِّق على تلك النظرية الحقائقَ التي كانت في حوزته. في طريق عودته من دار الرعاية إلى مقر الشرطة، استعرض جريمة هيرتفورد.

دخلَ شخصٌ ما إلى المنزل حافيَ القدمَين وقدماه تنزفان، وبعد أن ارتكب جريمة القتل، بحث عن حذاء. كان الشبشب القديم هو الشيءَ الوحيد الذي استطاع القاتلُ أن يلبَسه، فلبِسَه أو لبِسَتْه وخرجَ مرةً أخرى، بعد أن دار في أنحاء المنزل. لماذا حاول هذا الشخصُ الغامض الدخولَ إلى المنزل مرة أخرى، وعمَّن أو عن ماذا كان يبحث؟

إذا كان لينج تشو محقًّا، فمن الواضح أن القاتل لا يُمكن أن يكون ميلبرج. وإذا كان يُمكن أن يَصدُق حَدسُه، فالرجل ذو القدم الصغيرة كان هو الذي صرَخ بتحدٍّ في الظلام وألقى حِمضَ الكبريتيك عند قدمَيه. وضع آراءه أمام مرءوسه ووجد وايتساید على استعدادٍ للاتفاق معه.

قال وايتساید: «لكنَّ هذا لا يعني أن الشخص حافيَ القدمَين الذي كان على ما يبدو في منزل السيدة رايدر ارتكب جريمة القتل. فميلبرج هو مَن ارتكب هذه الجريمةَ على نحوٍ دقيق بما فيه الكفاية، لا تقلق! هناك شكٌّ أقلُّ في أنه ارتكبَ جريمة قتل أزهار النرجس.»

تأرجَح تارلينج في كرسيِّه؛ كان يجلس على الجانب الآخَر من الطاولة الكبيرة التي استخدمها الرجلان على نحوٍ مشترك.

قال بثبات: «أعتقد أنني أعرف مَن ارتكب جريمة قتل أزهار النرجس.» ثم تابعَ حديثه: «لقد كنت أُقلِّب الأمر في رأسي، ولديَّ نظرية ستصفُها في الغالب بأنها خيالية.»

سألَ وايتساید: «ما هي؟» لكن الآخر هزَّ رأسه.

لم يكن مستعدًّا في ذلك الوقت للكشف عن نظريته.

أسندَ وايتساید ظهره إلى الخلف في كرسيِّه وتفكَّر للحظة.

قال: «القضية منذ البداية مليئة بالتناقضات.» وأردفَ: «كان ثورنتون لاين رجلًا ثريًّا — بالمناسبة، أنت رجلٌ ثري الآن يا تارلينج، ويجب أن أُعاملك باحترام.»

ابتسمَ تارلينج.

وقال: «تابِع كلامك.»

«كان لديه أذواقٌ غريبة — شاعر سيئ، كما يتضح من كتيب الشعر الخاص به. وكان مُدعيًا، والدليل على ذلك رعايته لسام ستاي — الذي، بالمناسبة، هربَ من المصحة العقلية؛ أفترضُ أنك تعرف ذلك؟»

قال تارلينج: «أنا أعرف ذلك. استمر.»

تابعَ وايتسايد: «وقع لاين في حبِّ فتاة جميلة من موظَّفيه.» ثم أضافَ: «وكان معتادًا على أن ينال مراده بمجرد أن يُشير بإصبَعه؛ فكل نساء الأرض يجب أن يحنين أعناقهن للنير. رفضته الفتاة وفي إذلاله حملَ لها على الفور كراهيةً تفوق فَهْم أيِّ بشري عاقل.»

قال تارلينج وعيناه تومضان: «حتى الآن، روايتك لا تحمل تناقضًا.»

تابعَ وايتسايد: «هذا هو العنصر الأول.» ووضعَ علامة على أصابعه كأنه يشطب أول عنصر. «العنصر الثاني هو السيد ميلبرج، رجل متملِّق كان يسرق الشركة منذ سنوات ويعيش في رفاهيةٍ في الريف على مكاسبه غير الشرعية. مما يسمعه أو يعرفه يستنتج أن الرقصة قد انتهت. ويُصبح في حالةٍ من اليأس عندما يُدرك أن ثورنتون لاين واقع في حالة حب يائسة مع ابنة زوجته. ماذا يُرجَّح أن يفعل أكثر من أن يستغلَّ ابنة زوجته في التأثير على ثورنتون لاين ليأخذ وجهة نظر إيجابية بشأن مخالفاته؟»

قاطعه تارلينج: «أو ماذا يُرجَّح أن يفعل أكثر من أن يُلقي اللوم عن السرقات على عاتق الفتاة ويُحمِّلها مسئولية دفع ثمن هروبه من العقاب لثورنتون لاين؟»

قال وايتسايد: «مرة أخرى. سأقبل هذا الاحتمال.» ثم أردفَ: «كانت خُطة ميلبرج هي الحصولَ على مقابلة خاصة، في ظل ظروف مواتية على نحوٍ استثنائي، مع ثورنتون لاين. فيرسل برقية إلى ذلك الرجل النبيل لمقابلته في شقة الآنسة رايدر، معتمدًا على سحر الاسم.»

قال تارلينج ساخرًا: «ويأتي ثورنتون لاين لابسًا شبشبًا.» وأضافَ: «هذا غير مقبول يا وايتسايد.»

اعترفَ الآخر: «بالفعل غير مقبول.» ثم استدركَ: «لكني أتناول جوانب القضية على نطاقٍ واسع. يأتي لاين. ويقابله ميلبرج الذي يلعب ورقة الاعتراف الرابحةَ ويُحاول تحويل الشاب إلى الحل الذي أعدَّه ميلبرج. فيرفض لاين، ويحدث شجار، وفي خضمِّ يأسه يُطلق ميلبرج النار على ثورنتون لاين.»

هزَّ تارلينج رأسه. وفكَّر لفترة، ثم قال:

«هذا غريب.»

فُتِح الباب ودخلَ ضابط شرطة.

قال: «ها هي التفاصيل التي تريدها.» وناولَ وايتسايد ورقةً مطبوعة.

قال وايتسايد عندما غادر الرجل: «ما هذا؟» ثم قال معلِّنًا: «أوه، ها هو صديقنا القديم سام ستاي. وصف الشرطة.» وواصلَ القراءة: «الطول خمس أقدام وأربع بوصات،

بشَرة شاحبة ... يرتدي بِذلة رمادية وملابسَ داخلية تحمل علامات مصحَّة المقاطعة ... واو!»

قال تارلينج: «ماذا هناك؟»

قال وايتسايد: «هذا لافت للنظر.» وقرأ:

> عندما هربَ المريضُ، كان حافيَ القدمَين. يلبَس حذاءً ذا مقاسٍ صغيرٍ جدًّا، ربما أربعة أو خمسة. فُقِد سكِّين مطبخ وقد يكون المريضُ مسلحًا. يجب تحذير صانعي الأحذية ...

علَّق تارلينج وقد نهضَ عن الطاولة متجهِّمَ الوجه: «حافي القدمين!» ثم قال: «لقد كان سام ستاي يكره أوديت رايدر.»

تبادَل الرجلان النظرات.

سألَ تارلينج: «الآن، هل تعرف مَنْ قتل السيدة رايدر؟» ثم تابعَ: «قتلَها شخصٌ رأى أوديت رايدر تدخل المنزل ولم يرَها تخرج؛ والذي ذهب وراءها لينتقم، كما كان يعتقد، لراعيه المقتول. فقتل هذه المرأةَ التعيسة — الأحرف الأولى على السكين، إم سي إيه، ترمز إلى ميدلسكس كونتي أسيلم (أو مصحَّة مقاطعة ميدلسكس) وأحضر السكين معه — واكتشف خطَأه؛ بعد ذلك، بعدما بحث عن حذاءٍ لتغطية قدمَيه النازفتَين، وبعد أن فشل في دخول المنزل بأي طريقة أخرى، دار حول المبنى، باحثًا عن أوديت رايدر وعن مدخل في كلِّ نافذة.»

نظرَ إليه وايتسايد بدهشة.

قال بإعجاب: «من المؤسف أنك حصلتَ على المال.» وتابعَ قائلًا: «عندما تتقاعدُ من هذا العمل سنفقد محققًا عظيمًا.»

الفصل الحادي والثلاثون

سام ستاي يظهر

«لقد رأيتُكَ في مكانٍ ما من قبل، أليس كذلك؟»

نظرَ رجلُ الدِّين الجسيمُ في ياقته البيضاء الناصعة بسَماحة إلى السائل، وهزَّ رأسه بابتسامة لطيفة.

«لا يا صديقي العزيز، لا أعتقد أنني رأيتُكَ من قبل.»

كان رجلًا ضئيلًا، يرتدي ملابسَ رثَّة ويبدو عليه المرض. كان وجهه شاحبًا ومتغضنًا؛ ولم يحلق منذ عدة أيام، واللحية الخفيفة السوداء أعطَته مظهرًا شريرًا. كان رجل الدِّين قد غادر لتوه تمبل جاردنز، وكان في نهاية شارع فيليرز المؤدي إلى الساحل عندما اعترض طريقَه شخصٌ وبَدَأه بالكلام. كان رجلَ دينٍ تبدو عليه السعادة، ربما كان طالبًا أيضًا، إذا كان الكتاب الضخم المهم تحت ذراعه له أيُّ دلالة.

قال الرجل الضئيل: «لقد رأيتُكَ من قبل، لقد حلمتُ بك.»

قال رجل الدين: «إذا سمحت لي، أخشى أنني لا أستطيع البقاء. لديَّ ارتباط مهم.»

قال الرجل الضئيل بنبرة شديدة القوة جعلَت الآخرَ يتوقف: «قِفْ مكانك.» ثم أردفَ: «أقول لك إنني حلمتُ بك. رأيتُكَ ترقص مع أربعة شياطين سودٍ بلا ملابس، وكنتم جميعًا بَدينين وقبيحين.»

خفَضَ صوته وكان يتحدَّث في نبرة رتيبة وقوية وجادة، كما لو كان يقرأ درسًا تعلَّمه.

أخذَ رجل الدين خطوة إلى الوراء في قلق.

وقال بجِدَّة: «الآن، يا رجلي الطيب، يجب ألا تُوقِف الرجالَ المحترمين في الشارع وتتحدَّث بمثل هذا الكلام الفارغ. أنا لم أقابلك من قبلُ في حياتي. اسمي القَسُّ جوسايا جينينجز.»

قال الآخر: «اسمُك ميلبرج. نعم، هذا هو الاسم، ميلبرج. اعتاد أن يتحدثَ عنك! ذلك الرجل الجميل — تعالَ هنا!» وقبضَ على كُم رجل الدين، فصارَ وجه ميلبرج أكثرَ شحوبًا. كان هناك غضبٌ مركَّز في قبضة الرجل على ذراعه ووحشية غريبة في كلامه. «هل تعرف أين هو؟ في مبنًى جميل مثل منزل في مقبرة هايجيت. هناك بابان صغيران يُفتحَان مثل باب كنيسة، وتنزل بعض الدرجات إليه.»

سألَ ميلبرج بأسنان مصطكَّة: «مَنْ أنت؟»

حدَّقَ الرجلُ الضئيل في وجهه وقال: «ألا تعرفني؟» وأردفَ: «لقد سمعتَه يتحدث عني. سام ستاي — عجبًا، لقد عملتُ لمدة يومين في المتاجر التي تعمل بها، لقد فعلت. وأنت — لقد حصلت على ما أعطاه لك فقط. كل قرش كسَبتَه هو مَنْ منحَك إياه، هو السيد لاين. لقد كان صديقًا للجميع — للفقراء وحتى للُّصوص من أمثالي.»

اغرورقَت عيناه بالدموع ونظرَ السيد ميلبرج حوله ليرى ما إذا كان مراقَبًا.

قال بصوتٍ خافت: «الآن، كفاك هراءً!» ثم تابعَ: «واستمع يا صديقي؛ إذا سألك أحدٌ ما إذا كنتَ قد رأيت السيد ميلبرج، فأنت لم ترَه، هل تفهم؟»

قال الرجل: «أوه، أنا أفهم.» وأضافَ: «لكنني عرَفتُك! لا أحد على صلةٍ به، لا أتذكره. لقد رفعني من الحضيض. إنه فكرتي عن الله!»

كانا قد وصلا إلى ركنٍ هادئ من الحدائق وأشار ميلبرج إلى الرجل ليجلسَ بجانبه على مقعد في الحديقة.

لأول مرة في ذلك اليوم شعَر بالثقة في الحِكمة مِن اختياره للزيِّ الذي يتنكَّر به. مشهدُ رجل دين يتحدث إلى رجلٍ ذي مظهر سيِّئ قد يُثير التعليقات، ولكن ليس الشك. فعلى أي حال، كان من صميم عمل رجال الدين التحدثُ إلى الرجال ذوي المظهر السيئ، وقد يُشاهَدان وهما مندمجان في محادثة جادة وسرية إلى أقصى حدٍّ ولن يفقد مكانته.

نظرَ سام ستاي إلى المعطف الأسود والياقة البيضاء في شك.

وسألَ: «منذ متى وأنت رجل دين يا سيد ميلبرج؟»

قال السيد ميلبرج ببراعة: «أوه — مممم — لبعض الوقت.» محاولًا تذكر ما سمعَه عن سام ستاي. لكن الرجل الضئيل وفَّر عليه مشقة التذكر.

قال: «لقد أرسلوني إلى مكانٍ في الريف، لكنك تعلم أنني لم أكن مجنونًا يا سيد ميلبرج. فهو لم يكن ليُصاحب شخصًا مجنونًا، أليس كذلك؟ أنت رجل دين، ها؟» وأومأ برأسه بحكمة، ثم سأل بحماسٍ مفاجئ: «هل جعلك قَسًّا؟ كان يستطيع أن يفعل أشياءَ

رائعة، السيد لاين كان يستطيع، أليس كذلك؟ هل ألقيتَ العِظةَ عندما دفنوه في ذلك المدفن الصغير في هايجيت؟ لقد رأيتُه — أذهب إلى هناك كلَّ يوم يا سيد ميلبرج. وجدته فقط بالمصادفة. مكتوبٌ عليه «أيضًا ثورنتون لاين، ابنه.» هناك بابان صغيران يُفتحَان كأبواب الكنيسة.»

تنهَّد السيد ميلبرج تنهيدة طويلة. بالطبع، يتذكر الآن. أُودِعَ سام ستاي في مِصحَّة للمجانين، وكان واعيًا على نحوٍ طفيف لحقيقة أن الرجل قد هرَب. لم تكن تَجرِبةً ممتعة، أن يتحدث إلى مجنونٍ هارب. ومع ذلك، قد تكون مفيدة. فالسيد ميلبرج كان رجلًا لا يُضيِّع الكثير من الفرص. تساءَل كيف يستطيع أن يستفيد من هذا الموقف؟ مرة أخرى، قدَّم سام ستاي الحل.

«سأُسوي الأمر مع تلك الفتاة ...» توقَّف وأغلق شفتيه بإحكام، ونظرَ بابتسامة صغيرة ماكرة إلى ميلبرج. وسألَ: «أنا لم أقُل أيَّ شيء، أليس كذلك؟» وأطلقَ ضحكة صغيرة غريبة. «لم أقل أيَّ شيء من شأنه أن يُدخلني السجن، أليس كذلك؟»

قال السيد ميلبرج، الذي لا يزال في شخصية القس الخَيِّر: «لا يا صديقي. إلى أي فتاة تشير؟»

تحوَّل وجه سام ستاي إلى ابتسامة خبيثة.

وقال من بين أسنانه: «هناك فتاة واحدة فقط، وسأصل إليها. سأسوي الأمر معها! لديَّ شيء هنا ...» وتحسَّسَ في جيبه بطريقة غامضة. «ظننتُ أنها معي، كنت أحملها معي منذ فترة طويلة؛ ولكنها معي في مكانٍ ما، أعلم أنها معي!»

سألَ ميلبرج: «إذن أنت تكره الآنسة رايدر، أليس كذلك؟»

«أكرهها!»

كادَ الرجل الضئيل يصرخ بالكلمات، وتحوَّل وجهه إلى اللون الأرجواني، وجحظت عيناه حتى كادتا تخرجان من رأسه، والتوَت يداه على نحوٍ متشنِّج.

بدأ كلامه قائلًا: «ظننتُ أنني انتهيتُ منها الليلة الماضية.» ثم توقف.

لم تكن للكلمات دلالةٌ أو معنًى بالنسبة إلى السيد ميلبرج؛ لأنه لم يُطالع الصحف في ذلك اليوم.

تابعَ سام: «اسمع.» وسألَه: «هل أحببت أيَّ شخص في يوم من الأيام؟»

كان السيد ميلبرج صامتًا. بالنسبة إليه، لم تكن أوديت رايدر تُمثل شيئًا، ولكن المرأة التي كانت أوديت رايدر تدعوها أمًّا والتي يدعوها هو زوجة هي موطنُ العاطفة الثمينة في حياته.

قال بعد لحظةٍ صمت: «نعم، أعتقد أنني فعلت ذلك.» ثم سأَلَه: «لماذا؟»

قال سام ستاي بصوتٍ أجش: «حسنًا، أنت تعرف كيف أشعر، أليس كذلك؟» ثم أردفَ: «أنت تعلم كَم أريد أن أنتقم من هذه المرأة التي أسقطَته. لقد استدرَجَته ... استدرجَته ... يا إلهي!» ودفنَ وجهه في يدَيه وراحَ يترنح من جانب إلى آخر.

نظرَ السيد ميلبرج حوله متخوفًا بعض الشيء. لم يكن ثمة أحدٌ في مجال رؤيته.

أوديت ستكون الشاهدَ الرئيسي ضده وهذا الرجل يكرهها. كان لديه سببٌ ضئيل لحبها. كانت الشاهدة الوحيدة التي تستطيع الحكومة تقديمها، الآن بعد أن أتلف الدليل الوثائقي على جريمته. ما هي القضية التي ستكون لديهم ضدَّه إذا وضعوه في قفص الاتهام في المحكمة الجنائية المركزية، إذا لم تكن أوديت رايدر قادمة لتُدلِيَ بشهادتها ضدَّه؟

قلَّبَ الأمرَ في رأسه بدمٍ بارد، كما يُفكر التاجر في عرضٍ تِجاري قُدِّم إليه. لقد نما إلى علمه أن أوديت رايدر كانت في لندن في دارٍ للرعاية، نتيجةً لمجموعة من الملابسات الغريبة.

اتصلَ بمتجر لاين في ذلك الصباح على الهاتف ليكتشف ما إذا كانت هناك أيُّ استعلامات عنه، وسمعَ من كبير مساعديه أنه تم طلب عدد من قطع الملابس لتُرسَل إلى هذا العنوان لاستخدام الآنسة رايدر. لقد تساءَل ماذا تسبَّب في انهيارها وخلص إلى أنه نتيجة التوتر الذي تعرَّضَت له الفتاة في تلك المقابلة المميزة التي قابلا فيها تارلينج في هيرتفورد في الليلة السابقة.

قال: «افترض أنك قابلت الآنسة رايدر؟ ماذا يمكن أن تفعل؟»

ابتسم سام ستاي ابتسامة واسعة أظهرت أسنانه.

قال ميلبرج: «حسنًا، على أي حال، من غير المحتمل أن تُقابلها لبعض الوقت. فهي في دارٍ للرعاية.» ثم واصلَ متعمِّدًا: «والدار تقع في ٣٠٤، كافنديش بليس.»

كرَّر سام: «٣٠٤، كافنديش بليس.» ثم سأَلَه: «هذا بالقرب من شارع ريجنت، أليس كذلك؟»

قال السيد ميلبرج: «لا أعرف أين توجد.» وأردفَ: «إنها في ٣٠٤، كافنديش بليس؛ لذلك فمن غير المرجَّح أن تُقابلها لبعض الوقت.»

ونهضَ على قدميه ورأى الرجل يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدمَيه مثل رجل في قبضة العذاب.

كرَّر: «٣٠٤، كافنديش بليس.» ودون أن ينطق بكلمة أخرى أدار ظهرَه للسيد ميلبرج وتسلَّل مبتعدًا.

اعتنى به ذلك الرجل المحترم وهزَّ رأسه، وبعد ذلك نهض واستدار، وسار في الاتجاه الآخر. كان حجْزُ تذكرة إلى أوروبا من محطة واترلو في نفس سهولة الحجز من محطة تشيرينج كروس. ومن نواحٍ كثيرة كان أكثرَ أمانًا.

الفصل الثاني والثلاثون

مذكرات ثورنتون لاين

كان الأحرى بتارلينج أن يكون نائمًا. كل عظمة وعصب فيه كان يصرخ طالبًا الراحة. كان رأسه غارقًا فوق طاولة في شقته. رُصَّت مذكرات لاين في كومتين على الطاولة، كانت الكومة الكبرى هي التي قرَأها، بينما الصغرى هي التي تنتظر أن يفحصها تارلينج.

كانت المذكراتُ عبارة عن سجلاتٍ فارغة غير مشتملة على أسطر تواريخ مطبوعة. في بعض الحالات، كان الكتاب الواحد يُغطي فترة سنتَين أو ثلاث سنوات، وفي حالاتٍ أخرى كان تسجيل بضعة شهور يشغل ثلاثة أو أربعة كتب. كانت الكومة على اليسار تزيد، بينما صارت الكومة الموجودة على اليمين أصغر، إلى أن أصبح هناك كتابٌ واحد فقط — مذكرات أحدث من الكتب الأخرى أُغلِقَت بواسطة قفلين من النُّحاس الأصفر، ولكنها فُتِحَت بواسطة خبراء سكوتلاند يارد.

تناوَل تارلينج هذا الكتاب وقلَّب الأوراق. كما كان يتوقَّع، كانت هذه هي مذكراته الحاليَّة — تلك التي كان ثورنتون لاين منهمكًا في كتابتها وقتَ قتله. فتحَ تارلينج الكتاب تغمره مشاعرُ الإحباط. لم تُثمر الكتب السابقة عن شيء سوى الكشفِ عن أنانية الكاتب. لقد قرأ رواية لاين للأحداث التي وقعت في شنغهاي، ولكن على أي حال هذا لم يكن شيئًا جديدًا، ولم يُضِف سوى القليل إلى إجمالي ما يعرفه المحقق.

لم يتوقع أن يُسفر الكتاب الأخير عن نتائجَ أكثر تبشيرًا عند فحصه. ومع ذلك، فقد قرأه بعناية وعلى الفور سحبَ لوح كتابةٍ نحوه، وبدأ في تدوين مقتطفات من المذكرات. هناك كانت قصة رفْضِ أوديت رايدر لمحاولاتِ تَقرُّب ثورنتون لاين، مروية بلغةٍ معتدلة وباعتدال مدهش. لقد كان سِجلًّا غير مثير للاهتمام على نحوٍ غريب، حتى وصل إلى تاريخٍ تالٍ لإطلاق سراح سام ستاي من السجن، وهنا بدأ ثورنتون لاين يُضخِّم موضوع «إهانته».

وكان هذا ما سَطَره: «ستاي خرج من السجن.» ثم واصلَ القراءة: «إنه لأمرٌ مثير للشفقة رؤيةُ كيف يعشقني هذا الرجل. أكاد أتمنى أحيانًا أن أحتفظ به خارج السجن؛ ولكن إذا فعلت ذلك، وحوَّلتُه إلى شخصٍ مُملٍّ محترم، فسوف أفتقد هذه التجارِبَ اللذيذة التي يُتيحها لي عشقه! من الممتع الاستلقاءُ في ضوءِ شمسِ عشقهِ الساطعة! تحدثت معه عن أوديت. أمر غريب لأناقشه مع شخص جاهل، لكنه كان مستمعًا رائعًا جدًّا! بالغت، كان الإغراء عظيمًا. كم كَرِهها بحلول الوقت الذي انتهيت فيه ... لقد وضع بالفعل خطةً «لإفساد شكلها» على حَدِّ تعبيره. كان مسجونًا في التوقيت نفسِه مع رجلٍ محكومٍ عليه بعقوبة الأشغال الشاقة لتشويهه فتاتَه بهذه الطريقة ... استُخدِم حمض الكبريتيك، واقترح سام أن يُنفِّذ هو العمل ... فزعت، ولكن هذا منحني فكرة. يقول إنه يستطيع إعطائي مفتاحًا يفتح أيَّ باب. لنفترض أنني ذهبت ... في الظلام؟ ويمكنني أن أترك دليلًا ورائي. ما الدليل؟ ها هي فكرة. لنفترض أنني تركتُ شيئًا صينيًّا بلا شك؟ من الواضح أن تارلينج كان وَدودًا مع الفتاة ... شيء صيني ربما يضعه في دائرة الشك ...»

انتهت المذكرات بكلمة «الشك»، نهاية ملائمة. قرأ تارلينج الفقرات مرةً تِلو الأخرى حتى كاد يحفظها عن ظهر قلب. ثم أغلقَ الكتاب ووضعَه في دُرجه وأحكمَ إغلاقه.

جلسَ وذقنه على يده لمدة نصف الساعة. كان يجمع قطع الأحجية التي سهَّلها ثورنتون لاين إلى حَدٍّ بعيد. كان اللغز يتَّضح. لقد ذهب ثورنتون لاين إلى تلك الشقة ليس استجابةً للبرقية، ولكن بهدف مساومة الفتاة وربما تدميرها. لقد ذهب بقُصاصة الورق الصغيرة المطبوع عليها أحرفٌ صينية، ناويًا ترك «الهونج» في مكانٍ واضح، بحيث يمكن أن يُلام شخصٌ آخرُ على فَعلته الشائنة.

كان ميلبرج في الشقة لغرضٍ آخر. التقى الرجلان، ووقع شجار، وأطلق ميلبرج الرصاصة القاتلة. هذا الجزء من القصة حلَّ لغزَ شبشبِ ثورنتون لاين وأحرُفِه الصينية؛ بل فسَّر وجوده هناك في حد ذاته. وفكَّر في عرض سام ستاي.

واتت تارلينج فكرةُ أنَّ الرجل الذي ألقى زجاجة حمض الكبريتيك عليه، الذي قال إنه احتفظ بها لسنوات — كان سام ستاي. ستاي، ومخططه لتشويه المرأة التي كان يعتقد أنها أهانت راعيَه الحبيب.

والآن بالنسبة إلى ميلبرج، الحلقة الأخيرة في السلسلة.

كان تارلينج قد رتَّب أن يُبلغه المسئول عن مركز شرطة كانون رو في حالة ورود أنباء. لم تصل رسالة المفتش، ونزل تارلينج عبر وايتهول ليسمع أحدث المعلومات الاستخبارية مباشرةً. وكانت قليلة للغاية. وبينما كان يتحدث وصل إلى مركز الشرطة سائقٌ غاضب، مالك سيارة أجرة تم فقدها. قضية عادية كأي قضية تأتي في طريق شرطة لندن كل يوم تقريبًا. أقلَّ سائقُ السيارة الأجرة رجلًا وامرأة إلى أحد مسارح ويست إند، واتفقا معه على أن ينتظرهما خلال المساء ويُوصلهما عند انتهاء العرض. وبعد أن اتفق على أجره، ذهب إلى مطعم صغير ليتناول العشاء. وعندما خرج كانت السيارة الأجرة قد اختفت.

قال بحِدَّة: «أعرف مَنْ فعل ذلك، وإذا أمسكت به هنا، فسوف ...»

«كيف تعرف ذلك؟»

«نظر داخل المقهى بينما كنت أتناول طعامي.»

سأل مفتش المركز: «كيف كان يبدو؟»

قال الضحية: «كان رجلًا ذا وجه أبيض، أستطيع أن أُميزه من بين ألف. والأكثر من ذلك، أنه كان يلبَس حذاءً جديدًا تمامًا.»

كان تارلينج يتحرك مبتعدًا عن مكتب الضابط أثناء تلك المحادثة، ولكنه عاد الآن.

سأل: «هل تكلَّم على الإطلاق؟»

قال سائق السيارة الأجرة: «نعم يا سيدي.» ثم أردفَ: «تصادفَ وسألته عمَّا إذا كان يبحث عن أي شخص، وقال لا، ثم واصل يهذي كثيرًا عن رجلٍ كان أفضلَ صديق لأي شخص مسكين. صادف أنَّ مقعدي كان الأقربَ إلى الباب، وهكذا دخلتُ معه في محادثة. ظننت أنه كان شخصًا مخبولًا.»

قال تارلينج بنفادِ صبر: «نعم، نعم، استمر.» ثم سألَه: «ماذا حدث بعد ذلك؟»

قال سائق السيارة الأجرة: «حسنًا، لقد خرج، وعلى الفور سمعتُ صوتَ محرك سيارة أجرة. اعتقدت أنه كان أحد السائقين الآخرين — كان هناك العديد من سيارات الأجرة بالخارج. المطعم هو مكانٌ يستخدمه سائقو سيارات الأجرة، ولم أنتبه كثيرًا حتى خرَجتُ ووجدتُ سيارتي قد اختفت، والشيطان العجوز الذي تركتها في مسئوليته قد ذهب إلى حانةٍ ليشرب الجِعَة بالمال الذي أعطاه له هذا الرجل.»

قال المفتش، وهو ينظر إلى تارلينج: «يبدو أنه رجلك يا سيدي.»

قال: «إنه سام ستاي بالتأكيد، لكن الخبر الجديد بالنسبة إليَّ أنه يستطيع قيادة سيارة أجرة.»

أومأ المفتش برأسه.

«أوه، أعرف سام ستاي جيدًا يا سيدي. لقد احتجزناه هنا مرتَين أو ثلاثًا. كان سائق سيارة أجرة — ألا تعرف ذلك؟»

لم يعرف تارلينج ذلك. كان ينوي قراءةَ سجلِّ سام ذلك اليوم، ولكن حدث شيءٌ شتَّت عقله وجعله ينسى الأمر.

قال: «حسنًا، لا يُمكنه الذَّهابُ بعيدًا.» ثم استطرد: «أعتقد أنك ستُعمِّم وصفَ السيارة، أليس كذلك؟ ربما يكون من الأسهل العثورُ عليه. لا يمكنه إخفاء السيارة كما يُمكنه إخفاء نفسِه، وإذا كان يتخيل أن حيازة السيارة ستُساعده على الهروب فهو مخطئ.»

كان تارلينج عائدًا إلى هيرتفورد في تلك الليلة، وأبلغ لينج تشو بِنيَّته. غادر مركز شرطة كانون رو، ومشى عبر الطريق إلى سكوتلاند يارد، للتشاور مع وايتسايد، الذي كان قد وعد بلقائه. كان يُتابع تحقيقاتٍ مستقلةً ويجمع تفاصيلَ أدلةٍ بخصوص جريمة هيرتفورد.

لم يكن وايتسايد موجودًا عندما وصل تارلينج، وسارع الرقيبُ المناوب في المكتب الصغير بالقرب من الباب الرئيسي متقدمًا نحوه.

قال: «لقد وصل هذا لطرَفِك قبل ساعتين، يا سيدي، اعتقدنا أنك في هيرتفورد.»

كان «هذا» عبارةً عن رسالةٍ موجَّهة بالقلم الرصاص، ولم يُحاول السيد ميلبرج إخفاء خط يده. مزَّق تارلينج الظرف وفتح الرسالة وقرأها:

> بدأت: «عزيزي السيد تارلينج.» ثم تابعت: «لقد قرأتُ للتو في صحيفة المساء، ببالغ الأسى واليأس، أخبار قتل زوجتي الحبيبة الغالية كاثرين رايدر. ما أفظع التفكيرَ في أنني منذ ساعاتٍ قليلة كنت أتحدث إلى قاتلها، على ما أعتقد سام ستاي، وأعطيتُه عن غيرِ قصدٍ معلوماتٍ عن مكان وجود الآنسة رايدر! أتوسل إليك ألا تُضيع وقتًا في إنقاذها من يد هذا المجنون القاسي، الذي يبدو أن لديه فكرةً واحدة فقط، وهي الانتقام لوفاة الراحل السيد ثورنتون لاين. عندما تصل إليك هذه الرسالة، سأكون قد تجاوزتُ قدرةَ الانتقام البشري، حيث إنني قررت إنهاء حياة مليئة بالكثير من الحزن وخيبة الأمل. م.»

كان مقتنعًا بأن السيد ميلبرج لن ينتحر، وكانت معلومةُ أنَّ سام ستاي هو مَنْ قتل السيدة رايدر معلومةً قديمة. أما معرفة أن هذا المجنون المنتقِمَ يعرف أين تُقيم أوديت رايدر فهي التي جعلت تارلينج يتفصَّد عرقًا.

سأل: «أين السيد وايتساید؟»

قال الرقيب: «لقد ذهب إلى مطعم كامبورز للقاءِ شخصٍ ما، يا سيدي.»

كان هذا الشخص أحدَ مراقبي ميلبرج في متجر لاين. لا بد أن يراه تارلينج دون تأخير. كانت خيوط جميع الترتيبات الرسمية المرتبطة بالقضية في يد المفتش، وسيكون من الضروري استشارتُه قبل أن يتمكَّن من وضع المحققين لمراقبة دار الرعاية في كافنديش بليس.

وجد سيارة أجرة وتوجَّه إلى مطعم كامبورز، الذي كان في سوهو، وكان محظوظًا بما يكفي للعثور على وايتساید وهو على وشك المغادرة.

بدأ وايتساید عندما سلَّمه تارلينج الرسالة: «لم أحصل على الكثير من هذا الزميل.»

قرأها رجل سكوتلاند يارد دون تعليق وأعادها.

«بالطبع لم ينتحر. هذا آخر شيء في العالم يمكن أن يُفكر فيه الرجالُ من أمثال ميلبرج بجدية. إنه شرير ذو دمٍ بارد. تخيَّلْه جالسًا ليكتب بهدوء عن قاتل زوجته!»

«ما رأيك في الأمر الآخر — التهديد ضد أوديت؟»

أومأ وايتساید.

قال: «ربما يطرح شيئًا.» ثم استطردَ: «بالتأكيد لا يُمكننا المجازفة. هل سُمِع أي شيء عن ستاي؟»

روى تارلينج قصة السيارة الأجرة المسروقة.

قال وايتساید بثقة: «سنمسك به.» وتابعَ: «لن يكون لديه أصدقاء، وبدون أصدقاء في مجال السيارات، من المستحيل تقريبًا الابتعادُ بالسيارة.»

استقلَّ السيارة الأجرة الخاصة بتارلينج، وبعد بضع دقائق كانا في دار الرعاية.

جاءت إليهما مديرة الدار، وكانت سيدة حَنونًا رزينة.

قال تارلينج: «أنا آسفٌ لإزعاجك في هذه الساعة من الليل.» عندما شعر باستنكارها. واستدرك: «لكنْ ثَمة معلوماتٌ وصلَتني هذا المساء تجعل من الضروري وضع الآنسة رايدر تحت حراسة.»

قالت المديرة باندهاش: «حراسة؟» ثم أردفت: «أنا لا أفهمك تمامًا، يا سيد تارلينج. لقد أتيتُ لأُعبر بالأحرى عن غضبي الشديد بشأن الآنسة رايدر. أنت تعلم أنها غير مؤهلة تمامًا للخروج. اعتقدتُ أنني أوضحتُ لك الأمر عندما كنتَ هنا هذا الصباح؟»

قال تارلينج بحيرة: «الخروج؟» ثم سألَها: «ماذا تقصدين؟ إنها لن تخرج.»

كان دور المديرة لتُفاجَأ.

قالت: «لكنكَ أرسلتَ في طلبها منذ نصف الساعة.»

قال تارلينج وقد شحبَ وجهه: «أنا أرسلت في طلبها؟» وتابعَ: «أخبريني، من فضلك، ما الذي حدث؟»

قالت المديرة: «منذ حوالي نصف الساعة، أو ربما أكثر قليلًا جاء سائق أجرة إلى الباب وأخبرني أنه قد أُرسِلَ من قِبَل السلطات لإحضار الآنسة رايدر على الفور — كانت مطلوبة فيما يتعلق بقتل والدتها.»

وشى شيءٌ ما في وجه تارلينج بمشاعره.

سألت المديرةُ بخوف: «ألم تُرسل في طلبها؟»

هزَّ تارلينج رأسه.

وسأل: «ماذا كان شكل الرجل الذي جاء؟»

«رجل عادي الشكل جدًّا، ربما كان ضئيل الجسم، وذا مظهر سيِّئ، كان سائقَ سيارة أجرة.»

«هل لديكِ أيُّ فكرة في أي طريق سارا؟»

أجابت المديرة: «لا.» ثم أردفت: «لقد اعترضت بشدة على ذَهاب الآنسة رايدر في الأساس، ولكن عندما أعطيتُها الرسالة التي يبدو أنها جاءت منك، أصرَّت على الذَّهاب.»

تأوَّه تارلينج. كانت أوديت رايدر تحت سيطرة ذلك المجنون الذي كرهها، وقتَل والدتها ووضع خُطة لتشويه جمال الفتاة التي يعتقد أنها خانت سيده الحبيب.

ودون أن ينبس ببنت شفة استدار، وغادر غرفة الانتظار وتبعَه وايتساياد.

قال عندما صارا في الخارج: «فُقِدَ الأمل.» ثم تابعَ حديثه: «فُقِدَ الأمل، فقدنا الأمل! يا إلهي! يا للفظاعة! لا أجرؤ على التفكير في الأمر. إذا كان ميلبرج على قيد الحياة، فسوف أجعله يُعاني الأمرَّيْن.»

أعطى التوجيهات إلى سائق سيارة الأجرة ودلف إلى السيارة بعد وايتساياد.

قال: «سأعود إلى شقتي لأخذ لينج تشو.» ثم أردفَ: «لا أستطيع تحمُّلَ فقد أيِّ مساعدة قد يُقدمها لنا.»

انزعج وايتساید وكان له عذره.

«لا أعرف ما إذا كان رجلك لينج تشو سيكون قادرًا على فعل الكثير في تتبع سيارة أجرة عبر لندن.» ثم أدرك بعضَ الضيق الذي يُعاني منه الآخر، فقال بأسلوب أكثر تلطفًا: «ومع ذلك، فأنا أتفق معك في أننا سنحتاج إلى كل مساعدة نستطيع الحصول عليها.»

عند وصولهما إلى شقة شارع بوند، فتح تارلينج الباب وصعد إلى الطابق العلوي، وتبعَه الآخر. كانت الشقة مظلمة — وهذا أمر غير عادي؛ لأنه كان شيئًا مفهومًا أن لينج تشو لا يخرج من البيت عندما يكون سيده في الخارج. وقد غادر لينج تشو بلا شك. كانت غرفة الطعام خالية. وكان أول شيء رآه تارلينج، عندما أشعل الضوء، كان شريطًا من ورق الأرز لم يكد الحبر يجفُّ عليه. فقط بضعة حروف صينية ولا شيء أكثر من هذا.

قرأ تارلينج بدهشة: «إذا عُدتَ قبل أن أعود، فاعلم أنني ذاهبٌ للعثور على السيدة الصغيرة.»

قال: «إذن فهو يعلم أنها رحلَت! حمدًا لله على ذلك!» ثم استطرد: «أتساءل ...»

توقَّف فجأة. ظنَّ أنه سمع أنينًا منخفضًا ونظر إلى عينَي وايتساید، فرأى أن رجل شرطة سكوتلاند يارد قد سمع الصوتَ نفسَه.

قال: «يبدو أن أحدًا يئِن.» ثم أضافَ: «اسمع!»

انحنى برأسه وانتظر، وسرعان ما عاد الصوت مرة أخرى.

في خطوتين، كان تارلينج على باب مكان نوم لينج تشو، لكنه كان مقفلًا. انحنى إلى ثقب المفتاح واستمع، وسمع الأنين مرةً أخرى. دفع الباب بكتفه، ففتحه على مصراعيه، واندفع إلى الداخل.

كان المشهد الذي رأته عيناه مميزًا. كان هناك رجلٌ مستلقٍ على السرير، مجردًا من ملابسه حتى الخصر. كانت يداه ورِجلاه مقيَّدتَين ووجهه مغطًّى بقطعة قماش بيضاء. لكن ما رآه تارلينج قبل كل شيء كان أربعة خطوط حمراء صغيرة عبر منتصف صدره العريض، تعرَّف عليها تارلينج. كانت «أدوات إقناع»، ينتزع بها رجالُ الشرطة الصينيون الاعترافاتِ سرًّا من المجرمين غير الراغبين في الاعتراف — وكانت جروحٌ خفيفة بسكينٍ حادٍّ على سطح البشَرة، وبعد ...

نظر حوله بحثًا عن «زجاجة التعذيب»، لكنه لم يرَها أمامه.

سأل: «مَنْ هذا؟» وأزال قطعة القماش عن وجه الرجل.

كان ميلبرج.

الفصل الثالث والثلاثون

لينج تشو «رجل التعذيب»

حدَث الكثير للسيد ميلبرج بين وقت اكتشافه مستلقيًا مقيَّدًا وعاجزًا، عارضًا الدليلَ على أنه كان في أيدي جلَّاد صيني، وبين لحظةِ تركه سام ستاي. لقد قرأ عن جريمة القتل، وصُدِم، وحَزِن، بطريقته الخاصة.

لم يُرسل رسالته إلى سكوتلاند يارد من أجل إنقاذِ أوديت رايدر، بل بالأحرى لكي ينتقمَ لنفسه من الرجل الذي قتل المرأةَ الوحيدة في العالم التي لمسَت طبيعتَه المشوَّهة. ولم تكن لديه أيُّ نية للانتحار. كان في حوزته جوازاتُ السفر التي حصَل عليها منذ عام استعدادًا لمثل هذه الخطوة (لقد احتفظ بهذا الزيِّ الكَنَسي بالقرب منه طَوالَ ذلك الوقت)، وكان جاهزًا في أي لحظة لمغادرة البلاد.

كانت تذاكره في جيبه، وعندما أرسل رسول المقاطعة إلى سكوتلاند يارد كان في طريقه إلى محطة واترلو للَّحاق بقطار قارب هافر. كان يعلم أن الشرطة ستراقب المحطة، لكنه لم يكن يخشى أن يكتشفوا أنَّ تحت مظهر رجل الدين الريفي الخيِّر، مديرَ متجر لاين المطلوب، حتى بافتراض وجودِ أمرٍ بالقبض عليه.

كان يقف عند كشكٍ للكتب، يشتري المطبوعاتِ ليُقصِّر على نفسه ساعاتِ الرحلة، عندما شعر بيدٍ ملقاة على ذراعه واختبر إحساسًا غريبًا بالغرَق. التفت ليرى وجهًا بُنيًّا رآه من قبل.

سألَ بابتسامة: «حسنًا يا صديقي، ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟»

لقد طرَح السؤال بالعبارات نفسِها لسام ستاي — لم يُلهِمه مخُّه بأكثرَ من هذا دون تفكير.

قال لينج تشو: «سوف تأتي معي، يا سيد ميلبرج.» وأردفَ: «سيكون من الأفضل لك ألا تُسبِّب أيَّ مشكلة.»

«أنت ترتكب خطأً.»

قال لينج تشو بهدوء: «إذا كنتُ أرتكب خطأً، فما عليك إلا أن تقول لذلك الشرطيِّ إني خلطتُ بينك وبين ميلبرج، المطلوبِ من قِبَل الشرطة بتهمة القتل العَمْد، وسأتورَّط في مشكلة كبيرة جدًّا.»

كانت شفتا ميلبرج ترتجفان من الخوف وتحوَّل وجهُه إلى اللون الرمادي.

قال: «سآتي.»

سار لينج تشو بجانبه، وخرَجا من محطة واترلو. بقيت الرحلة إلى شارع بوند في ذاكرة ميلبرج كحُلم مروِّع. لم يكن معتادًا على السفر في الحافلات العامة، لكونه رجلًا مترفًا لا يدَّخر وُسعًا ليضمنَ راحته. لينج تشو على العكس كان لديه ولعٌ بالحافلات ويبدو أنه يستمتع بها.

لم ينطقا بأيِّ كلمة حتى وصلا إلى غرفة الجلوس في شقة تارلينج. توقَّع ميلبرج أن يرى المحقِّق. لقد وصل بالفعل إلى استنتاج أن لينج تشو لم يكن سوى رسولٍ أُرسِل من قِبل الرجل القادم من شنغهاي لكي يَمثُل أمامه. لكن لم يكن هناك أثرٌ لتارلينج.

سأل: «الآن يا صديقي، ماذا تريد؟» ثم قال: «صحيحٌ أنني السيد ميلبرج، ولكنك عندما تقول إنني ارتكبتُ جريمةَ قتل، فأنت تكذب كذبة بشعة.»

كان قد اكتسبَ بعض الشجاعة؛ لأنه كان يتوقَّع في المقام الأول أن يُنقَل على الفور إلى سكوتلاند يارد ويُوضَع في الحجز. بدا له أن حقيقةَ أن شقة تارلينج هي نهاية الرحلة تُشير إلى أن الوضع لم يكن يائسًا كما كان يتصوَّر.

التفتَ لينج تشو فجأةً إلى ميلبرج وأمسكه من مِعصَمه، الأمر الذي تطلب منه أن يستديرَ نصف استدارة. وقبل أن يعرف ميلبرج ما كان يحدث، وجد نفسَه مستلقيًا على الأرض، ووجهه لأسفل، وركبة لينج تشو في نهاية ظهره. شعر بشيء مثل انزلاق حلقةٍ سلكية حول معصمَيه، وعانى آلامًا مبرِّحة عندما أحكم الصينيُّ الحلقة الرابطة للأصفاد الصينية الأصلية.

قال لينج تشو بصرامة: «انهض.» وبذَل قوةً مفاجئة عندما رفع الرجلَ على قدميه.

قال ميلبرج بينما تصطكُّ أسنانه خوفًا: «ماذا ستفعل؟»

لم يُحِر لينج تشو جوابًا. وأمسك الرجلَ بيدٍ واحدة وفتح البابَ بالأخرى، ودفعه إلى غرفةٍ كانت بالكاد مؤثَّثة. كان ثَمة سريرٌ حديديٌّ مقابل الحائط، ودفع الرجلَ على هذا السرير، وتكوَّم عليه.

تابع صائدُ اللصوص الصيني أداء عمله بطريقةٍ عِلمية. أولًا: ربَط خيطًا من الحرير في أحد قضبان السرير ورفع رأس ميلبرج في هذا؛ حتى لا يستطيعَ المقاومة إلا عندما يُواجه خطرَ الخنق.

ثانيًا: قام لينج تشو بقلبه، وفكِّ الأصفاد، وعلى نحوٍ منهجي ربطَ معصمًا واحدًا أولًا، ثم الآخَر إلى جانب السرير.

كرَّر ميلبرج: «ماذا ستفعل؟» لكن الصيني لم يحر جوابًا.

أخرج سكينًا مخيفَ المظهر من حزامٍ أسفل قميصِه، وفتح المديرُ فمَه ليصرخ. كاد يفقد أعصابه من الذعر، لكن أي سبب للخوف لم يأتِ بعد. أوقف الصيني صرخته بوضع وسادة على وجه الرجل، وبدأ عمدًا في قطع الملابس على الجزء العلوي من جسده.

قال بهدوء: «إذا صرختَ، فسيعتقد الناس أنني أُغني! الصينيون ليس لديهم موسيقى في أصواتهم، وأحيانًا عندما كنتُ أغني أغنياتي الأصلية، كان الناس يحضرون ليكتشفوا مَن الذي يُعاني.»

تنفَّس ميلبرج وقال في محاولة أخيرة لإنقاذ الموقف: «أنت تتصرف على نحوٍ غير قانوني. سوف تُعاني الزجَّ بك في السجن جراء جريمتك.»

قال لينج تشو: «سأكون محظوظًا؛ فالسجن حياة. أما أنت فسوف تُعلَّق في نهاية حبل طويل.»

كان قد رفع الوسادة عن وجه ميلبرج، والآن كان ذلك الرجل الشاحب يُتابع كلَّ حركة من حركات الرجل الصيني بأعينٍ مذعورة. وسرعان ما جُرِّدَ ميلبرج من ملابسه حتى الخصر، وراح لينج تشو يتأمَّل عمله برضًا.

ذهب إلى خِزانة في الحائط وأخرج زجاجة بُنية صغيرة، وضعها على طاولة بجانب السرير. ثم جلس هو نفسُه على حافَة السرير وتحدَّث. كانت لغته الإنجليزية مثالية تقريبًا، على الرغم من أنه يتردَّد بين الحين والآخر في اختيار كلمة، وكان هناك لحظاتٌ يكون فيها متكلفًا قليلًا في حديثه، وأحيانٌ يكون أكثرَ من متحذلق بقليل. تحدَّث ببطءٍ وبتروٍّ عظيم.

«ألا تعرف الشعب الصيني؟ ألم تَزُر الصين أو تَعِشْ فيها؟ عندما أقول تعيش لا أقصد البقاءَ لمدة أسبوع في فندق جيد في إحدى المدن الساحلية. عاشَ صديقك السيد «لاين» في الصين بهذه الطريقة. ولم تكن إقامة ناجحة.»

قاطعه ميلبرج مستشعرًا أن لينج تشو يربطه بطريقةٍ ما بمغامرات ثورنتون لاين السيئة قائلًا: «أنا لا أعرف شيئًا عن السيد لاين.»

قال لينج تشو وهو ينقر بالشفرة المسطحة لسكينه على راحة يده: «حسنٌ!» ثم أردفَ: «إذا كنتَ قد عشت في الصين — في الصين الحقيقية — فقد تكون لديك فكرةٌ قاتمة عن شعبنا وسِماته. يُقال إن الرجل الصيني لا يَهاب الموت أو الألم، وهي مبالغة طفيفة لأني عرَفتُ مجرمين يخشون كلَيهما.»

انحنت شفتاه الرفيعتان لثانية في شبح ابتسامة كما لو كان يتذكَّر بعض الذكريات المُسلِّية. ثم أصبح جادًّا مرة أخرى.

«من وجهة النظر الغربية نحن شعبٌ بدائي. من وجهة نظرنا نحن نُقدِّر الشرف بصرامة. أيضًا — وهذا ما سأؤكده.» في الواقع، أكَّد بالفعل على كلماته، الأمر الذي أثار الرعبَ في السيد ميلبرج، عندما كان نَصلُ السكين على صدر الآخر العريض، على الرغم من أن السكين كان خفيفًا جدًّا لدرجة أن ميلبرج لم يشعر بأي شيء سِوى بوخز بسيط جدًّا.

«نحن لا نُقدر حقوق الفرد بالقيمة نفسِها التي يُقدرها بها الناسُ في الغرب.» ثم استطردَ يشرح بعناية: «على سبيل المثال، نحن لسنا عَطوفين مع سجنائنا، إذا اعتقدنا أننا بممارسة قليلٍ من الضغط عليهم يُمكن أن نساعد سير العدالة.»

سألَ ميلبرج عندما بزغت في عقله فكرةٌ مروعة: «ماذا تقصد بذلك؟»

«في بريطانيا، وفي أمريكا أيضًا حسَب فَهمي — رغم أن الأمريكيين أكثرُ استنارة حول هذا الموضوع — عندما تعتقل عضوًا في عصابة فأنت تكتفي باستجوابه وتُعطيه مجالًا كاملًا لممارسة قوته الإبداعية. تسأله أسئلة وتستمرُّ في طرح الأسئلة، ولا تعلم هل يكذب أم يقول الحقيقة.»

بدأ السيد ميلبرج يتنفَّس بصعوبة.

سألَ لينج تشو: «هل ترسخَت هذه الفكرة في عقلك؟»

قال السيد ميلبرج بصوتٍ مرتعش: «لا أعرف ماذا تقصد. كل ما أعرفه هو أنك ترتكب خطأً جسيمًا بـ...»

أوقفه لينج تشو بإشارة.

وقال: «أنا مدرك تمامًا لما أفعله.» ثم استطرد: «الآن اسمعني. منذ أسبوع أو نحوه، عُثِرَ على السيد ثورنتون لاين، ربِّ عملك، مقتولًا في هايد بارك. كان مرتديًا قميصَه وبنطاله، وقد لفَّ أحدُهم ثوبَ نومٍ حريريًّا حول جسمه، في محاولةٍ لإيقاف نزيف الجرح. وقد قُتِل في شقةِ سيدة شابة، لا أستطيع نطق اسمها، ولكنك تعرفها.»

لم تبرح عينا ميلبرج عينَي الصينيِّ على الإطلاق، وأومأ برأسه.

قال لينج تشو ببطء: «لقد قُتِلَ بيدك؛ لأنه اكتشف أنك كنتَ تسرقه، وكنتَ تخشى أن يُسلمك إلى الشرطة.»

زمجَر ميلبرج قائلًا: «تلك كذبة.» ثم قال مؤكِّدًا: «إنها كذبة — أقول لك إنها كذبة!»

قال لينج تشو: «سوف أكتشف ما إذا كانت كذبةً في غضون دقائق قليلة.»

وضعَ يده داخل قميصه، وراقبه ميلبرج مبهورًا، لكنه لم يُخرج أيَّ شيء أكثرَ من علبة سجائر فِضِّية، فتحها. اختار سيجارة وأشعلها، ولبضع دقائق راح ينفث دخانها في صمت، بينما ثبَّت عينَيه المتأملتين على ميلبرج. ثم نهض وذهب إلى الخزانة وأخرج زجاجة أكبر ووضعها بجوار الزجاجة الأخرى.

سحبَ لينج تشو نفسًا آخر من سيجارته ثم ألقى بها في المدفأة.

وقال بطريقته البطيئة المتروية: «إنَّ في مصلحة الجميع أن تُعرَف الحقيقة، من أجل سيدي المحترم، ليه جين، الصيَّاد، وآنسته الصغيرة المحترمة.»

رفعَ سكينه وانحنى به على الرجل المذعور.

قال ميلبرج بصوتٍ يمتزج فيه النحيبُ بالصراخ: «أستحلفك بالله ألَّا تفعل، لا تفعل.»

قال لينج تشو: «هذا لن يُؤذيك.» ورسم أربعةَ خطوطٍ مستقيمة عبر صدر الآخر. بالكاد لامست حافَةُ الموسى اللحمَ، ومع ذلك كانت في المكان الذي مرت فيه السكينُ علامةٌ حمراءُ رقيقة مثل خدش.

لم يشعر ميلبرج بشيءٍ من الألم، كل ما هنالك بعضُ الوخز الخفيف ولا أكثر. وضع الصينيُّ السكين وأخذ الزجاجة الصغرى.

قال: «في هذا مستخلص نباتي. هذا ما يمكن أن تُسميه الفليفلة، لكنها ليست تمامًا مثل فُلفلِكم؛ لأنها مقطَّرة من جذر أصلي. وفي هذه الزجاجة ...» التقط الزجاجة الكبرى ثم أردف: «زيتٌ صيني يُخفف الآلام التي تُسببها الفليفلة على الفور.»

سألَ ميلبرج وهو يُقاوم: «ماذا ستفعل؟» ثم أردفَ: «أيها الكلب! أيها الشيطان!»

«بفرشاة صغيرة سأدهن بالفليفلة على هذه الأماكن.» ولمسَ صدر ميلبرج بأنامله الطويلة البيضاء. «شيئًا فشيئًا، ملليمترًا فملليمترًا سوف تتحرك فرشاتي، وسوف تتجرع ألمًا لم تتجرَّعْه من قبلُ في حياتك. إنه ألمٌ سيعتصرك من قمة رأسك إلى أخمص قدمَيك، وسيُلازمك في ذاكرتك ما حييت.» وأردف متفلسفًا: «في بعض الأحيان، هذا يدفعني إلى الجنون، لكنني لا أعتقد أنه سيدفعك إلى الجنون.»

أخرجَ السدادة وغمسَ فرشاة صغيرة من شعر الجِمال في الخليط، وسحبَها مبتلَّة بالسائل. كان يُراقب ميلبرج طوال الوقت، وعندما فتح الرجلُ المكتنز فمَه ليصرخ حشر منديلًا من الحرير، كان قد سحبه بسرعة البرق من جيبه، في الفم المفتوح.

شهق صوتُ ميلبرج المكتوم: «انتظر، انتظر!» وقال: «لديَّ شيء أخبرك به — شيء يجب أن يعرفه سيدك.»

قال لينج تشو ببرود: «هذا جيد جدًّا.» وسحب المنديل من فمه. ثم قال: «سوف تُخبرني بالحقيقة.»

سألَ الرجل وهو يتفصد عرقًا من الخوف: «ما الحقيقة التي يمكن أن أقولها لك؟» كانت حباتُ العرق الكبيرة تتلألأ على وجهه.

قال لينج تشو: «سوف تعترف بحقيقةِ أنك قتلتَ ثورنتون لاين.» ثم تابعَ: «هذه هي الحقيقة الوحيدة التي أريد أن أسمعها.»

صرخ المحتجَز بهذيان: «أقسم أنني لم أقتله! أقسم بذلك، أقسم بذلك! انتظر، انتظر!» كان ينشج بينما يلتقط الآخرُ المنديل: «هل تعرف ما حدث للآنسة رايدر؟»

قيَّد الصينيُّ حركته.

وقال بسرعة: «للآنسة رايدر؟» (نطق الكلمة «لايدر».)

روى ميلبرج قصة لقائه مع سام ستاي لاهثًا منقطع الأنفاس. وفي خِضمِّ توتره وألمه العقلي حكى بصراحة ليس فقط كلَّ كلمة، بل كل حرف وكل سكتة، واستمع الصينيُّ بعينَين نصف مغلقتَين. بعد ذلك، عندما انتهى ميلبرج، وضع زجاجته وحشر السدادة في فوهتها.

قال: «كان سيدي سيتمنَّى لو أن المرأة الصغيرة تتجاوز الخطر.» ثم أردفَ: «هذه الليلة لن يعود، ولذا يجب أن أذهب بنفسي إلى المستشفى ... يمكنك أن تنتظر.»

قال ميلبرج: «أطلِق سراحي.» ثم أضافَ: «سوف أساعدك.»

هزَّ لينج تشو رأسه.

وقال بابتسامة شريرة: «يُمكنك الانتظار.» ثم استطرد: «سأذهب أولًا إلى المستشفى وبعد ذلك، إذا كان كل شيء على ما يُرام، فسأعود من أجلك.»

أخذَ منشفةً بيضاء نظيفة من منضدة الزينة ووضعها على وجه ضحيته. ورشَّ على المنشفة محتويات زجاجة ثالثة أخذها من الخِزانة، ولم يتذكر ميلبرج أي شيء آخر حتى نظر إلى وجه تارلينج المتحيِّر بعد ساعة.

الفصل الرابع والثلاثون

اعتقال

انحنى تارلينج لأسفل وفكَّ الحبال التي ربَطَت ميلبرج بالأريكة. كان الرجل المكتنز يرتجف وقد ابيضَّ وجهه خوفًا، وكان لا بد من رفعه إلى وضعية الجلوس. جلس هناك على حافة السرير ووجهه في يدَيه لمدة خمس دقائق، وراقبه الرجلان بفضول. فحص تارلينج بعنايةٍ الجروحَ في صدره، وشعر بالارتياح عندما اكتشف أن لينج تشو — لم يشك في أن الصينيَّ كان المسئول عن محنة ميلبرج — لم يستخدم بعدُ هذا التعذيب الرهيب الذي كان يدفع المجرمين الصينيِّين في كثير من الأحيان إلى حافة الجنون.

التقطَ وايتساید الملابسَ التي خلعها لينج تشو على نحوٍ منهجي عن جسد الرجل، ووضعها على السرير بجانب ميلبرج. ثم دعا تارلينج الآخرَ إلى الغرفة الخارجية.

سألَ وايتساید: «ماذا يعني كلُّ ذلك؟»

قال تارلينج بتجهُّم: «هذا يعني أن صديقي لينج تشو، كان يحاول اكتشاف قاتل ثورنتون لاين بطرقٍ صينية خاصة. ولحسن الحظ جرَت مقاطعته، ربما بسبب أن ميلبرج أخبره أن الآنسة أوديت رايدر قد خُطِفَت.»

نظرَ إلى الوراء إلى الجسد المتدلي بجانب السرير.

وقال: «إنه أضخم قليلًا مني، لكني أعتقد أن بعض ملابسي سوف تُناسبه.»

أجرى بحثًا سريعًا في خِزانة ملابسه وعاد ببعض قطع الملابس.

قال: «تعالَ يا ميلبرج. أيقظ نفسك وارتدِ الملابس.»

نظرَ الرجل إلى أعلى، وشفته السفلى ترتجف على نحوٍ مثير للشفقة.

قال تارلينج بسخرية: «أعتقد أن هذه الملابس، على الرغم من أنها قد لا تكون على مقاسك، ستكون مناسبةً لك أكثر قليلًا من ردائك الكَنَسي.»

دون كلمة واحدة، أخذ ميلبرج الملابس في ذراعيه، وتركاه حتى يلبَس. سمعا وقع أقدامه الثقيلة، وسرعان ما فتح الباب وخرج واهنًا إلى غرفة الجلوس، وارتمى على أحد المقاعد.

سألَ وايتساید: «هل تشعر أنك على ما يُرام بما يكفي لأن تخرجَ الآن؟»

قال ميلبرج، وهو ينظر لأعلى متخوفًا: «أخرج؟» ثم سألَه: «أين سأذهب؟»

قال وايتساید العملي: «إلى مركز شرطة كانون رو.» ثم أضافَ: «لديَّ أمرٌ بالقبض عليك يا ميلبرج، بتهمة القتل العَمْد، والحرق العَمْد، والتزوير، والاختلاس.»

«القتل العَمْد!» كان صوت ميلبرج عاليًا وحادًّا وارتفعت يداه المرتجفتان إلى فمه. واستطردَ يقول: «لا يُمكنك أن تتهمني بالقتل العَمْد. لا، لا، لا! أقسم لك إني بريء!»

سألَ تارلينج: «أين رأيت ثورنتون لاين آخر مرة؟» وبذل الرجلُ جهدًا عظيمًا كي يتمالكَ نفسَه.

بدأ حديثه: «رأيته حيًّا آخر مرة في مكتبه.»

سألَه تارلينج مرة أخرى: «متى رأيت ثورنتون لاين آخر مرة؟» ثم أضافَ: «حيًّا أو ميتًا.»

لم يردَّ ميلبرج. وعلى الفور وضع وايتساید يده على كتف الرجل ونظرَ نحو تارلينج.

قال بسرعة: «تعالَ معي.» وتابعَ: «من واجبي كضابط شرطة أن أُحذرك أن أيَّ شيء تقوله الآن سيجري تسجيله واستخدامه كدليلٍ ضدَّك في محاكمتك.»

قال ميلبرج: «انتظر، انتظر!» كان صوته أجشَّ وغليظًا. نظر حواليه ثم توسَّل وهو يلعق شفتيه الجافتَين: «هل لي في كوبٍ من الماء؟»

جلبَ تارلينج المرطِّبات التي شربها الرجلُ بشغَف. بدا الماء وكأنه يُحيي شيئًا من روحه المتغطرسة القديمة؛ لأنه نهضَ من كرسيِّه، وعبثَ في ياقة معطفه الذي لم يكن مقاسه — كان معطفَ صيد قديمًا خاصًّا بتارلينج — وابتسمَ لأول مرة.

قال بشيءٍ من عجرفته القديمة: «أعتقد أيها السادة أنكم ستجدون صعوبةً في إثبات أن لي علاقةً بقتل ثورنتون لاين. وأنكم ستجدون صعوبة مماثلة في إثبات أن لي علاقةً بإحراق مكتب سولومون — أفترض أن تلك هي تهمة الحرق العَمْد التي تقصدونها؟ والأصعب من ذلك كلِّه هو محاولتكم إثباتَ أن لي علاقةً بسرقة شركة ثورنتون لاين. فالسيدة التي سرقت تلك الشركةَ قد اعترفَت بالفعل، مثلما تعرف جيدًا يا سيد تارلينج.» ابتسم إلى الآخر، لكنَّ عينَيْ تارلينج التقَتا بعينيه.

قال بثبات: «أنا لا أعرف شيئًا عن أي اعتراف.»

أمال السيد ميلبرج رأسه بابتسامةٍ متكلَّفة. على الرغم من أنه كان لا يزال يحمل الدليل الماديَّ على الوقت العصيب الذي مر به، فقد استعاد شيئًا من ثقته القديمة.

قال: «لقد حُرِقَ الاعتراف، وأنت مَنْ حرقه يا سيد تارلينج. والآن أعتقد أن خَدْعتك قد آنَ لها أن تنتهي.»

قال تارلينج بدوره مندهشًا: «خدعتي!» ثم سأَلَه: «ماذا تقصد بخدعتي؟»

قال ميلبرج: «أنا أشير إلى المذكرة التي تُشير إلى أنها أُصدِرت من أجل القبض عليَّ.»

«هذه ليست خَدعة.» كان وايتساید هو مَنْ تحدَّث، وأخرج مِن جيبه ورقةً مطوية، فتحها وعرضها أمام عينَي الرجل. ثم أردف: «وفي حالة وقوع حوادث.» وببراعة ألبسه زوجًا من الأصفاد في معصميه.

ربما كان السبب هو إيمان ميلبرج الكبير بعبقريته. وربما كان، وهذا هو الأرجح، وعيُه بأنه قد أخفى كلَّ آثاره على نحوٍ جيد جدًّا بحيث لا يُمكن كشفها. أحدُ هذين السببين قد أبقاه صامدًا، لكنه انهار الآن. بالنسبة إلى تارلينج، كان من المدهش أن يُحافظ ذلك الرجلُ على تبجُّحِه حتى النهاية، رغم أنه كان يعرف في أعماقه أن الحكومة الملكية لديها قضيةٌ سيئة للغاية ضد ميلبرج إذا تمت المباشرة بقضية الاختلاس والحَرْق العَمْد. كان يُمكن ضمانُ إدانتِه على جريمة القتلِ وحدها، ومن الواضح أن هذا ما أدركه ميلبرج؛ لأنه لم يَقم بأي محاولة في أقواله المتميزة التي أعقبت ذلك لأنْ يفعلَ أكثرَ من التلميح إلى أنه كان مذنبًا بسرقة الشركة. جلس متكومًا على كرسيِّه، ويداه مشدودتان على المنضدة أمامه، ثم انتفض فجأةً واقفًا.

قال وهو يُصلصل بالسلسلة التي تربط بين الأصفاد: «إذا خلعتما عني هذه الأشياءَ أيها السيدان، فسوف أخبركما بشيءٍ قد يُريحكما من التفكير في مسألة وفاة ثورنتون لاين.»

نظر وايتساید إلى رئيسه مستفسرًا، وأومأ تارلينج برأسه. وبعد ثوانٍ قليلة كانت الأصفاد قد أُزيلت، وكان السيد ميلبرج يُحاول تهدئة معصميه المجروحين.

عالِم النفس الذي كان سيُحاول تحليل الحالة العقلية التي وجَد تارلينج نفسَه فيها، كان سيُواجه مهمة صعبة. لقد جاء إلى الشقة وهو يكاد يموت قلقًا جراءَ اختفاء أوديت رايدر. كان ينوي دخول شقته والخروجَ منها في أسرعِ وقتٍ ممكن، على الرغم من أنه لم تكن لديه أيُّ فكرة عما ينوي فعله بعد ذلك. كانت معرفة أن لينج تشو يتتبع الخاطف

بمثابة مهدِّئٍ لأعصابه المشدودة؛ وإلا ما كان بإمكانه البقاءُ والاستماع إلى الأقوال التي يستعدُّ ميلبرج للإدلاء بها.

بين الحين والآخر كانت تُراوده فكرة أن أوديت رايدر في خطر، مثل وخز الألم؛ وكان يريد الانتهاء من هذا العمل، وإيداعَ ميلبرج في زنزانة بالسجن، وتكريس كلِّ طاقاته لتعقُّبها. وجاءه هذا الوخز الآن وهو يُراقب هذا الشخصَ الضخم على الطاولة.

قال: «قبل أن تبدأ، قل لي هذا: ما هي المعلومات التي أعطيتَها إلى لينج تشو مما دفعه إلى تركك؟»

قال ميلبرج: «أخبرتُه عن الآنسة رايدر، وقدمتُ له نظرية — كانت مجرد نظرية — لما حدث لها.»

قال تارلينج: «فهمت.» ثم استطرد: «والآن قُل قصتك وقلها بسرعة يا صديقي، وحاوِل التمسُّك بالحقيقة. مَنْ قتل ثورنتون لاين؟»

لوى ميلبرج رأسه ببطء نحوه وابتسم.

قال ببطء: «إذا كان بإمكانك تفسيرُ كيفية أخذ الجثة من شقة أوديت رايدر وتركها في هايد بارك، يمكنني الردُّ عليك على الفور. ذلك أنني حتى هذه اللحظة أعتقد أن ثورنتون لاين قُتِل على يد أوديت رايدر.»

سحبَ تارلينج نفَسًا عميقًا.

وقال: «هذه كذبة.»

لم يتراجع السيد ميلبرج بأي حال من الأحوال.

وقال: «حسنٌ جدًّا.» ثم استطرد: «الآن، هَلا تكرمت بالاستماع إلى روايتي.»

الفصل الخامس والثلاثون

رواية ميلبرج

قال السيد ميلبرج بأسلوبه الغامض الذي يبرع فيه: «لا أنوي أن أصف كلَّ الأحداث التي سبقت وفاة الراحل ثورنتون لاين. ولن أبذلَ قُصارى جهدي في وصف شخصيته المعروفة، بل وربما السيئة السُّمعة. لم يكن صاحبَ عملٍ جيدًا؛ كان متشككًا، وظالمًا، ووضيعًا من نواحٍ كثيرة. أعترف أن السيد لاين كان يشكُّ فيَّ. كان لديه انطباعٌ بأنني سرَقت من الشركة مبالغَ مالية كبيرة — وهو شكٌّ كنتُ أشتبهُ بدوري في وجوده منذ فترة طويلة، وتأكدت منه من خلال محادثة قصيرة سمعتها في اليوم الأول الذي سُرِرت فيه برؤيتك يا سيد تارلينج.»

تذكَّر تارلينج ذلك اليوم القاتل عندما جاء ميلبرج إلى المكتب في اللحظة التي كان فيها لاين يُعبِّر عن رأيه بحرية شديدة بشأن مرءوسه.

قال ميلبرج: «بالطبع، أيها السيدان، لا أعترفُ للحظةٍ واحدة بأنني سرقت الشركة، أو أنني مذنب في ارتكاب أيِّ أعمال إجرامية. أعترف بوجود بعض المخالفات، بعض الإهمال، الذي كنتُ مسئولًا عنه أخلاقيًّا؛ ولكن لا أعترف بأكثر من ذلك. إذا كنتَ تُدوِّن ما أقول ...» والتفت إلى وايتساييد، الذي كان يدوِّن الأقوالَ بإيجاز، ثم أردف: «أرجو منك أن توضح إنكاري.» كرَّر بعناية: «مخالفات وإهمال، لست مستعدًّا للاعتراف بأكثرَ من هذا.»

«بعبارة أخرى، أنت لا تعترف بأي شيء؟»

وافق السيد ميلبرج بقوة شديدة: «أنا لا أعترف بأي شيء.» ثم أردفَ: «يكفي أنَّ السيد لاين كان يشتبهُ فيَّ وأنه كان مستعدًّا لتعيين محقِّق من أجل تتبُّع اختلاساتي، كما وصَفَها. صحيحٌ أنني عشتُ بترَف، وأنني أملك منزلَيْن؛ واحدًا في كامدن تاون، وواحدًا في هيرتفورد، ولكنني ضاربتُ في بورصة الأوراق المالية وضاربتُ بحِكمة شديدة.

لكنني رجل حسَّاس، أيها السيدان، ومعرفة أنني كنتُ مسئولًا عن بعض المخالفات شغلت ذهني كثيرًا. دعنا نَقُل، على سبيل المثال، إنني كنت أعرف أنَّ شخصًا ما كان يسرق الشركة، لكنني لم أتمكَّن من اكتشاف ذلك الشخص. أليست حقيقةُ أنني كنت مسئولًا أخلاقيًّا عن الشئون المالية لمتاجر لاين كفيلةً بأن تُسبِّب لي التعاسة الشديدة؟»

قال وايتساید: «أنت تتحدَّث مثل كتاب، وأنا شخصيًّا لا أُصدق أيَّ كلمة مما تقوله. أعتقد أنك كنتَ لصًّا يا ميلبرج؛ لكن تابِعْ روايتك الحلوة.»

قال السيد ميلبرج ساخرًا: «أشكرك.» ثم واصلَ كلامه: «حسنًا، أيها السيدان، آلَتِ الأمور إلى أزمة. شعرتُ بمسئوليتي. كنت أعلم أن شخصًا ما كان يسرق الشركة، وكانت لديَّ فكرة أنه من المحتمل أن أدخل في دائرة الشك، وأن أولئك الذين كانوا أعزاءَ لديَّ ...» اهتز صوته للحظةٍ وصار أجشَّ، ثم كرَّر: «أولئك الذين كانوا أعزاءَ لدي، سيتضرَّرون من خطايا سهوي.

تم فصلُ الآنسة أوديت رايدر من شركة متاجر لاين نتيجةَ رفضها للمبادرات غير المرغوبة للراحل السيد لاين. وحوَّل السيد لاين جامَ غضبه ضد هذه الفتاة، وهذا أعطاني فكرة.

الليلة التي أعقبَت المقابلة — أو ربما كانت في الليلة نفسها — أنا أقصد المقابلة التي أجراها السيد تارلينج مع الراحل ثورنتون لاين — كنتُ أعمل في وقتٍ متأخر في المكتب. كنت، في الواقع، أُرتِّب مكتب السيد لاين. لسببٍ ما غادرت المكتب، وعند عودتي وجدت المكان مظلمًا. أعدتُ تشغيل الضوء، ثم اكتشفت على المكتب مسدسًا ذا مظهر قاتل.»

والتفتَ إلى تارلينج وتابع: «في الأقوال التي أدليتُ بها لك يا سيدي، قلتُ إنني لم أعثر على هذا المسدس؛ وبالفعل، لقد أقررتُ بجهلي العميق بوجوده. يؤسفني أن أعترف لك بأنني كنتُ أخبرك بكذبة. لقد وجدت المسدس بالفعل؛ ووضعته في جيبي وأخذته إلى المنزل. ومن المحتمل أنه جرى إطلاقُ الرصاص القاتل على السيد لاين من هذا المسدس.»

أومأ تارلينج.

«لم يكن لديَّ أدنى شك في ذلك يا ميلبرج. كان لديك أيضًا مسدسٌ آليٌّ آخَر، جرى شراؤه بعد جريمة القتل من جون وادهام من سيرك هولبورن.»

أحنى السيد ميلبرج رأسه.

وقال: «هذا صحيح تمامًا يا سيدي.» ثم تابعَ: «لديَّ هذا السلاح. أنا أعيش حياة وحيدة جدًّا، و...»

قال تارلينج: «لا تحتاج إلى شرح. أنا فقط أقول لك إنني أعرف مِن أين حصلتَ على المسدس الذي أطلقتَ النارَ عليَّ به في الليلة التي أحضرت فيها أوديت رايدر من آشفورد.»

أغمضَ السيد ميلبرج عينيه وبدا على وجهه الاستسلام — استسلام رجل أُسيءَ استغلالُه واتُّهِمَ زورًا.

قال: «أعتقد أنه سيكون من الأفضل عدمُ مناقشة الموضوعات المثيرة للجدل.» ثم أضافَ: «إذا سمحت لي، سألتزم بالحقائق.»

كان من الممكن أن يضحك تارلينج على الوقاحة الفائقة للرجل، لولا أنه كان يزداد انزعاجًا من الضغط المزدوج الذي يُفرَض عليه. كان من المحتمَل أن هذا الرجل لو لم يتهم أوديت رايدر بجريمة القتل، لكان سيتركه ليعترف لوايتساید، ويذهبَ بمفرده في بحثه اليائس عن سيارة الأجرة التي يقودها سام ستاي.

تابعَ السيد ميلبرج: «استئنافًا لما كنتُ أقوله، أخذتُ المسدس إلى المنزل. ستفهم بالتأكيد أنني كنت في حالةٍ ذهنية تكاد تصل إلى الانهيار العصبي. كنت أشعر بمسئولياتي بشدة، وأشعر أن السيد لاين لو لم يقبل تأكيدي على البراءة، فلن يبقى أمامي شيءٌ سوى أن أترك هذا العالم.»

قال وايتساید: «بعبارة أخرى، هل فكَّرت في الانتحار؟»

قال ميلبرج بتأمُّل: «لقد شخَّصتُ الوضع بدقة.» ثم أردفَ: «فُصِلَت الآنسة رايدر، وأنا كنتُ على وشك الانهيار. كانت والدتها ستتورط في المشكلة — تلك كانت الأفكار التي راودتني وأنا جالس في غرفة الطعام المتواضعة في كامدن تاون. ثم واتتني الفكرة. تساءلتُ عما إذا كانت أوديت رايدر تُحب أمها بما يكفي لتقديم التضحية العظيمة، أن تتحملَ المسئولية كاملة عن المخالفات التي حدَثَت في قسم الحسابات في متاجر لاين، وتُغادر إلى أوروبا حتى ينتهي الأمر. كنت أنوي رؤيتها في اليوم التالي، لكنني كنت لا أزال أشكُّ فيما إذا كانت ستنزل على رأيي.» ثم استدركَ بأسلوبٍ وعظي: «فالشباب هذه الأيامَ أنانيون على نحوٍ رهيب.»

«بالمصادفة البحتة، لحقتُ بها على آخر لحظة وهي تُغادر إلى هيرتفورد، ووضعتُ الموقف بأكمله أمامها. صُدِمت الفتاة المسكينة بطبيعة الحال، ولكنها سرعان ما وافقَت على اقتراحي ووقَّعَت على الاعتراف الذي حرقتَه أنت يا سيد تارلينج بعد تفكير.»

نظرَ وايتساید إلى تارلينج.

وقال بقليلٍ من اللوم: «لم أكن أعرف شيئًا عن هذا.»

قال تارلينج: «استمر.» وأضافَ: «سأشرح ذلك فيما بعد.»

«كنتُ قد أرسلت برقيةً إلى والدة الفتاة سابقًا لأخبرها أنها لن تعودَ إلى المنزل في تلك الليلة. كما أرسلتُ برقيةً إلى السيد لاين، لكي أطلبَ منه أن يُقابلني في شقة الآنسة رايدر. ومنحتُ نفسي حريةَ وضعِ اسم الآنسة رايدر على الدعوة، معتقدًا أن ذلك سيُشجعه على الحضور.»

قال تارلينج: «لقد حماك ذلك أيضًا، وأبقى اسمَك خارج الموضوع بالكامل.»

قال السيد ميلبرج وكأنَّ الفكرة لم تخطر بباله من قبل: «نعم، نعم، لقد فعَل ذلك. أبعدتُ الآنسة رايدر على عجَل. وتوسلتُ إليها ألا تقترب من الشقة، ووعدتها أن أذهب بنفسي هناك، وأجمع الأشياء الضرورية للرحلة وأوصلها بسيارة أجرة إلى تشيرينج كروس.»

قال تارلينج: «فهمت، إذن أنت مَن عبَّأ الحقيبة؟»

صحَّح السيد ميلبرج: «عبَّأ نصفها.» ثم قال: «كما ترى، لقد ارتكبتُ خطأً في الوقت الذي يُغادر فيه القطار. لم أكتشف إلا وأنا أُعبِّئ الحقيبة أن مِن المستحيل بالنسبة إليَّ أن أصل إلى المحطة في الوقت المناسب. وقد رتبتُ مع الآنسة رايدر أنني إذا لم أحضر سأتصل بها هاتفيًّا قبل ربع الساعة من مغادرة القطار. كان عليها أن تنتظرني في ردهة فندقٍ قريب. كنت آمُل الوصولَ إليها قبل ساعة على الأقل من مغادرة القطار؛ لأنني لم أرغب في جذب الانتباه إلى نفسي، أو إلى الآنسة رايدر. عندما نظرتُ إلى ساعتي، وأدركتُ أنَّ من المستحيل الوصولَ، تركتُ الحقيبة كما كانت، نصفَ معبأة، وخرجتُ إلى محطة المترو واتصلتُ بها.»

سألَ تارلينج: «كيف دخلت وخرجت؟» ثم قال موضِّحًا: «حارس العقار المناوب على الباب قال إنه لم يرَ أحدًا.»

شرحَ السيد ميلبرج: «خرجتُ من الخلف.» ثم قال: «إنه حقًّا أبسطُ شيء في العالم أن تصل إلى شقة الآنسة رايدر في القبو عن طريق الإسطبل في الخلف. كل المستأجرين لديهم مفاتيح الباب الخلفي ليتمكَّنوا من إدخال مركباتهم وإخراجها، أو إدخال الفحم الخاص بهم.»

قال تارلينج: «أنا أعلم ذلك.» ثم استحثه قائلًا: «استمر.»

قال ميلبرج: «أنا أسبق القصة الفعلية بقليل.» ثم استطرد: «أخذَتْ مسألةُ تعبئة الحقيبة روايتي أبعدَ قليلًا مما كنتُ أنوي أن أذهب إليه. بعد أن ودَّعتُ الآنسة رايدر،

قضيتُ بقية المساء في إحكام خططي ...» ثم استدركَ وهو يلوِّح بيده: «لن يكون من المجدي أن أقولَ لكما الحجج التي كنت أنوي طرحها عليه.»

قال تارلينج: «إذا لم تشمل خيانة الآنسة رايدر، فأنا لا أفهمُ شيئًا. أنا أعرف جيدًا الحجج التي كنت تنوي استخدامها.»

قال ميلبرج: «إذن يا سيد تارلينج اسمح لي أن أُهنِّئك على كونك قارئَ أفكار؛ لأنني لم أفصح عن أفكاري السرية لأي إنسان. ومع ذلك، هذا خارجٌ عن الموضوع. اعتزمتُ الترافع أمام السيد لاين. كنت أنوي أن أُقدِّم إليه سِجلَّ سنوات من الخدمة المخلصة لوالده الراحل؛ وإذا لم يقبل الاعترافَ، وإذا أصرَّ على تنفيذ خطته الانتقامية، عندئذٍ يا سيد تارلينج، كنت أنوي إطلاق النار على نفسي أمام عينَيه.»

قال هذا بتأثيرٍ درامي نادر؛ لكن تارلينج لم يتأثر البتَّة، ورفع وايتساید عينَيه للأعلى بعد أن كانت مثبَّتة على ملاحظاته، وأومَضَت عيناه.

قال: «يبدو أن هوايتك هي أن تستعدَّ للانتحار وتُغيِّر رأيك.»

قال ميلبرج: «يؤسفني سَماعُك تتحدَّث باستخفافٍ حول موضوعٍ جَلَل.» ثم أردفَ: «كما قلت، لقد انتظرت وقتًا طويلًا، لكنني كنت متلهفًا لأن يُسدِل الظلامُ أستاره السوداء قبل أن أشق طريقي إلى الشقة. وهذا ما فعلتُه بسهولة لأن أوديت أعطتني مفتاحها. لقد وجدتُ حقيبتها دون صعوبة — كانت في غرفة الطعام على أحد الرفوف، ووضعتُ الحقيبة على سريرها، وتابعت، بأفضلِ ما أستطيع؛ لأنني لستُ خبيرًا بأدوات التجميل النسائية، تجميعَ الأشياء التي أعلم أنها ستحتاج إليها في الرحلة.

وهكذا كنتُ مشغولًا عندما خطر لي أنني أخطأتُ في وقت القطار، ونظرتُ إلى ساعتي، ورأيتُ لخوفي أنني لن أكون قادرًا على الوصول إلى المحطة في الوقت المناسب. لحسن الحظ، كنت قد رتَّبت للاتصال بها، كما أخبرتُك من قبل.»

قال تارلينج: «لحظة واحدة.» ثم سألَه: «ماذا كنتَ ترتدي؟»

«ماذا كنتُ أرتدي؟ دعني أفكر. كنت أرتدي معطفًا ثقيلًا، أعرف ذلك لأن الليلة كانت باردة وضبابية بعض الشيء، إذا كنتَ تذكر.»

«أين كان المسدس؟»

أجابَ ميلبرج على الفور: «في جيب المعطف.»

«هل كنت ترتدي معطفك؟»

فكَّر ميلبرج للحظة.

«لا، لم أفعل. لقد علَّقتُه على مشجب عند نهاية السرير، بالقرب من التجويف الذي أعتقد أن الآنسة رايدر استخدمَته كخِزانة ملابس.»

«وعندما خرجتَ إلى الهاتف، هل كنتَ ترتدي معطفك؟»

قال ميلبرج على الفور: «لا، أنا متأكد تمامًا من ذلك.» ثم أردفَ: «أتذكر أنني فكرت فيما بعدُ كم كان من الحماقة إحضارُ معطف وعدم استخدامه.»

قال تارلينج: «استمر.»

«حسنًا، لقد وصلتُ إلى المحطة، واتصلتُ بالفندق، ولدهشتي وانزعاجي لم تُجِب الآنسة رايدر. سألتُ الموظَّف الذي أجاب على الهاتف عما إذا كان قد رأى سيدةً شابة ترتدي كذا وكذا منتظرةً في بهو الفندق، فأجاب: «لا.» لذلك ...» قال السيد ميلبرج على نحوٍ قاطع: «ستوافق على أنه من الممكن أن الآنسة رايدر لم تكن موجودة سواءٌ في المحطة أو في الفندق، وهناك احتمال مميز أن تكون قد تراجعَت.»

قاطعه وايتساید قائلًا: «نريد الحقائق.» ثم أردفَ: «لدينا نظريات كافية. أخبِرْنا بما حدث. وبعد ذلك سوف نستخلص استنتاجاتنا الخاصة.»

أجابَ ميلبرج بلطف: «حسنٌ جدًّا يا سيدي.» ثم قال: «بحلول الوقت الذي اتصلتُ فيه هاتفيًّا كانت الساعة التاسعة والنصف. سوف تتذكر أنني أرسلتُ برقية إلى السيد لاين لمقابلتي في الشقة في الحادية عشرة. من الواضح أنه لم يكن ثَمة سببٌ يجعلني أعود إلى الشقة حتى بضع دقائق قبل ميعاد السيد لاين، لكي أسمح له بالدخول. لقد سألتَني الآن، يا سيدي ...» والتفت إلى تارلينج ثم تابع: «ما إذا كنتُ أرتدي معطفي، ويُمكنني أن أؤكد على نحوٍ قاطع أنني لم أكن أرتديه. كنتُ عائدًا إلى الشقة بنية إحضار معطفي، عندما رأيتُ عددًا من الأشخاص يتجولون في الإسطبل خلف مجمع الشقق. لم تكن لديَّ رغبةٌ في جذب الانتباه، كما أخبرتُك من قبل؛ لذلك وقفتُ منتظرًا حتى تفرَّق هؤلاء الأشخاص الذين كانوا موظَّفي شركة سيارات كان لها مَرأبٌ خلف الشقة.

الآن، الانتظار في زاوية إسطبل في ليلة ربيعية باردة عملٌ بارد، ولما رأيتُ أن الأمر سيستغرق بعض الوقت قبل أن يُصبح الإسطبل خاليًا، عدتُ إلى الشارع الرئيسي ومشيتُ على طول الشارع حتى وصلتُ إلى دار سينما. وأنا مهتم بالعروض السينمائية.» أوضح السيد ميلبرج، ثم تابع: «وعلى الرغم من أنني لم أكن في مزاجٍ للترفيه، فقد اعتقدت أن العروض ستوفر جاذبية ممتعة. نسيتُ اسم الفيلم ...»

قال تارلينج: «ليس من الضروري أن تُخبرنا في الوقت الحالي.» ثم أضافَ: «هل يُمكنك من فضلك اختصارُ روايتك قدرَ الإمكان؟»

صمت ميلبرج للحظة.

قال: «أنا آتٍ الآن إلى الحقيقة الأكثر غرابة على الإطلاق، وأُريدكما أن تتذكرا كلَّ التفاصيل التي أُقدمها إليكما. من مصلحتي أن يَمثُل مرتكب هذه الجريمة الفظيعة أمام العدالة ...»

أوقفَت بادرةُ نفادِ صبرِ تارلينج العباراتِ المبتذَلةَ المحفوظة في حلقه، لكن السيد ميلبرج لم يتحرَّج بأي شكل من الأشكال.

«عندما عدتُ إلى الإسطبل وجدتُه خاليًا تمامًا. وكانت تقف خارج الباب المؤدي إلى المخازن والأقبية سيارةٌ ذات مقعدَين. لم يكن بداخلها أو أمامها أحد ونظرتُ إليها بفضول، غيرَ مدرك في تلك اللحظة أنها مِلكُ السيد ثورنتون لاين. ما كان يُهمني هو حقيقة أن البوابة الخلفية، التي ترَكتُها مغلقة، كانت مفتوحة. وكذلك كان الباب المؤدي إلى ما يُمكن أن أُسميه الغرفةَ تحت الأرض — كانت أفضلَ قليلًا — التي كان على المرء أن يمر من خلالها للوصول إلى شقة أوديت من الطريق الخلفي.»

قال السيد ميلبرج على نحوٍ مثير للإعجاب: «فتحتُ باب الشقة، ودخلت. كنتُ قد أطفأتُ مفتاح الإنارة عندما ذهبتُ، ولكن لدهشتي رأيتُ عبر رافدة غرفة نوم أوديت أنَّ هناك نورًا مُضاءً بالداخل. أدَرتُ المقبض، وحتى قبل أن أرى الغرفة، اقتحمَت أنفي رائحةُ مسحوقٍ مشتعِل.

أول ما رأيته كان رجلًا مُلقًى على الأرض. كان على وجهه، لكنني قلبته، ولذعري الشديد كان السيد ثورنتون لاين. وكان فاقدًا للوعي وينزف من جرحٍ في صدره، وفي هذه اللحظة اعتقدتُ أنه ميت. أن أقول إنني صُدِمت سيكون وصفًا ملطَّفًا لشعوري الرهيب.

كانت فكرتي الأولى — وأفكاري الأولى تكون سليمةً في بعض الأحيان — أنَّ أوديت رايدر، التي عادت لسببٍ ما، قد أطلقَت عليه الرصاص. ومع ذلك، كانت الغرفة فارغة، وكان ثَمة مُلابَسات غريبة سأُخبرك بشأنها، وهي أن النافذة المؤدية إلى منطقة الشقة كانت مفتوحةً على مِصراعَيها.»

قال تارلينج: «لقد كانت مَحميَّة بقضبان ثقيلة؛ ولذا لا يُمكن لأحد أن يهرب بهذه الطريقة.»

تابع ميلبرج وهو يومئ برأسه موافقًا على وصف تارلينج: «فحَصتُ الجرح، وعرَفتُ أنه جرحٌ قاتل. ومع ذلك، لا أعتقد أن السيد ثورنتون لاين كان قد مات في هذا الوقت. فكرتي التالية كانت هي إيقافَ نزيف الجرح، وفتحتُ الدُّرج وأخرجتُ أولَ ما وصلَت

إليه يدي، وهو ثوب النوم. كان عليَّ أن أجد ضمادة واستخدمتُ اثنتين من مناديل أوديت لهذا الغرض. أولًا جرَّدته من معطفه وسُترته، وهي مهمة صعبة بعضَ الشيء، ثم أجلستُه بأفضلِ ما أستطيع. كنتُ أعلم أن حالته كانت ميئوسًا منها، وفي الواقع أعتقد ...» واستدرك بجدية: «أعتقد أنه مات حتى قبل اكتمال التضميد.

بينما كنتُ أفعل شيئًا، وجدتُ أنَّ من الممكن أن أنسى الموقف الرهيب الذي سأجد نفسي فيه إذا جاء شخصٌ ما إلى الغرفة. ولكن في اللحظة التي رأيتُ فيها الحالة ميئوسًا منها، وفكَّرتُ للحظةٍ، تملَّكَني ذُعرٌ أعمى. انتزعتُ معطفي من المشجب وجرَيتُ خارجًا من الغرفة؛ عبر الطريق الخلفي إلى الإسطبل، ووصلتُ إلى كامدن تاون في تلك الليلة، محطمًا ذهنيًّا وجسديًّا.»

سأل تارلينج: «هل تركتَ الأنوار مضاءة؟»

فكَّر السيد ميلبرج للحظة.

وقال: «نعم، تركتُ الأنوار مضاءة.»

«وتركتَ الجثة في الشقة؟»

أجاب ميلبرج: «أُقسم على ذلك.»

«والمسدس — عندما عُدتَ إلى المنزل هل كان في جيبك؟»

هزَّ السيد ميلبرج رأسه.

«لماذا لم تُخطر الشرطة؟»

اعترف السيد ميلبرج بقوله: «لأنني كنت خائفًا.» ثم قال: «كنتُ خائفًا حتى الموت. إنه اعتراف رهيب، لكنني جبان حقًّا.»

أصرَّ تارلينج: «لم يكن هناك أحدٌ في الغرفة؟»

«لا أحد حسبما استطعت أن أراه. أقول لك إن النافذة كانت مفتوحة. أنت تقول إن عليها قضبانًا — هذا صحيح، لكن الشخص النحيف جدًّا يمكن أن ينزلق بين تلك القضبان. امرأة ...»

قال تارلينج بسرعة: «مستحيل.» كانت القضبانُ مَقيسة بعناية شديدة، ولا يمكن لأيِّ شيء أكبر من الأرنب المرورُ عبرها. وأنت ليست لديك فكرةٌ عمَّن حمل الجثة؟»

أجابَ ميلبرج بحزم: «لا، على الإطلاق.»

فتحَ تارلينج فمه ليقول شيئًا ما عندما رنَّ جرس الهاتف، والتقطَ الهاتفَ من الطاولة التي كان عليها.

كان صوتًا غريبًا حيَّاه بصوتٍ أجشَّ وعالٍ، كما لو كان غيرَ معتاد على الحديث في الهاتف.

صاحَ الصوت بسرعة: «اسمُك تارلينج؟»

قال تارلينج: «هذا هو اسمي.»

سأل الصوت: «إنها صديقتك، أليس كذلك؟»

كانت هناك ضحكةٌ مكتومة. سرَت رجفةٌ باردة في أوصال تارلينج؛ لأنه، على الرغم من أنه لم يقابل الرجلَ قط، فقد أخبره حَدْسه أنه كان يتحدث إلى سام ستاي.

صرخَ الصوت: «ستجدها غدًا، ما تبقَّى منها. المرأة التي استدرجَته ... ما تبقى منها ...»

سمع صوتَ نقرة، وأُنهِيَت المكالمة من الطرف الآخر.

كان تارلينج يضغط على زر الهاتف مثل المجنون.

سألَ: «من أين جاءت هذه المكالمة؟» وبعد لحظة وفَّر له العامِل معلومة أنها من هامبستيد.

الفصل السادس والثلاثون

في مقبرة هايجيت

جلست أوديت رايدر في ركنٍ من أركان السيارة الأجرة التي تسير بسلاسة. عيناها مغلقتان، فقد جاء ردُّ الفعل الحتمي. الإثارة والقلق تضافرا لمنحها القوةَ للمشي إلى السيارة بخطوات ثابتة فاجأت مديرةَ الدار؛ ولكن الآن، في الظلمة والوحدة، كانت تشعر بالاكتئاب، الجسدي والعقلي، الذي تركها دون إرادة أو قوة لبذلِ المزيد من الجهد.

انطلقَت السيارة بسرعة عبر شوارعَ طويلة لا تنتهي — في أي اتجاه لم تكن تعلم ولا تهتم. تذكَّر أنها لم تكن تعرف حتى أين تقع دارُ الرعاية. ربما كان على حافة لندن؛ هذا كل ما كانت تعلمه. ذات مرة، كان ذلك عندما كانت السيارة تعبر شارع بوند من ميدان كافنديش، رأت الناس يستديرون وينظرون إلى السيارة وأشار إليها شرطيٌّ وصاح شيئًا. كانت منشغلة جدًّا بحيث لم تُقلق رأسَها بالسبب وراء ذلك.

لقد قدَّرت بطريقة غامضة مشوشة مهارةَ سائق السيارة الأجرة الذي بدا أنه قادرٌ على شق طريقه عبر أي عائق مروري وحوله؛ ولم يُساوِرْها أيُّ شك في أن كل شيء ليس على ما يُرام إلا عندما وجدَت السيارة الأجرة تجتاز طريقًا ريفيًّا. وحتى حينئذٍ خُفِّفَت شكوكها عندما تعرَّفَت على معالمَ معينةٍ في الطريق أخبرتها أنها على طريق هيرتفورد.

فكَّرت: «بالطبع.» ثم أردفت: «لا بد أنني مطلوبة في هيرتفورد وليس في لندن.» وهدَّأت نفسها مرة أخرى.

توقفت السيارة الأجرة فجأة، وتراجعت في حارة جانبية، وانعطفَت في الاتجاه من حيث أتَيا. وعندما ضبط مقدمة سيارته في الاتجاه الصحيح، أغلقَ سام ستاي محركه، ونزل من مقعده، وفتح الباب.

قال بجِدَّة: «اخرجي من هنا!»

بدأت الفتاة الحائرة: «لماذا ... ماذا ...» ولكن قبل أن تقول أيَّ كلمة أخرى دلف الرجل إلى السيارة، وأمسكها من معصمها، وجذبها إلى الخارج بعنف شديد جعلها تسقط على الأرض.

«أنتِ لا تعرفينني، ها؟» كانت هذه كلماته وهو يقترب بوجهه من وجهها، ويُمسك بكتفيها بوحشية لدرجة أنها كادت تصرخ ألمًا.

كانت على ركبتيها، تُكافح من أجل الوقوف على قدمَيها، ونظرت إلى الرجل الضئيل متسائلة.

قالت لاهثة: «أنا أعرفك.» ثم أردفت: «أنت الرجل الذي حاول الدخولَ إلى شقتي!»

ابتسمَ ابتسامةً عريضة.

«وأنا أعرفُك!» وضحك بقسوة ثم قال: «أنت الشيطانة التي استدرَجَته! أفضل رجل في العالم ... إنه في قبر صغير في مقبرة هايجيت. الباب مثل باب الكنيسة. وهذا هو المكان الذي ستكونين فيه الليلة، اللعنة عليكِ! سآخذُكِ إلى هناك. تحت، تحت، تحت، وأترُكُكِ معه لأنه كان يريدك!»

كان يُمسكها من معصميها، ويُحدِّق في وجهها، وكان ثمَّة شيء ذئبيٌّ جدًّا ومتوحش جدًّا، في عيني الرجل المجنون المحدقة، شيء جعل فمها يجف وعندما حاولت الصراخ لم يخرج منها أيُّ صوت. بعدئذٍ مالت نحوه، وأمسك بها من تحت ذراعيها وسحبها لتقف على قدميها.

قال ضاحكًا: «هل فقدتِ الوعي؟ سوف تفقدين الوعي يا سيدتي؟» ثم أضافَ: «ألَا تتمنَّين ألَّا تُفيقي أبدًا، ها؟ أراهن أنكِ ستتمنين ذلك إذا عرَفتِ ... إذا عرفتِ!»

ألقاها على العشب على جانب الطريق، وأخذ حزام الأمتعة من مقدمة السيارة، وربط يدَيها. ثم التقط الوشاح الذي كانت ترتديه وربطه حول فمها.

باستعراضٍ غير عادي للقوة رفعها دون جهد وأعادها إلى زاوية المقعد. ثم صفق الباب، وصعد مرة أخرى إلى مكانه، وأطلق العِنان للسيارة لتنطلقَ بأقصى سرعة في اتجاه لندن. كانا في ضواحي هامبستيد عندما رأى لافتةً فوق متجرٍ لبيع السجائر، وأوقف السيارةَ بعيدًا عنه قليلًا، في أحلكِ جزءٍ من الطريق. ألقى نظرةً على السيارة من الداخل. كانت الفتاة قد انزلقت من المقعد إلى الأرض واستلقَت بلا حَراك.

سارع عائدًا إلى متجر السجائر حيث كانت علامة الهاتف. كان في الجزء الخلفي من دماغه الفاسد فكرةُ أنه كان هناك شخصٌ ما سيتأذَّى. ذلك الشيطان ذو المظهر القاسي الذي كان يستجوبه عندما سقط في نوبة ... تارلينج. نعم، كان هذا هو الاسم، تارلينج.

تصادف أنَّ دليل الهاتف كان جديدًا، وكان اسم تارلينج مضمَّنًا فيه، على الرغم من أنه كان مشترِكًا جديدًا. وفي ثوانٍ قليلة كان يتحدَّث إلى المحقِّق.

أغلق السماعة وخرج من الكشك الصغير، ونظر إليه صاحب المتجر، الذي سمع صوته العاليَ القاسي بارتياب؛ لكن سام ستاي كان غيرَ مبالٍ بشكوك الرجل. سار بسرعة إلى حيث كانت سيارتُه الأجرة تقف، حتى كاد يجري، وقفز في المقعد، ومرةً أخرى انطلق بالسيارة نحو الأمام.

إلى مقبرة هايجيت! كانت هذه هي الفكرة. ستكون البواباتُ مغلقة، ولكن يُمكنه فعلُ شيء ما. ربما سيقتلها أولًا ثم يحملها فوق الجدار بعد ذلك. سيكون انتقامًا رهيبًا إذا استطاع إدخالها في المقبرة حيةً ودفعَها هناك، على قيد الحياة وسطَ الموتى، عبر تلك الأبواب الصغيرة التي تُفتَح مثل أبواب الكنيسة إلى قبوٍ بارد رطب بالأسفل.

صرخ وغنَّى بفرحٍ من الفكرة، والتفتَ المشاةُ الذين رأوا السيارة الوامضة تمرُّ بهم، وتتأرجح من جانبٍ إلى آخر، عندما سمعوا صوت الغناء الوحشي؛ لأن سام ستاي كان سعيدًا كما لم يكن سعيدًا في حياته من قبل.

لكن مقبرة هايجيت كانت مغلقة. بوابات حديدية قاتمة حجبت كلَّ المداخل، والأسوار كانت عالية. كان مكانًا محيرًا؛ لأن المنازل كانت تُحيط به من جميع الجهات تقريبًا؛ وظل نصف الساعة يبحث عن مكانٍ مناسب قبل أن يوقف السيارة أخيرًا قبالة مكانٍ حيث كان السور لا يبدو فيه عصيًّا. لم يكن هناك أحدٌ حوله ولم يخشَ من المقاطعة من جانب الفتاة. لقد نظر إلى داخل السيارة ولم يرَ شيئًا سوى جسدٍ متكوِّم على الأرض. لذلك، فقد ظنَّ أنها لا تزال فاقدةً للوعي.

سار بالسيارة إلى الرصيف، ثم انزلق إلى المسافة الضيِّقة ما بين السيارة والسور، وفتح الباب على مصراعَيه.

صاح ببهجة: «هيا!» ومدَّ أصابعه — ثم فجأة انطلق شيء من السيارة، شيء رشيق ومرن، شيء أمسك الرجل الضئيل من رقبته وألقاه على السور.

صارع ستاي بقوة الجنون، لكن لينج تشو أمسك به بقبضةٍ حديدية.

الفصل السابع والثلاثون

عودة لينج تشو

أسقطَ تارلينج سماعة الهاتف وغرق في أحد المقاعد متأوهًا. كان وجهه مُبيَضًّا — أكثرَ بياضًا من وجه المُحتجَز الذي جلس أمامه، وبدا أنه قد تقدَّم في السن فجأة.

سأل وايتساید بهدوء: «ماذا هناك؟» ثم أضافَ: «مَنْ كان الرجل؟»

قال تارلينج: «ستاي.» ثم أردفَ: «ستاي. لديه أوديت! هذا فظيع، فظيع!»

كان وايتساید، يتأمل الوضع وقد انشغل عقله؛ أما ميلبرج، فقد ارتعشَ وجهُه خوفًا، وراح يُراقب المشهد بفضول.

قال تارلينج: «لقد هُزِمت.» وفي تلك اللحظة رنَّ جرس الهاتف مرة أخرى.

رفعَ السماعةَ وانحنى على الطاولة، ورأى وايتساید عينَيه تتَّسعان في ذهول. كان صوت أوديت هو الذي استقبله.

«إنه أنا، أوديت!»

كاد يصرخ: «أوديت! هل أنتِ بأمان؟ حمدًا لله على ذلك!» ثم قال: «حمدًا لله على ذلك! أين أنتِ؟»

«أنا في متجر لبيع السجائر في ...» وتوقفت عن الكلام لحظة بينما كان من الواضح أنها تسأل أحدَهم عن اسم الشارع، ثم على الفور عادت من جديد بالمعلومة.

قال تارلينج: «لكن هذا رائع!» ثم أردفَ: «سأكون معك على الفور. وايتساید، أحضِر سيارة أجرة، هَلا فعلت؟ كيف هربتِ؟»

قالت: «إنها بالأحرى قصة طويلة.» ثم تابعت: «صديقك الصيني أنقذَني. هذا الرجل المروِّع أوقف السيارة الأجرة بالقرب من متجرٍ لبيع السجائر ليُجريَ اتصالًا هاتفيًّا. وظهر لينج تشو على حين غِرة، وكأنه ظهر بقوة السحر. أعتقد أنه ربما كان يرقد فوق

السيارة؛ لأنني سمعتُه ينزل من الجنب. ساعدَني على الخروج من السيارة وأوقفني في مدخلٍ مظلِم، وأخذ مكاني. من فضلك لا تسألني بعد الآن. أنا في غاية التعب.»

بعد نصف الساعة كان تارلينج مع الفتاة وسمع قصةَ الاعتداء. استعادت أوديت رايدر شيئًا من هدوئها، وقبل أن يُعيدها المحقِّق إلى دار الرعاية أخبرَته قصة مغامرتها.

قالت: «لا بد أنني فقدتُ الوعي.» ثم أضافت: «وعندما أفقتُ كنتُ مستلقية على أرض السيارة، التي كانت تتحرك بسرعة رهيبة. فكرتُ في العودة إلى المقعد، لكن خطر لي أنني إذا تظاهرتُ بأنني فاقدةُ الوعي فقد يكون لديَّ فرصةٌ للهروب. عندما سمعتُ صوتَ توقُّف سيارة الأجرة حاولتُ النهوض، لكن لم تكن لديَّ القوة الكافية. لكن المساعدة كانت قريبة. سمعتُ صوت كشطِ حذاء على الجزء العلوي الجلدي من السيارة، وفجأةً فُتح الباب ورأيتُ شخصًا كنتُ أعرف أنه ليس سائقَ السيارة. رفعني وأخرجني من السيارة، ولحسن الحظ كانت السيارةُ متوقفة أمام منزلٍ خاص له مدخلٌ كبير مسقوف، وقادني إليه.

قال لي: «انتظري. هناك مكانٌ يُمكنكِ الاتصالُ فيه هاتفيًّا. انتظري حتى نذهب.»

ثم عاد إلى سيارة الأجرة، وأغلق البابَ بدون ضوضاء، وبعد ذلك مباشرةً رأيتُ ستاي يركض على طول الطريق. وفي ثوانٍ قليلة اختفَت سيارةُ الأجرة وجرَرْت نفسي إلى المتجر — وهذا كل شيء.»

لم يتمَّ تلقِّي أي أخبار عن لينج تشو عندما عاد تارلينج إلى شقته. كان وايتساييد ينتظر. وأخبره أنه وضَع ميلبرج في زنزانةٍ وأنه ستتمُّ محاسبته في اليوم التالي.

قال تارلينج: «لا أستطيع أن أفهم ما حدث للينج تشو. كان يجب أن يعودَ الآن.»

كانت الواحدة والنصف صباحًا، ولم يُسفر الاستفسار عبر الهاتف إلى سكوتلاند يارد عن أي معلومات.

تابع تارلينج: «من الممكن، بالطبع أن يكون ستاي قد أخذ سيارة الأجرة إلى هيرتفورد. لقد تحوَّل الرجلُ إلى مجنون خطير.»

قال وايتساييد متفلسفًا: «كل المجرمين مجَانينُ إلى حدٍّ ما.» ثم أردفَ: «أتساءل ما الذي أذهب عقلَ هذا الرجل.»

قال تارلينج: «الحب!»

نظرَ إليه الآخر في دهشة.

«الحب؟» كرَّر غيرَ مصدق، وأومأ تارلينج برأسه.

«لا شك أن سام ستاي كان يعشق لاين. كانت صدمة موته هي التي دفعَته إلى الجنون.»

دقَّ وايتساييد بأصابعه على الطاولة وهو يتأمل.

سأل: «ما رأيك في قصة ميلبرج؟» فهزَّ تارلينج كتفيه.

وقال: «من الصعب جدًّا إصدارُ حكم.» ثم واصلَ حديثه: «تكلَّم الرجل كما لو كان يقول الحقيقة، وشيءٌ ما بداخلي يُقنعني أنه لم يكن يكذب. ومع ذلك فالأمر برُمته لا يُصدَّق.»

حذَّره وايتساييد قائلًا: «بالطبع، كان لدى ميلبرج الوقتُ الكافي لاختلاق قصة جيدة جدًّا. إنه رجل داهية، ميلبرج هذا، وكان من المستبعَد أنه سيُخبرنا بقصة خارج نطاق التصديق.»

وافق الآخرُ قائلًا: «هذا صحيح، ومع ذلك، أنا مقتنع بأنه قال تقريبًا كل الحقيقة.»

«إذن، مَنْ قتل ثورنتون لاين؟»

نهضَ تارلينج بإيماءة تنمُّ عن يأسه.

«يبدو أنك بعيدٌ عن حل هذا اللغز مثلي، ومع ذلك فقد شكَّلتُ نظرية قد تبدو خيالية ...»

كانت هناك خطوات خفيفة على الدَّرج، وعبَر تارلينج الغرفة، وفتح الباب.

دلف لينج تشو، بهدوئه، ونفسه الغامضة، وفيما عدا أن جبهته ويده اليمنى كانتا مُغطَّاتين بضمادات ثقيلة، لم يكن يحمل أيَّ دليل على تجربته المأساوية.

قال تارلينج باللغة الإنجليزية: «مرحبًا، يا لينج تشو، هل تأذيت؟»

قال لينج تشو: «ليس كثيرًا.» ثم استطردَ: «هل سيتكرَّم سيدي ويُعطيني سيجارة؟ لقد فقدتُ كل سجائري في الصراع.»

«أين سام ستاي؟»

أشعلَ لينج تشو السيجارة قبل أن يُجيب، ونفخ عود الثقاب ووضعه بعناية في المطفأة في منتصف الطاولة.

قال لينج تشو ببساطة: «الرجل نائم في شُرفة الليل.»

قال تارلينج بذهول: «مات؟»

أومأ الصيني.

«هل قتلتَه؟»

مرةً أخرى توقَّف لينج تشو ونفث سحابة من دخان السيجارة في الهواء.

«كان يحتضر منذ عدة أيام، هكذا أخبرني الطبيب في المستشفى الكبير. ضربتُ رأسه مرة أو مرتين، ولكن ليس بشدة. وجرحَني قليلًا بسكين، لكن لا شيء خطير.»

قال تارلينج بتفكير عميق: «سام ستاي مات، ها؟» ثم أردفَ: «حسنًا، هذا يُزيل مصدر خطر على الآنسة رايدر يا لينج تشو.»

ابتسم الصيني.

«إنه يُزيل أشياءَ كثيرة يا سيدي؛ لأنه قبل أن يموت هذا الرجل أصبحَت رأسه سليمة.»

«هل تقصد أنه كان عاقلًا؟»

قال لينج تشو: «لقد كان عاقلًا يا سيدي، وكان يرغب في أن يُدلِيَ بأقواله رسميًّا. لذلك أرسل الطبيبُ الكبير في المستشفى طلبًا إلى قاضٍ أو إلى الشخص الجالس في المحكمة.»

«قاضي تحقيق؟»

قال لينج تشو وهو يومئ برأسه: «نعم، قاضي التحقيق، وهو رجلٌ عجوز ضئيل يعيش قريبًا جدًّا من المستشفى، فجاء يشكو من تأخُّر الوقت. كما جاء رجل كتب بسرعة كبيرة في دفتر وعندما مات الرجل، كتب بسرعةٍ أكبرَ على آلة وأعطاني هذه الأوراقَ لأُحضِرَها إليك، واحتفظَ بأوراق أخرى لنفسه وللقاضي الذي تحدث إلى الرجل.»

عبث في قميصه وأخرج لُفافةَ ورقٍ مغطَّاةً بكتابة مطبوعة.

أخذ تارلينج الوثائق ورأى أنها تتكوَّن من عدة صفحات. ثم نظر إلى لينج تشو.

وقال: «أخبرني أولًا يا لينج تشو، ماذا حدث؟ يمكنك الجلوس.»

سحبَ لينج تشو بانحناءة صغيرة كرسيًّا من على الحائط وجلس على مسافة محترمة من الطاولة، ولَمَّا لاحظ تارلينج أن سيجارته كانت على وشك الانتهاء بسرعة، ناوله علبة السجائر.

«لا بد أنك تعرف يا سيدي أنني أخذتُ الرجل ذا الوجه الضخم، واستجوبتُه دون رغبتك ومعرفتك. هذه الأشياء لا تحدث في هذا البلد، لكنني اعتقدت أنه من الأفضل قول الحقيقة. لذلك، كنتُ أرتِّب لأنْ أُعذِّبه عندما أخبرني أن الفتاة الصغيرة في خطر. لذلك تركته، مفكرًا أن سعادتك لن تعود حتى الصباح، وذهبتُ إلى المنزل الكبير حيث كان يُحتفَظ بالفتاة الصغيرة، وبينما وصلتُ إلى نهاية الشارع رأيتها تركب سيارة مسرعة جدًّا.

كانت السيارة تنطلق قبل وقت طويل من وصولي إليها، لذلك اضطُررتُ إلى الجري؛ لقد كانت سريعة جدًّا. لكني تمسكتُ بالسيارة من الخلف، وبمجرد أن توقفت عند هذا الشارع، تسلَّقتُها من الخلف واستلقيتُ على الجزء العلوي من السيارة. أعتقد أن الناس رأَوني أفعلُ هذا وصرَخوا للسائق، لكنه لم يسمع. وهكذا استلقيتُ لوقتٍ طويل وسارت السيارة إلى الريف، وبعد فترة عادت مجددًا، ولكن قبل أن تعودَ توقفتُ ورأيتُ الرجل يتحدث إلى السيدة الصغيرة بصوتٍ غاضب. ظننتُ أنه سيُؤذيها وانتظرتُ على أُهبَة الاستعداد للقفز فوقه، ولكن السيدة راحت في عوالم النوم ورفعَها إلى السيارة مرة أخرى.

ثم عاد إلى البلدة وتوقَّف مرةً أخرى للذَّهاب إلى متجر. أعتقد أنه ذهب ليتحدث في الهاتف؛ لأنه كانت هناك واحدةٌ من تلك العلامات الزرقاء التي يمكنك أن تراها خارج متجر حيث يمكنُ استخدامُ الهاتف من قِبَل الأشخاص العاديين. وبينما كان قد دخل، نزلتُ ورفعتُ السيدة الصغيرة، وأزلتُ القيود عن يدَيها ووضعتها في مدخل أحد البيوت. ثم أخذتُ مكانها. قاد السيارةَ لفترة طويلة حتى توقف عند سور مرتفع، وعندئذٍ يا سيدي، حدَث قتال.» قالها لينج تشو ببساطة.

ثم تابع: «استغرق الأمر مني وقتًا طويلًا للتغلُّب عليه ثم اضطُررتُ إلى حملِه. وصلنا إلى شرطيٍّ أخذَنا في سيارةٍ أخرى إلى مستشفًى حيث ضمَّدتُ جروحي. ثم جاءوا إليَّ وأخبروني أن الرجل يحتضر وتمنَّى رؤيةَ شخصٍ ما لأنه كان في قلبه شيءٌ أراد أن يُهدئه. فتحدث ذلك السيد وكتبَ الرجلُ لمدة ساعة، ثم رحل إلى أجداده، ذلك الرجل الأبيض الضئيل.»

أنهى حديثه فجأة كما كانت عادته. أخذ تارلينج الأوراق وفتحها، وقرأها صفحةً تِلو الأخرى، بينما كان وايتساید جالسًا بصبر دون أن يُقاطعه.

عندما أنهى تارلينج المستندات، نظر عبر الطاولة.

وقال: «ثورنتون لاين قُتِلَ على يد سام ستاي.» وعندئذٍ حدَّق فيه وايتساید.

بدأ: «لكن ...»

«لقد اشتبهتُ في ذلك لبعض الوقت، ولكن كانت هناك حلقة أو حلقتان في الأدلة مفقودتان، ولم أتمكَّن من الوصول إليهما. دعني أقرأ لك أقوال سام ستاي.»

الفصل الثامن والثلاثون

أقوالُ سام ستاي

«اسمي سام ستاي. وُلِدتُ في ميدستون في مقاطعة كينت. عمري تسعة وعشرون عامًا. تركتُ المدرسة في سنِّ الحاديةَ عشرة واختلطتُ بمجموعة سيئة، وفي سن الثالثة عشرة أُدِنت بارتكاب سرقة من متجر، وأرسِلتُ إلى معهد بورستال لمدة أربع سنوات.

عند إطلاق سراحي من بورستال، ذهبتُ إلى لندن، وبعد عام أُدِنت بارتكاب جريمة اقتحام منزل، وحُكِم عليَّ بالسجن لمدة اثنَي عشر شهرًا مع الأشغال الشاقة. عند خروجي من السجن أخذَتني جمعيةٌ خيرية وعلَّمَتني قيادة السيارات، وحصلتُ على رخصةٍ باسمٍ آخرَ كسائقِ سيارة أجرة، ولمدة اثني عشر شهرًا عملتُ كقائد سيارة أجرة في الشوارع. في نهاية تلك الفترة أُدِنت بسرقة أمتعة الركَّاب، وأُرسلت إلى السجن لمدة ثمانية عشر شهرًا.

بعد إطلاق سراحي من عقوبة السجن هذه، التقيتُ للمرة الأولى بالسيد ثورنتون لاين. التقيتُ به بالطريقة التالية. لقد حصلتُ على خطابٍ من جمعية مساعدة السجناء وذهبتُ إلى السيد ثورنتون لاين للحصول على وظيفة. وقد اهتم بي كثيرًا، ومنذ البداية كان أفضلَ صديق لديَّ. كان لطفه رائعًا وأعتقد أنه لم يكن هناك قطُّ رجلٌ في العالم بمثل هذه الطبيعة الجميلة.

لقد ساعدني عدةَ مرات، ورغم أنني عدتُ إلى السجن، فإنه لم يتخلَّ عني قط، وإنما ساعدني كصديق ولم يغضب مني عندما كنت أقعُ في ورطة.

لقد أُطلِق سراحي من السجن في ربيع هذا العام وقابلني السيد ثورنتون لاين عند بوابات السجن في سيارة جميلة. لقد عاملَني كأنني أميرٌ وأخذني إلى منزله الكبير، وأعطاني الطعام والنبيذ الجميل.

أخبرَني أنه كان مُستاءً للغاية من سيدةٍ شابة كان يعتني بها. هذه الشابة عملَت لديه، وقد أعطاها وظيفة عندما كانت تتضوَّر جوعًا. قال إنها كانت تنشر الأكاذيبَ عنه وإنها كانت فتاة سيئة. لم أكن قد رأيتُ هذه المرأة من قبل قط، التي كان اسمها أوديت رايدر، لكنني شعرتُ بالكراهية الشديدة تجاهها، وكلما زاد حديثه عن الفتاة كنتُ أكثرَ إصرارًا على الانتقام منها.

عندما أخبرني أنها جميلة جدًّا، تذكرتُ أنه كان لي زميلٌ في سجن واندسوورث كان يُدعى سلسر. هذا هو الاسم بقدر ما أتذكر. كان يقضي مدة عقوبته الجنائية لإلقاء حمض الكبريتيك على وجه فتاتِه. كانت قد خذلَته وتزوجَت من رجلٍ آخر بينما كان يقضي مدة السجن. أعتقد أنها كانت جميلة جدًّا. عندما خرج سلسر من السجن انتظرَها وألقى حمض الكبريتيك على وجهها، وقد أخبرني كثيرًا أنه لم يندم على ذلك.

لذلك عندما أخبرني السيد لاين أن الفتاة جميلة، واتتني هذه الفكرةُ لكي أنتقمَ منها. كنت أعيش في لامبث في منزلِ مُدانٍ سابق عجوز، لم يؤجَّر لأي شخص تقريبًا سوى المحتالين. كان يُكلِّف أكثرَ من السكن العادي ولكنه كان يستحق ذلك؛ لأن الشرطة إذا أجرَت أيَّ استفسار، فإن المالك أو زوجته دائمًا ما يُعطون معلوماتٍ خاطئة. ذهبتُ إلى هذا المكان لأنني كنت أنوي ارتكاب عملية سطو في مسويل هيل مع رجل أُطلِقَ سراحه من السجن قبلي بيومين أو ثلاثة، كان يعرف الدكان، وسألني عندما كنا في الشغل يومًا ما إذا كنتُ سأشاركه في العملية. اعتقدتُ أنه قد تكون هناك فرصةٌ أن نهرب بالأشياء، إذا تمكَّنتُ من الحصول على شخص يُقسم إني لم أغادر المنزل في تلك الليلة.

أخبرتُ المالكَ أن لديَّ عمليةَ سطو في اليوم الرابع عشر وأعطيتُه جنيهًا إسترلينيًّا واحدًا. رأيتُ السيد لاين في اليوم الرابع عشر في منزله وعرَضتُ عليه الفكرة. وأريتُه حمض الكبريتيك الذي اشتريتُه في شارع ووترلو، وقال إنه لا يريد أن يسمع شيئًا عن ارتكابي هذا الفعل. وظننتُ أنه ما قال هذا إلا لأنه لا يريد أن يتورَّط في القضية. وطلب مني أن أترك الفتاة له وأنه سيُسوي أموره معها.

غادرتُ منزله حوالي الساعة التاسعة ليلًا، وأخبرته أنني سأعود إلى مسكني. ولكن في الحقيقة ذهبتُ إلى مجمع الشقق في طريق إدجوير حيث تعيش هذه الفتاة رايدر. كنت أعرف الشقة لأنني ذهبتُ إليها في الليلة السابقة بناءً على اقتراح السيد لاين لدسِّ بعض المجوهرات التي أُخِذت من المتجر. كانت فكرته أنه سوف يُطالب بالقبض عليها بتهمة السرقة. لم أتمكن من الدخول إلى المنزل، بسبب وجود محقِّق هناك اسمه تارلينج، لكني

كنتُ قد ألقيتُ نظرة جيدة للغاية وعرَفتُ طريق الدخول، دون المرور عبر الباب الأمامي، حيث كان الحارس دائمًا في الخدمة.

لم أجد صعوبة في الدخول إلى المبنى أو إلى الشقة. اعتقدتُ أنه من الأفضل أن أذهب مبكرًا لأن الفتاة قد تكون في الخارج في المسرح، ولأحظى بفرصة إخفاء نفسي قبل أن تعود. عندما دلفتُ إلى الشقة وجدتُها مظلِمة. كان هذا مناسبًا لهدفي جدًّا. انتقلت من غرفة إلى أخرى. في النهاية جئت إلى غرفة النوم. فتَّشتُ الغرفة، بحثًا عن مكانٍ محتمَل حيث يُمكنني الاختباء.

عند نهاية السرير كانت هناك فجوةٌ مغطَّاة بستارة حيث كان هناك عدةُ فساتين وروب معلَّقة، ووجدتُ أنه يمكنني الدخول هناك بسهولةٍ خلف الملابس ولن يكتشف مكاني أحد. كان هناك مشجبان للملابس بارزان خارج الستارة داخل الفجوة مباشرةً. أذكر هذه المعلومة بسبب شيء حدث لاحقًا.

بينما كنت أتجوَّل في الأرجاء، سمعتُ صوت دوران مفتاح في القفل وأغلقتُ الأنوار. كان لديَّ الوقت بالكاد للدخول إلى الفجوة عندما فُتِحَ الباب وظهر رجلٌ اسمه ميلبرج. أشعل الأنوارَ بينما يدخل الغرفةَ وأغلق البابَ من بعده. نظر حوله كما لو كان يُفكر في شيءٍ ما، ثم خلَع معطفه وعلَّقه على أحد المشجبين بالقُرب من الفجوة. حبستُ أنفاسي خوفًا من أنه قد ينظر إلى الداخل، لكنه لم يفعل.

كان يتجوَّل في الغرفة كما لو كان يبحث عن شيءٍ ما، ومرةً أخرى كنتُ أخشى أن يُكتشَف أمري رغم كل شيء، ولكن بمرور الوقت خرج وعاد ومعه حقيبةٌ صغيرة. عندما خرج من الغرفة رأيتُ بارزًا من جيب المعطف الذي كان معلَّقًا على المشجب، عُقبَ مسدَّس. لم أكن أعرف تمامًا ماذا أفعل به لكنني فكَّرتُ أن وجوده في جيبي أفضلُ من وجوده في جيبه، فسحبته من الجيب وأدخلتُه في جيبي أنا.

بعد فترةٍ عاد كما قلتُ وباشرَ تعبئة الحقيبة على السرير. ثم فجأة نظر إلى ساعته وقال شيئًا لنفسه، وأطفأ الأنوارَ وسارع بالخروج. انتظرتُه طويلًا ليعود مجدَّدًا ولكن لم يحدث شيء، ولعلمي أنه سيكون لديَّ الكثيرُ من الوقت إذا عاد مرة أخرى، ألقيتُ نظرة على المسدس الذي حصلتُ عليه. كان مسدسًا آليًّا وكان محشوًّا. لم أعمل مطلقًا بمسدَّس في حياتي، لكنني اعتقدتُ أنني قد آخذ هذا ما دمتُ أنوي ارتكابَ جريمة قد تُلقي بي في السجن طوال فترة حياتي الطبيعية. ظننتُ أنَّ من الأفضل أن أُشنَق عن أن أذهب إلى الأشغال الشاقة.

ثم أطفأتُ الأنوار وجلستُ بجوار النافذة، في انتظار عودة الآنسة رايدر. أشعلتُ سيجارة، وفتحتُ النافذة لأُخرج رائحة الدخان. أخرَجتُ زجاجة حمض الكبريتيك، وأزَلتُ السدادة ووضعتُها على كرسيٍّ بالقرب مني.

لا أعرف كم من الوقت انتظرتُ في الظلام، ولكن حوالي الساعة الحادية عشرة، بقدر ما أستطيعُ الحكم، سمعتُ صوتَ طقطقة الباب الخارجي بلطفٍ شديد وسمعتُ صوتَ أقدامٍ خافتًا في الصالة. كنت أعلم أنه لم يكن ميلبرج لأنه كان رجلًا ثقيلًا. هذا الشخص تحرَّك مثل قطة. في الحقيقة، لم أسمع صوت فتح باب غرفة النوم. انتظرتُ وحمض الكبريتيك على المقعد بجانبي، حتى يتم تشغيل النور، لكن لم يحدث شيء. لا أعرف ما الذي جعلني أفعل ذلك لكنني مشيتُ باتجاه الشخص الذي دخل الغرفة.

ثم، قبل أن أعرفَ ما حدث، أمسكَ بي شخصٌ ما. وكدتُ أُخنَق بذراعٍ أُلقيَت حول رقبتي واعتقدتُ أن ميلبرج هو مَن اكتشفَني في المرة الأولى وعاد مرةً أخرى لعقابي. حاولتُ دفعه بعيدًا، لكنه ضربني في فكّي.

كنت أشعر بالخوف لأنني اعتقدتُ أن الضوضاء ستُثير الناس وستأتي الشرطة، ولا بد أنني فقدتُ أعصابي وجُنَّ جنوني. قبل أن أعرف ما حدث، أخرجتُ المسدس من جيبي وأطلقتُ النار على الهدف القريب جدًّا. سمعتُ صوتًا مثل ارتطام جسد يسقط. كان المسدس لا يزال في يدي، وكان أول تصرُّف قمت به هو التخلُّص منه. شعرتُ بصندوقٍ بالقرب من رجلي في الظلام. كان مليئًا بالقطن والصوف وأشياءَ أخرى ودفعتُ بالمسدس في أسفله ثم تلمَّستُ ما حولي عبْر الغرفة وأضأتُ الأنوار.

عندما فعلتُ ذلك، سمعتُ المفتاح يدور في القُفل مرة أخرى. ألقيتُ نظرة واحدة على الجسد الذي سقط على وجهه ثم غطستُ في الفجوة.

الرجل الذي دخل كان ميلبرج. كان ظهره لي. عندما أدار الجثة لم أستطِع أن أرى الوجه. رأيتُه يُخرِج شيئًا من الدُّرج ويربطه حول الصدر، ورأيتُه يخلع المعطف والصدرة، ولكن إلى أنْ خرج واستطعتُ الخروجَ من مخبئي لم أُدرِك أن الرجلَ الذي قتلتُه كان عزيزي السيد لاين.

أعتقد أنني أُصِبتُ بالجنون من الحزن. لا أعرفُ ماذا فعلت. كل ما فكرتُ به هو أنه لا بد من وجود فرصةٍ وأنه لم يَمُت على الإطلاق ويجب أن يُنقَل إلى المستشفى. لقد ناقشنا خُطة دخول الشقة وأخبرَني كيف سيُحضِر سيارته إلى الخلف. هُرِعتُ للخروج

من الشقة، مرورًا بالطريق الخلفي. بالتأكيد سأجد السيارة منتظرةً ولم يكن أحدٌ في الجوار.

عدتُ إلى غرفة النوم ورفعتُه بين ذِراعَيَّ وحملتُه إلى السيارة، ودعمتُه في المقعد. ثم عدتُ وأحضرتُ معطفه وصدرته، وألقيتُ بهما على المقعد بجواره. لقد وجدتُ حذاءه في السيارة، وبعد ذلك للمرة الأولى لاحظتُ أنه كان يلبَس شبشبًا في قدمَيه.

لقد كنتُ سائقَ سيارة أجرة؛ لذلك أعرف كيفيةَ التعامل مع السيارة، وفي دقائقَ قليلة كنتُ أسير على طول طريق إدجوير، في طريقي إلى مستشفى سانت جورج. انعطفتُ عبر الحديقة لأنني لم أرغب في أن يراني الناس، وعندما وصلتُ إلى جزءٍ لم يكن فيه أحدٌ أوقفت السيارةَ لإلقاء نظرة أخرى عليه. أدركتُ أنه كان ميتًا تمامًا.

جلستُ في تلك السيارة معه لمدة ساعتين، أبكي كما لم أبكِ قطُّ، ثم بعد فترة أفقتُ نفسي وحملتُه خارج السيارة ووضعته على الرصيف على بُعد مسافةٍ من السيارة. كنتُ عاقلًا بما فيه الكفاية لأدركَ أنه إذا عُثِرَ عليه ميتًا برفقتي، فستسوء الأمور معي للغاية، لكنني كرهتُ تركه وبعد أن طوَيتُ ذراعيه جلستُ بجانبه لمدة ساعة أو ساعتين أُخرَيَين.

لقد بدا باردًا جدًّا ووحيدًا لدرجة أن قلبي كان يقطر دَمًا لأنني سأتركه. في الصباح الباكر رأيتُ حوضًا من أزهار النرجس بالقُرب منا، وقطَفتُ القليل منها ووضعتُها على صدره لأنني أحببته.»

أنهى تارلينج القراءة ونظر إلى مساعده.

وقال: «هذه نهايةُ لغز أزهار النرجس.» ثم أردفَ: «تفسيرٌ بسيط للغاية يا وايتساید. وبالمناسبة، فإنه يُبرِّئ صديقنا ميلبرج الذي يبدو وكأنه سيُفلِت من الإدانة تمامًا.»

بعد أسبوع، كان شخصان يمشيان ببطءٍ عبْر المنحدرات المطلَّة على البحر. لقد سارا لمسافة ميلَيْن في صمت مُطبِق، ثم فجأة قالت أوديت رايدر:

«أنا أتعب بسهولة جدًّا. دعنا نجلس.»

جلسَ تارلينج مطيعًا بجانبها.

قالت: «قرأتُ في الصحف هذا الصباحَ يا سيد تارلينج أنك بعت متجر لاين.»

قال تارلينج: «هذا صحيح.» ثم تابعَ: «هناك أسباب كثيرة جدًّا لعدم رغبتي في الدخول في هذا العمل، أو في الإقامة بلندن.»

لم تنظر إليه، لكنها راحت تعبث بالعشب الذي قطفته.

سألت: «هل ستسافر إلى الخارج؟»

قال تارلينج: «سنسافر.»

نظرت إليه بدهشة وقالت: «سنسافر؟» ثم سألته: «مَنْ تقصد؟»

قال تارلينج: «أقصد أنا والفتاة التي بادلتها حُبًّا عنيفًا في هيرتفورد.» فغضَّت بصرها.

قالت: «أعتقد أنك كنت مشفقًا عليَّ، ودُفِعتَ إلى التصريح العنيف بـ... بـ...»

اقترحَ تارلينج: «الحب؟»

ردَّت بابتسامة صغيرة: «تلك هي الكلمة.» ثم قالت: «لقد دُفِعت لأن تقولَ ما قلتَه بسبب محنتي اليائسة.»

قال تارلينج: «لقد دُفِعت لأن أقول ما قلتُه، بسبب حبي لكِ.»

سألت باستحياء: «أين ستسافر ... سنسافر؟»

قال تارلينج: «إلى أمريكا الجنوبية، لبضعة أشهُر. ثم بعد ذلك إلى الحبيبة في الفصل البارد.»

سألت الفتاة: «ولماذا إلى أمريكا الجنوبية؟»

قال تارلينج: «لأنني كنتُ أقرأ مقالًا حول البستنة في صحف هذا الصباح، وعرَفتُ أن أزهار النرجس لا تُزرَع في الأرجنتين.»

هنـــداوي